عالم الضياء

باقي
للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: عالم الضياء

تأليف: سارة عبد المجيد

مراجعة لغوية: عبد الرحمن شريف

التنسيق الداخلي: أسماء عطا

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

رقم الإيداع: 7544

تدمك: 978/977-85484-6-4

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

رواية

عالم الضياء

تأليف

سارة عبد المجيد

في الأوَّلِ منِ أبريل منْ عامِ أربعةٍ وألْفيْنِ للميلادِ. في أحدِ أحياءِ مدينةِ الإسكندريَّةَ العتيقة.

جلستْ عالية على طرفِ الفراشِ ليلاً بعدَ أن أطفأتْ أضواءَ البيتِ بالكاملِ، راجيةً أن يعمَّ ظلامُ دامسٌ تسْعى إليهِ ،وصمتٌ بهيمٌ تنشدُه،ولكنَّ الضوءَ عاندَ رغبتَها؛ ليتخللَ متسللاً عبرَ ثغراتِ الشُّرفةِ التي أُحكمَ إغلاقُها في محاولةٍ فاشلةٍ لكبحِ لجامِهِ، فارِضًا نفسَه كضيفٍ غيرِ مرغوبٍ فيهِ؛ ليسمحَ لها ببعضِ الرؤيةِ غيرِ الواضحةِ.

وبالطبْعِ لم يأتِ منفرداً، ولكنَّ أصواتَ ليلِ الربيعِ الصحوِ المحملةَ بنسماتِهِ الرقيقةِ بصحْبَتِهِ.

ظلتْ عالية للحظاتٍ صامتةً تُحملقُ في غرفتِها التِي استولى عليْها السكونُ ،وذلكَ إلي أنِ استجمعتْ شجاعتَها،وتملّكت رباطَ جأشِها، وقالتْ بصوتٍ مرتجفِ النبراتِ:

_ إنْ كنتَ حقًّا موجودًا معي وترعَاني على حدِّ قولِك، فأظهِرْ لي نفسَك؛ فأنا أتمنى رؤيتَك رأيَ العينِ.

قالتْ جملتَها، ثمَّ تبعتْها بصمتٍ وترقبٍ للحظاتٍ،ولكنَّ شيئاً لم يحدثْ ممَّا كانتْ تنتظرُه بشدةٍ ،علي الرغمِ من كونِها تهابهُ كذلكَ.

أعادتْ جملتَها مرةً أُخرى ،ولكنَّها في تلكِ المرَّةِ شعُرتْ بمدى

سخافةِ ما تفعلُه؛ ولذلكَ جانبَها الخوفُ والرجفةُ ،فخرجتْ بصوتٍ واثقٍ غيرِ متردِّدٍ:

_ إنْ كنتَ حقًّا موجودًا معي وترعاني فأظهِرْ لي نفسَكَ.

صمتتْ مرةً أخرى منتظرةً، ولكنَّها في تلكَ المرةِ لمْ تنتظرْ طويلاً؛ فقدِ انبثقَ في الغرفةِ ضوءٌ ساطعٌ يخطفُ الأبصارَ.

ارتجفتْ عالية بدونِ حوْلٍ مِنْها ،وعادتْ إلى الخلفِ ؛لتلتصِقَ بالحائطِ المسندِ إليهِ مخدعُها، متقوقعةً في جِلستِها، مُرتَعِدَةً،وقدِ اتسعتْ عينُها رُعباً ،على الرَغمِ منْ أنَّها قدْ ظلَّتْ شاخصةً نحوَ الضوءِ الساطعِ ،تحملُ خشيةَ جنينٍ يستقبلُ دنياهُ لحظةَ ميلادِهِ.

وناجَتْ نفسَها راجفةً:

_ أيكونُ هذا الموتُ قد جاءَ ليدركَني ؟!

فهيَ دائمًا ما كانتْ تستمعُ إلي أحاديثِ الكبارِ وتوقعاتِهم للحظةِ خروجِ الرَّوحِ منَ الجسدِ، ولطالمَا قدْ وصفوهُ بأنَّ المُتوفَّى غالبًا مَا يرى ضوءًا ساطعًا قبلَ أن تفارقَ جسدُه الروحَ.

تملكتْها ظنونُها، فاشتَعلتْ جوارحُها بعواطفَ مضطربةٍ ممزوجةٍ بالخوفِ والحزنِ والشفقةِ؛ ممَّا أهبَ روحَها ، وأثلجَ أناملَها المرتجفةَ،وتسارعتْ دقاتُ قلبِها حتَّى كاد أن يفرَّ هاربًا من بينِ أضلعِها، تاركًا إيَّاها تُعاني قدرَها بلا

قلبٍ، وشرعتْ تَنْعى ربيعَ عمرِها الذي شارفَ على المُضِيِّ قبلَ أن يدنوَ، وأحلامَها التي وئِدت قبلَ أن تُولدَ.

وتذكرتْ أمَّها،وكيفَ ستستقبلُ خبرَ وفاتِها؟! هلْ ستتقبلُهُ لتمضيَ حياتِها بدونِها، أمْ سترفضُ الحياةَ لتلحقَ بِها في أسرعِ وقتٍ ؛كي لا تذرَها وحيدةً في العالَمِ الآخَرِ؟!

وتساءلتْ في جزعٍ:

_ هلْ سأشعرُ بالوحدةِ في العالَمِ الآخَرِ، أمْ أنَّ ربي سيترفَّقُ بي لصغرِ عُمري ،ويُهديني صحبةً من الملائكةِ تحنُو عليّ ،وتعوضُني فقدَ أمِّي.

وأكدتْ ذلكَ لنفسِها مفكرةً:

_ نعمْ بالتأكيدِ هذَا سيحدثُ؛ فأنَا لمْ أرتكِبْ خطيئةً واحدةً في حياتِي القصيرةِ ،حتمًا ربِّي سيترفقُ بي.

وفي تلكَ اللحظةِ غلبتْها العبراتُ، فانهمرتْ علي وجنتيْها يُلهبانِها خوفًا وحزنًا في سكونٍ.

ثمَّ تمالكتْ نفسَها ،وناجتْ ربَّها بصوتٍ مرتجفٍ رانيةً إلى سمائِهِ عبرَ ثغراتِ الشُّرفةِ:

_ يا ربِّ! أنا غيرُ مستعدةٍ للموتِ الآنَ.

_ غيرُ مستعدةٍ .. غيرُ مستعدةٍ..

وهُنا أتاها صوتٌ رخيمٌ قادمٌ منْ جِهةِ الضوءِ قائلاً:

_ ترفَّقِي بنفسِك يا عالية، فإنَّ أجلَك لمْ يأتِ بعدُ.

***

مارس منْ عامِ أربعةٍ وألفيْنِ للميلادِ.

خرجتْ عالية إلى شُرفةِ غرفتِها، في محاولةٍ لاستنشاقِ نسماتِ الليلِ العليلِ ،بعيدًا عنِ الصِّراعاتِ والمناوشاتِ التي تصمُّ آذانَها في داخلِ البيتِ.

نعمْ، لقدِ اعتادتْها، وهيَ غالبًا ما تختمُ لياليَها، ولكنَّها إلى الآن تُزعِجُها ،وتنزِعُ مِنْها سلامَها النفسيَّ وهدوءَ روحِها الذي طالَما تمنتْ أنْ تنعمَ بهِ بعيدًا عنْ مشاجراتِ والديْها، ولكنْ هيهاتَ ، أَنَّى لها ذلكَ؟! إنَّها تفتقرُ إلى ملجإٍ تفرُّ إليهِ في مثلِ تلكَ الأوقاتِ سِوى شرفتِها، وليسَ لها صديقٌ تُفضِي إليهِ بأوجاعِها سوى الليلِ، الذي دائمًا ما يعِدُها بأنَّه سيظلُّ صديقَها الوفيَّ الأمينَ؛ فما أنْ تقُصّ عليهِ أوجاعَها حتى يُهدهِدَ بعبيرهِ ونسائِمِه العطرةِ على وجنتيْها ،اللتينِ ترويهِمَا عبراتُها ؛ليُشعِرَها بأنَّها ليستْ وحدَها، وأنَّهُ بجانبِها، وسيظلُّ كذلكَ.

وفي تلكَ الليلةِ أفرطَ الليلُ في تدليلِها،فأَهْدى إلى روحِها نغماتِ أغنيةِ "ألفِ ليلةٍ وليلةٍ" التي تسترقُّ قلبَها، فعلى الرغمِ منْ أنَّ عالية لم تتجاوزِ السادسةَ عشرَ ربيعًا إلا أنَّها استطاعتْ أن تعبُرَ الحاجزَ الزمنيَّ الذي قيَّدَ أغلبَ أفرادِ جيلِها داخلهُ بموسيقاهُ السريعةِ الصاخبةِ، وألوانِه المتعددةِ، ووسائلِ اتصالِه المتاحةِ في كلِّ حينٍ،ولكنَّها بحسِّها المرهفِ استطاعتْ أن تنفُذَ من خلالِه،

ليستْ بِمُفردِها بالتأكيدِ، ولكنَّها يصْحبُها قلةٌ نادرةٌ قدْ وجدتِ السبيلَ إلى الطربِ الأصيلِ وأفلامِ الأبيضِ والأسودِ بهدوئِها وتفاني أبطالِها.

تسلَّلَ اللحنُ البديعُ إلى آذانِها عبرَ نسماتِ الليلِ الآتيةِ منَ المَقهى ،وشُرْفتِها المُطِلَّةِ عليْهِ والتي يصحبُها نفثاتُ أدخنةِ النرجيلة التي غالِبًا ما تحملُ رائحةَ التفاحِ، فتنبَّهتْ إلى أنَّ الساعةَ قدْ تجاوزتِ الحاديةَ عشرَ ،وأنَّ هذا موعدُ أنيسةِ ليلِها السيدةِ أمِّ كلثوم.

جفَّفتْ عبراتِها ،وحاولتْ تناسي أوجاعَها عائدةً إلي غرفتِها. أغلقتِ البابَ لتَحُدَّ من الضجيجِ الصادرِ منَ الصالةِ ، وأطفأتِ الأضواءَ، ثم أدارتْ قرصَ موجاتِ المذياعِ إلى أن تهادتْ إلى آذانِها عبرَ الأثيرِ.....

يا حبيبي... يا حبيبي..يا حبيبي...

الليل وسماه....

ونجومُه وقمره....

قمرُه وسهره...

وانت وانا...

يا حبيبي أنا يا حياتي أنا...

صمَّتْ آذانَها عنِ الشجارِ الذي ما زالَ دائرًا بينَ أبويْها، والذي قد يمتدُّ إلى السَّاعاتِ الأُولى منَ الصباحِ، وتركتِ العنانَ لروْحِها ؛حتَّى تذوبَ في أحضانِ صوتِ "الست".

لمْ تكُنْ تهوى، أو حتَّى هُناكَ منْ يشْغلُ بالَها، ولكنَّها تعلمتْ أنْ تغُوصَ في أعماقِ كلِّ حالةِ عشقٍ تُلقيهَا على مسامعِها السيدةُ أمُّ كُلثوم ، فتتعايشُ معَها ،وكأنَّها تصِفُ حالتَها هيَ نفسُها.

فمتى غنَّتْ" إنتَ عمري "كانتْ عالية عاشقةً لأحدٍ ما -لا تعلمُه هيَ شخصيًّا- حدَّ الجنونِ، وإنْ غنَّتْ" فات الميعاد "وجدتْ نفسَها تُعانِي الهَجرَ والحرمانَ علي يدِ حبيبِها، الذي يجِبُ ألا ننسَ كونَها لا تعلمُ عنهُ شيئًا.

وأثناءَ تحليقِها في عالَمٍ حالمٍ لا يعرفُ همومَ الواقعِ فُتحَ البابُ بعنفٍ شديدٍ بغتةً ، لتُفاجَأَ بوالدِها أمامَها ،وعيناهُ تقذفانِ جِمَمَ الغضبِ، صائِحًا:

_ ماذا تفعلينَ سيادتك ؟! أتستمعينَ إلى الغناءِ غيرَ عابئةٍ بما يدورُ؟

قالَها ،ويدُه على المذياعِ لِيُطفِئَهُ بغلٍّ حقيقيٍّ.

ارتجفتْ عالية، وهبَّتْ واقفةً ؛لتبتَعِدَ عنْ مرمَى يدِه ،بعدَ أنِ استبدَّ بقلبِها الصغيرِ الذُعرُ ، ولكنَّها آثرتِ الصمتَ خشيةً منْ إثارةِ حفيظتِهِ، فتمتدُ يدُهُ نحوَها بسوءٍ.

رمقَها للحظاتٍ بنظرةٍ ناريَّةٍ كادتْ أن تحرقَها ،فبادلتْهُ إيّاها بنظرةٍ تقطرُ منْها الخوفُ، ثم استدارَ عائدًا منْ حيثُ أتى،وفي تلكَ اللحظةِ هرولتْ والدتُها إلى غرفتِها وجِلةً لتُطمْئِنَها قائلةً:

_ لا تخافي يا حبيبتي، فلنْ أسمحَ لهُ بأنْ يَمسَّكِ بسوءٍ..

ثمَّ أكملتْ، وكأنَّها تُحدثُ نفسَها في خُفوتٍ:

_ ألا يكفيهِ ما أُعانيهِ معهُ لينالَكِ أنتِ أيضًا ، ما ذنبُكِ أنتِ يا عزيزتي؟! ما ذنُبك؟!

ارتمتْ عالية في أحضانِ أمِّها باكيةً لا تعلمُ من ترثِي، فهل ترثِي حالَها وحالَ أمِّها ،أم ترثي حالةَ الشجنِ التي كانتْ تحتَويها في داخلِ عالمٍ عذبٍ سعتْ للغوصِ فيهِ هرَبًا منْ واقعٍ أليمٍ بصحبةِ"ألف ليلة وليلة".

***

قضتْ عالية ليلتَها في أحضانِ فِراشِها ،تذرِفُ العبراتِ ،وكأنَّ مُقلتيْها نبعٌ لنهرٍ لا ينضُبُ ،يُصبُّ فوقَ وسادتِها التي اعتادتْ منها السقايةَ.

أمَّا عقلُها فقدْ دأبَ يتسلَّى بتعذيبِها طوالَ الليلِ، طارِحًا عليْها أسئلةً ما لَها منْ جوَابٍ، وإنْ كانَ فهيَ تجهلُ السبيلَ إليهِ ،على أنَّها- وسطَ كلِّ هذا الصخبِ- ظلتْ هناكَ أمنيةٌ تجولُ بخاطرِها – وهيَ تعلمُ جيِّدًا كونَها تقاربُ الاستحالةَ - وهيَ أن تظلِّلَ السكينةُ بيتَهمْ، والتي يفتقرُ إليها بشدةٍ، وحينَها حلَّقَ عقلُها بعيدًا ؛لتدُاعبَ مُخيِّلتَهَا أحلامٌ رحبةٌ تسعُ قلبَها المتألمَ ، فتصوَّرتْ أنَّ لها أخًا أكبرَ يحنو عليْها ،ويعوضُها عطفَ والدِها الذي حُرِمتْ منهُ على الرغمِ منْ تواجدِه معهَا تحتَ سقفِ بيتٍ واحدٍ؛ ليحميَها ،ويحميَ والدتَها إنِ استدعى الأمرُ لِذَلِكَ.

وهذهِ الأمنيةُ أتتْ كنتيجةٍ لشعورِها بحضورٍ ما لطالَما اختلجَ صدرَها ،عندمَا تضيقُ نفسُها وتخبو روحُها، وكأنَّ هُناكَ أحدًا ما يراقبُها بإشفاقٍ وعطفٍ.

أحدٌ ما يوشِكُ على منحِها ما تصبُو إليهِ نفسُها من حنانٍ وحبٍّ وعطفٍ، بيْدَ أَنَّهُ دائمًا ما كانَ هناكَ حائلٌ ما يحولُ بينَهُما.

فكرتْ ذاتَ مرةٍ أنْ تخبِرَ أمَّها بالأمرِ، ولكنَّها عدلتْ عن ذلكَ.

أمُّها-بالتأكيدِ- سينتابُها القلقُ الشديدُ عليْها وقد تظنُّ بعقلِها الظنونَ.

لا تتذكرُ جيِّدًا متى بدأَ الأمرُ، ولكنَّها تعلمُ جيدًا أَنَّهُ دائمًا ما وُجِدَ، منذُ أنْ تحلَّى عقلُها بنعمةِ الإدراكِ وهيَ طفلةٌ في عمرِ الأربعةِ أعوامٍ، وفي ذلكَ الوقتِ كانتْ تتعاملُ معَ ذلكَ الحضورِ وكأَنَّه أمرٌ واقعٌ، تتفاعلُ معهُ وكأَنَّهُ صديقٌ تُحادِثُه وتلاعبُهُ، ولكنَّها عندمَا كبرتْ قليلاً، وشارفتْ على السابعةِ اكتشفتْ مدى سخفِ ما كانتْ تظنُّهُ وتعتقدُهُ، فتعاملتْ معَ الأمرِ وكأَنَّهُ لمْ يكُنْ أبدًا، وذلكَ إلى أنِ احتلَّتْ كيانَها مرحلةُ المراهقةِ ،فعادَ إليْها ذلكَ الشعورُ مرةً أُخرى.

وعلَى الرغمِ منْ غرابةِ الأمرِ إلَّا أنَّ عقلَها الغضَّ لم ينفرْ من تلكَ الفكرةِ، وإنَّمَا كانَ ملاذَها الذي يمنحُها نوعًا منَ الطمأنينةِ والسكينةِ، تفتقدُهما بشدةٍ ،ويدخلُ على روْحِها السرورَ في لياليها الكاحلة..

ابتسمتْ عالية رغمًا عنْها لِما تركتْهُ الفكرةُ في نفسِها منْ نشوةٍ ،ودعَتْ ربَّها أن يُنعمَ عليْها بغدٍ أفضل من حاضرِها، ثمَّ استسلمتْ لغياهبِ النومِ.

***

أولجتْ فريدةُ المفتاحَ في البابِ ثمَّ دلفتْ صائحةً:

_ عالية !.....عالية! هلْ عُدتِّ منَ المدرسةِ؟

أجابتْها عالية من داخلِ غرفتِها التي أُسِّستْ بأثاثٍ بسيطٍ مكوَّنٍ من فراشٍ يقعُ في المقابلِ منْ فُرجةِ البابِ ، وأريكةٍ قديمةٍ إلى يسارِهِ، ومكتبةٍ مثبتةٍ إلى الحائطِ كانتْ لجدِّها قديمًا، وتحْوي مجلداتٍ متنوعةَ القدمِ، تَحملُ عناوينَ عمْلاقةً لكُتَّابٍ عظامٍ، ولطالَما تساءلتْ عالية عن رجاحةِ عقلِ جدِّها الذي قرأَ لكلِّ هؤلاء،وإلى جانبِ المكتبةِ توجدُ خزانةُ ثيابِها، والتي تحملُ أحدُ ضلفتيْها مِرْآتَها، وتتوسطُ الغرفةَ منضدةٌ دائريةٌ صغيرةُ الحجمِ، غالبًا ما تستعملُها في بعثرةِ أوراقِها لا كمكتبٍ فحسب، فقدِ اعتادتْ عالية الجلوسَ على الأريكةِ مستخدمةً ساقيْها كطاولةٍ، وبجانبِها المذياعُ أنيسُ وحدتِها بصوتِهِ الرَّتيبِ.

أجابتْ عالية والدتَها:

_ نعم يا أُمِّي! أنا هُنا في غُرْفتي.

هرولتْ إليْها فريدةُ قائلةً:

_ آسفةٌ، لقد تأخرتُ اليومَ، فقدْ كانَ هُناكَ اجتماعٌ، وأمرَنا المديرُ بضرورةِ الحضورِ، بالتَّأكيدِ أنتِ جائعةٌ، سأعدُّ الغداءَ حالاً.

أكملتْ فريدةُ جملتَها أثناءَ انتزاعِها لثيابِها في طريقِها نحوَ غرفةِ النومِ، ألقتْهُم بإهمالٍ على الفراشِ ،وعادتْ لِتُعِدَّ الغداءَ لعالية في عَجلةٍ.

وما هيَ سوى دقائقَ معدوداتٍ حتَّى دعتْ فريدةُ عالية إلى مائدةِ الطعامِ ؛لتُقدِّمَ لها الطعامَ ساخنًا، فقدْ كانَ منْ عادةِ فريدةَ أن تقومَ بإعدادِ الطعامِ في كلِّ ليلةٍ ؛ليكُونَ متوقِّفًا على اللمساتِ الأخيرةِ؛ لتقومَ بها عندَ عودتِها من عملِها في اليومِ التالي، حيثُ أنَّ موعدَ عودتِها منَ المدرسةِ التي تعملُ بهِ يسبقُ موعدَ عودةِ عالية منْ مدرستِها الثانويةِ بنصفِ الساعةِ تقريبًا ،أمَّا بخصوصِ محمودَ والدِ عالية ،فقدِ انقطعَ عنْ تناولِ الغداءِ بصحبتِهمَا منذُ أمدٍ بعيدٍ ، فهوَ عادةً ما يعودُ إلى البيْتِ بعدَ صلاةِ المغربِ؛ ليتناولَ غداءَهُ منفردًا، والذي تكونُ فريدةُ قد تركتْهُ على المائدةِ لحينِ عودتِهِ ،حيثُ أنَّها عادةً ما تكونُ في ذلكَ الوقتِ في أحدِ الدروسِ الخصوصيةِ.

طفقَا في تناولِ الطعامِ في صمتٍ إلى أنْ بادرتْ فريدةُ بالقولِ:

_ كيفَ مرَّ يومُكِ يا عالية ؟!

رفعتْ عالية لقمتَها إلى فمِها وازدردتْ ما بها ،ثمَّ أجابتْ في شرودٍ:

_ مثلُ كلِّ يومٍ دراسيٍّ، لا جديدَ في الأمرِ ؟

لاحظتْ فريدةُ اقتضابَ عالية في الإجابةِ ،فأتبعتْ بسؤالٍ آخرَ؛ لتجذِبَ أطرافَ الحديثِ ،وعلى وجهِها ابتسامةٌ مصطنعةٌ:

_ هلْ نمتِ جيدًا أمسِ ؟

رمقتْها عالية للحظاتٍ لا تعلمُ بماذا تجيبُ ولسانُ حالِها ساخرًا:

- ماذا تعتقدينَ؟

ثمَّ اضْطَرتْ أن تختارَ إجابةً باهتةً؛ لتُريحَ قلبَ أمِّها فقالتْ:

_ نعمْ.

ابتسمتْ فريدةُ مجددًا، ثمَّ قالتْ متغلبةً علي تردُّدِها بعدَ لحظاتٍ منَ الصمتِ المُطبقِ، وفي أثنائِهِ كانتْ تبحثُ عنْ نقطةِ بدءٍ لحديثِها فلمْ تجدْ، ولذلكَ آثرتِ الدخولَ في الموضوعِ مباشرةً قائلةً:

_ أعلمُ أن ما يدورُ بيني وبينَ أبيكِ يزعجُكِ كثيرًا، ولكنَّني أتمنَّى ألا يؤثِّرَ ذلكَ على دراستِكِ، فأنتِ الأملُ الذي أحيَى عليْهِ، ونجاحُكِ سيمثلُ ثمرةَ كفاحي وتحمُّلي العذابِ مع أبيكِ.

نظرتْ إليْها عالية في عينِها، ثم باندفاعٍ صاحتْ في حنقٍ تاركةً الطعامَ منْ يديْها:

_ ولماذا تتحملينَ إذًا كلَّ هذا العناءِ، وتجبريني على التحمُّلِ معك ؟! لماذا لمْ تنفصلي عنهُ منذُ أمدٍ بعيدٍ ؟ ماذا تنتظرينَ ؟

خفضتْ فريدةُ عينيْها ؛لتعبثَ في طبقِها في محاولةٍ للمراوغةِ هربًا منَ السؤالِ ، والذي شعُرتْ وكأنَّه استجوابٌ منْ نوعٍ ما، ثم قالتْ بنبرةٍ لا تحملُ سِوى الأسى:

_ صدِّقيني يا عالية لو كانَ هذا سيُنعِم عليّ بحياةٍ أفضلَ ما كنتُ تردَّدتُ ، ولكنَّنا -أنا وأنتِ- الآنَ قد صرْنا بعيدًا نحيَى في سلامٍ، ولكنَّ هذا ما قدْ قُدِّرَ

لي، ولذلكً فأنا أنتظرُ منكِ أن تتقبلي مصيرَنا ، وتعوضيني عنْ حياتِي تلكَ بنجاحِكِ وتفوُّقِكِ، ومن ثَمَّ بالتحاقِك بكليةِ الطبِّ.

ثمَّ استطردتْ بعدَ أن تحولتْ لهجتُها:

_ لذا أرْجو منكِ يا عزيزَتِي ألا يشغلَ بالَكِ الآنَ سِوى دراستِكِ فحسب ، فلنْ أسمحَ لكِ بأنْ تفشَلي مثلِي، أفهِمْتِ؟ !!!

وقالتْ جملتَها الأخيرةَ ضاغطةً على كلِّ مقطعٍ بها ،مؤكدةً على جديتِها.

لمْ تجدْ عالية ما يمكنُها قولُه بعدَ ذلكَ ،فلازَمتِ الصمتَ حتَّى أنهتْ طعامَها، ومِن ثَمَّ همَّتْ بالوقوفِ مزدردةً ما تبقَّى في حلقِها من آثارِ الطعامِ، بجانبِ الكلماتِ التي ودَّتْ لو طاوَعَها لسانُها لقولِها، فعاجلتْها فريدةُ قُبيلَ انصرافِها بأن ربتت على يدها في حنانٍ ،وعلى ثَغْرِها ابتسامةٌ مطمئنةٌ بدونِ كلماتٍ.

انصرفتْ عالية إلى غرفتِها ؛لِتُعِدَّ نفسَها للذهابِ إلى درسِ مادةِ الرياضياتِ، وعند خروجِها من الغرفةِ وجدتْ أمَّها هيَ الأُخرى استعدتْ للذِّهابِ إلى طلابِها الذينَ تدرِّسُ لهمْ مادةَ الكيمياء ، فقدْ كانَتْ منْ عادةِ فريدةَ العودةُ من المدرسةِ لإعدادِ الغداءِ لعالية، ومِنْ ثمَّ الذهابُ لتقديمِ الدروسِ الخصوصيةِ لطلابِ المرحلةِ الثانويةِ، أيْ: للذينَ في أعمارِ ابنتِها؛ فبدونِ الدروسِ الخصوصيةِ لنْ تتمكَّنَ من تلبيةِ احتياجاتِ البيتِ ومصروفاتِ دروسِ عالية.

ودَّعتْها عالية وانصرفتْ ، وفي أثناءِ طريقِها إلى بيتِ صديقتِها "حسناءَ" ظلَّ عقلُها يردِّدُ على مسامعِها حديثَ أمِّها، ويطرحُ عليْها تساؤلاتٍ مطالبًا إيّاها بإجاباتٍ، وكأنَّها تملِكُ لهُ جوابًا:

تُرى هلْ هُناكَ سِرٌّ تُخفِيهِ عنْكِ أمُّكِ ؟ حديثُها ينمُّ عنْ ذلكَ، وإلَّا فلِماذا لمْ تكنْ لتحيَى في سلامٍ بعيدًا عنْ صِراعِها المتواصلِ معَ أبيكِ إذَا ما انفصلتْ عنهُ؟!! ما الَّذِي كانتْ تُعانِيهِ أكثرَ مما تُعانيهِ الآنَ؟ وهيَ بالفعلِ تمتلكُ البيتَ الذي تحيى فيهِ، فلنْ تُعانيَ مثلاً منَ البحثِ عنْ بيتٍ مناسبٍ وسطَ جيرانٍ لا تعرفُهم حقَّ المعرفةِ، وقدْ يُشكِّلون خطرًا عليكُما، وهيَ أيضًا تمتلكُ منَ المالِ ما يضمّنُ منَ العيشِ عيشةً راضيةً لا ينقصُكُما شيءٌ، وهيَ بالفعلِ منْ تَقومُ على شؤونِ البيتِ ومصروفاتِه الآنَ، فما الذي يمنعُها إذاً ؟!! ما الذي يجعلُها تفضِّلُ هذهِ الحياةَ غيرَ المتكافِئَةِ والقائمةَ علي القهرِ والعنفِ؟!!

وفي أثناءِ لهوِ عقلِها وبعثرتِه لتساؤلاتِهِ، وجدتْ نفسَها أمامَ بيتِ حسناءَ بعدَ أنْ أخذتْها قدمَاها إليهِ أثناءَ شرودِها، وكأنَّ لُهما عقلاً يعقلُ ويهدِي.

صعدتِ الدرجَ في تراخٍ حتى وصلتْ إلى الطابقِ المنشودِ، وطرقتِ البابَ ،ففتحتْ لها حسناءُ.

دلفتْ عالية من البابِ إلى الردهةِ بدونِ حتَّى إلقاءِ السلامِ.

اندهشتْ حسناءُ كثيرًا، ولحقتْها متسائلةً في جزعٍ:

_ عالية ما بكِ؟

أجابتْها عالية في محاولةٍ للالتفافِ على السؤالِ أثناءَ عبورِها الردهة التي تُفضِي إلى غُرفةِ الدرسِ:

_ أُعاني منْ صُداعٍ مزمنٍ يلاحقُني منذُ ثلاثةِ أيامٍ، وليسَ هُناكَ دواءٌ يرحمُني منهُ ، ولكنْ هلْ حضرَ الأستاذُ؟

_ لا لمْ يحضُرْ بعدُ.

_ انتظريني للحظاتٍ، سأُعِدُّ لكِ القهوةَ لعلَّها تُؤتِي نفعًا.

أجلستْها حسناءُ في غرفتِها ،وذهبتْ لإعدادِ القهوةِ،وكانتْ عالية تتجنَّبُ الحديثَ عن خلافاتِ والديْها أمامَ صديقتِها، فمنذُ الصغرِ تعلمتْ ألَّا تُخرِجَ أحاديثَ بيتِها للأغرابِ مهمَا كانَ.

أمُّها عودتْهَا ذلكَ "لا حديثَ عمَّا يدورُ بينَ ثلاثتِنا أمامَ أحدٍ غريبٍ، أتفهمينَ؟!!" والغريبُ هُنا يشملُ –كذلِكَ- عائلتَهم منْ أخوالٍ وعمّاتٍ وبالطبعِ أبنائهُم؛ فلمْ تسمعْ عالية أمَّها يومًا تشكُو أباها لأحدٍ، ولكنَّها لطالَما تظاهرتْ ،وكأنَّها تحيى في جنةٍ من نخيلٍ وأعنابٍ ،فلا ينقصُها شيءٌ، وتساءلتْ عالية عنِ السببِ وراءَ تعمُّدِ أمِّها إخفاءِ مُعاناتِها عنْ أعينِ أقربِ الناسِ إليْها، لماذا تتَعمَّدُ إظهارَ ما ليسَ بكائنٍ ؟!!

ولكنَّها لمْ تجدْ يومًا إجابةً كافيةً، فكانتْ تتعمدُ تبريرَ ذلكَ بأنَّ أمَّها تُراعي مظهرَ أبيها أمامَ الأغرابِ وكفى.

وعلى الرغمِ منْ اقتناعِها التَّامِّ بوَهنِ ذلكَ المبررِ، ولكنَّها اعتادتْ أن تبتلعَهُ؛ كي لا تُغضِبَ أُمَّها، وتأتيَ بفعلٍ قدْ يضايقُها، ولذلِك نهجتْ نهجَها،راسمةً ابتسامةً عريضةً على مُحيّاها أمامَ الجميعِ، مهمَا كلَّفَها الأمرُ منْ ضغوطٍ نفسيةٍ.

عادتْ حسناءُ بعدَ لحظاتٍ حاملةً قدحَ القهوةِ برائحتِها النفاذةِ التي تدغدغُ العقلَ، وتُشبِعُ الروحَ،فذابتْ عالية في عبيرِ قهوتِها ممَّا دفعَها إلى أرجاءِ ضجيجِ عقلِها مؤقتًا ؛لتنعمَ بِها في هدوءٍ وسكينةٍ.

***

_ هِلْ عُدتِّ يا عالية!؟

قالتْها فريدةُ بلطفٍ عندَ سماعِها لصوتِ المفتاحِ يُولَج في البابِ ، فردَّتْ عالية:

_ نعمْ يا أُمِّي !.

دلفتْ عالية إلى الصالةِ ،وكانَ والدُها جالسًا يشاهدُ التلفازَ كعادتِهِ ، فقدِ اعتادَ الجلوسَ على الأريكةِ المقابلةِ للتلفازِ متراخيَ الأطرافِ غيرَ عابئٍ بشيءٍ، يتابعُ الأحداثَ الإخباريَّةَ، وكأَنَّهُ مسئولٌ عظيمُ الشأنِ، يتابعُ الأحداثَ السياسيَّة في نهمٍ، وهوَ في الغالِبِ يقضِي معظمَ وقتِهِ على هذا الحالِ، فليسَ هُناك الكثيرُ ممَّا يستطيعُ فعلَه بعدَ عودتِه إلى البيتِ منْ خروجاتِهِ اليوميةِ نهارًا، والتي اعتادَ العودةَ منها بعدَ صلاةِ المغربِ،ولا يُخبِرُ أحدًا عنْها شيئاً.

هلْ يذهبُ إلى العملِ ؟!! بالطبعِ لا، فهوَ لمْ يعُدْ يعملُ منذُ خمسةِ أعوامٍ مضتْ، وزوجتُه وابنتُه يَعلمَانِ هذا جيِّدًا،فعلى الرغمِ منْ محاولاتِ فريدةَ

المتكرِّرَةِ أنْ تدفعَه إلى العملِ إلا أنَّها قدْ باءتْ جميعًا بالفشلِ؛ فلقدْ كانَ يائِسًا منْ كلِّ شيءٍ، إلى جانبِ اقتناعِه التَّامِّ بعدمِ جَدْوَى العملِ، وفريدةُ بالفعلِ تقومُ على احتياجاتِ البيتِ بالكاملِ، إذًا فلِمَ يُقَلِّلُ من شأنِه، ويعملُ عندَ أحدِهم ليأمُرَهُ تارةً وتارةً أُخرى يزجرُهُ؟

ألقتْ عالية عليهِ السلامَ فأَجابَها بخفوتٍ، وكأَنَّهُ يحدِّثُ نفسَه، ثُمَّ دلفتْ إلى غرفتِها التي يقعُ بابُها إلى يمينِ أريكةِ أبيها، فوجدتْ والدتَها جالسةً على الفراشِ في انتظارِها على غيرِ عادتِها، ففِي مثلِ هذا الوقتِ عادةً ما تكونُ في عملِها..

_ لماذَا عُدتِّ مبكراً يا أمِّي !؟

قالتْها عالية وهيَ تُلقِي بنفسِها على فراشِها في إعياءٍ متناهٍ.

مسحتْ فريدةُ على رأسِ عالية في حنانٍ، ثمَّ أجابتْ:

_ لقدْ ذهبتُ إلى الحصةِ الأُولى، ولكنِّي قدْ قضيتُ الوقتَ بصعوبةٍ بالغةٍ؛ لشعوري بإرهاقٍ شديدٍ ممَّا دفعنِي إلى الاتصالِ؛ لإلغاءِ الحصةِ التاليةِ؛ ولهذا قدْ عُدتُّ قبلّكِ.

_ ولكنْ قُولي لي ما بكِ ؟!!

_ لا شيءَ يا أُمَّاهُ ،أشعُرُ بإرهاقٍ شديدٍ أنا الأُخرى.

قالتْها عالية بعدَ أنْ أشاحتْ بوجهِها بعيدًا عنْ والدتِها في أسًى.

مدَّتْ فريدةُ يديْها لتُعِيدَ وجهَ عالية نحوَها في حنانٍ، وعلى وجهِها ابتسامةٌ رقيقةٌ قائلةً:

ـ حدثيني يا عالية بمَا في قلبِكِ، فأنَا أُمُّكِ، أقربُ إليْكِ من نفسِكِ لا داعيَ لِأَنْ تُخفيَ عنِّي شيئًا.

نهضتْ عالية لتقفَ مبتعدةً عن مرمى نظراتِ أمِّها المستجوبةِ وادَّعَتِ انهماكَها في استبدالِ ثيابِها، فانتزعتْ خمارَها أمامَ المرآةِ التي يحملُها بابُ الخزانة في بُطءٍ مُتَعمَّدٍ، ثمَّ أخرجتْ منَ الخزانةِ ثوبًا فضفاضًا أبيضَ اللونِ، يطفُو بلونِه الملائكيِّ على وجهِها البريءِ مزيدًا منَ البراءةِ ،والأبيضُ هوَ لونُها المفضَّلُ، فهيَ تشْعُرُ أنَّهُ اللونُ البِكْرُ الذي خرجتْ منهُ كلُّ الألوانِ عندَ تلوُّثِهِ،وبالطبعِ هيَ تنفِرُ منْ كلِّ شيءٍ ملوَّثٍ.

ارتدتْه في بُطْءٍ مُتَعَمَّدٍ لعلَّ والدتَها تنسى رغبتَها في المواجهةِ.

بالطبْعِ لاحظتْ فريدةُ محاولةَ ابنتِها التملُّصِ منْ سؤَالِها، ولكنَّها -بحنْكتِها التي اكتسبتْها منْ كثرةِ التعامُلِ معَ فتياتٍ في مثلِ عمرِ عالية طوالَ فترةِ عملِها كمعلمةٍ في مدرسةٍ ثانويةٍ- قدْ آثرتِ الصمتَ ،تنتظرُها في سعةِ صدرٍ حتى أنهتْ ما بدأتْهُ ،وحينَها لمْ تجدْ عالية مفرًّا منَ الجلوسِ بجوارِ والدتِها، ثمَّ قالتْ ساعيةً لإعادةِ توجيهِ دفَّةِ الحوارِ إلى مسارٍ مختلفٍ:

ـ حدِّثيني يا أُمِّي ! لماذَا أبي فظًّا إلى هذا الحدِّ ؟! أكانَ هكذا دائِمًا ؟!

تنهدتْ فريدةُ في أسىً ،وطرقتْ بناظريها الأرضَ ،بعدَ أن شعرتْ أنَّ عالية قدْ طرقتْ بابًا كانتْ قدْ أغلقتْهُ بإحكامٍ منذُ سنواتٍ مضتْ ؛ لتمُوجَ بينَ جوارِحِها عواطفٌ قدْ مُزجَتْ بينَ الحنينِ والشجنِ لماضٍ ما عادتْ تحملُ لهُ ذاكرتُها سوى صورةٍ باهتةٍ ضبابيَّةٍ ، تَتَعَمَّدُ إلى تجاهلِها كلَّما طرقتْ مخيلتَها ، إلى أنْ قالت بعدَ حينٍ:

_ لا يا بُنيَّتي ! لقدْ كانَ والدُك شابًّاً رائعًا، يعشقُ الحياةَ ،ولكنَّ هذا ما قدْ آلَ إليهِ المآلُ.

اعتصرتْ عالية يدَ أمِّها في استجداءٍ قائلةً:

_ أرجوكِ يا أُمِّي ! قُصِّي عليَّ قصةَ حبِّكُما، وكيفَ تزوجتُما؟

اضطربتْ فريدةُ قليلاً ،ثمَّ قالتْ بصوتٍ يبدو عليهِ التوترُ:

_ ولماذا يا حبيبتي؟ أهُناكَ شيءٌ تودِّينَ معرفَتَهُ؟!!

_ نعمْ بالتأكيدِ، أتمنَّى أنْ أعلَمَ كيفَ بدأتْ قصةُ حبِّكُما رغمَ تشدُّدِ أبي دينيًّا هكذا؟

ابتسمتْ فريدةُ ساخرةً، ثم قالتْ:

_ إذًا أغلقي البابَ ، وارجِعي لنتحدَّثَ في هدوءٍ ،ولا يُنْصتُ إلينَا.

أغلقتْ عالية البابَ ،ثُمَّ عادتْ لتجلِسَ في المقابلِ منْ والدتِها ،منصتةً باهتمامٍ لحديثِها:

_ بالطبْعِ يا عالية ! لمْ يُولدْ أبوكِ متشدِّدًا دينيًّا هكذا، ولكنَّ هذا أتى بعدَ سفرِهِ للعملِ في السعوديةَ ،واعتناقِهِ الفكرِ الوهابيِّ المتشدِّدِ، فقدْ عادَ منْ هُناكَ مُقصِّرًا لسروالِهِ، مُطِيلًا للحيتِهِ،حاملاً لعقيدةٍ غيرِ رائجةٍ في مصرَ كثيرًا،يرى في كلٍّ ممنْ سواهُ أنهُ ناقصُ الدينِ ،مُشوَّهُ العبادةِ، ممَّا وَلَّدَ عندَهُ نظرةً فوقيةً ترقتْ بهِ فوقَ الجميعِ، وكأنَّهم مُسرفونَ وهوَ المهديُّ المنتظرُ الذي جاءَ لِيُعِيدَ ذَوِيهِ إلى صوابِ السبيلِ ،وقدْ حاولَ كثيراً أنْ ينْشُرَ فكرَه هذا ليتغلغلَ في نفسِ كلِّ منْ حولَه بادِئًا بأختهِ أنيسةَ،والتي كانتْ ترتدي الحجابَ بالفعلِ ، ولكنَّهُ قدْ أمرَها بارتداءِ النِّقابِ،فاعترضَ زوجُها مُخالفًا لرغبتِه، ممَّا ولَّدَ مزيدًا منَ التَّوترِ بينهُمَا، وحينَها جنحَ أبوكِ إلى الانغلاقِ والانعزالِ عنِ الجميعِ، خالِقًا لنفسهِ عالمًا زاعمًا المثاليةِ.

ولكنْ، اسمعي سأروي لكِ حكايتِنا منذُ بدايتِها ، كنَّا -أنا وأبوكِ- جيرانًا منذُ الصغرِ، فقدْ كنتُ أقطُنُ في بيتِنا هذا بصحبةِ عائلتي كما تعلمينَ، وكانَ منزلُ عمتِكِ الآنَ هوَ منزلُ عائلتِه بأكملِها آنذاكَ.

قالتْها فريدةُ مشيرةً منْ خلالِ الشُّرفةِ إلى البيتِ الذي يحتلُّ العطفَةَ المقابلةَ لبيتِهم.

ثمَّ استطردتْ:

_ أمِّي ووالدتُه كانَا أصدقاءً بحكمِ الجيرةِ ،وبالطبْعِ أنا وعمتُك أنيسةُ كنَّا -كذلكَ- أصدقاءً على الرغمِ منْ كونِها تكبرُني بعدةِ سنواتٍ.

ابتسمتْ فريدةُ في خجلٍ ،ثم استطردَتْ:

_ وبالطبْع أنتِ تعلمينَ هذهِ الأمورَ وكيفيَّةِ سيرِها،فقدْ كُنَّا نتقابلُ كثيراً في حضورِ ذوِينَا في الأعيادِ والمناسباتِ.

_ ففي الماضي يا بُنَيَّتِي ! كانَ الجيرانُ كالأخوةِ بل أكثر، ليسَ الأمْرُ مثلَ اليومِ لا أحدَ يعلمُ اسمَ جارِهِ.

هزَّتْ عالية رأسَها في فهمٍ ، فأتْبعتْ فريدةُ في استمتاعٍ حقيقيٍّ بقيَّةَ حديثِها بعدَ أنْ نبشتْ بأظافرِها في ماضٍ بادئِهِ منحَها الكثيرَ منَ السعادةِ، والتي ارْتدَّتْ إلى نفسِها:

_ جذبني أبوكِ بحُسنِ خلُقِهِ إلي جانبِ وسامتِهِ التي كانتْ محطَّ الأنظارِ في صغرِهِ، وهذا بالطبْعِ بحكْمِ كونِهِ جاري الذي لا أرَى سِواهُ، وهوَ- أيضاً- قدْ جُذِبَ نحوي لذكائِي وحسْنِ أخلاقي ، وبذلِكَ جمعتْنا مشاعرٌ بريئةٌ منذُ الصِّغَرِ، ولمْ نكنْ ندركُ حينَها أنَّ هذا ما يُدعى حباً، ولكنَّنا فحسْب عندمَا نلهُو سوياً بصحبةِ إخوانِنَا نكونُ الأقربَ إلى بعضِنَا ،وذلكَ حتى وُضِعْنا في مفترقِ طُرُقٍ.

صمتتْ فريدةُ للحظاتٍ، فتساءلتْ عالية في نفاذِ صبرٍ:

_ ماذا تقصدينَ؟! أرجوكِ أكمِلي حديثَكِ.

أكملتْ فريدةُ حديثَها مفسِّرَةً:

_ بالطبْعِ كانتْ والدتُه تلحظُ تعلُّقَ ابنِها بي، وكذلكَ أُمِّي -رحمَها اللهُ- كانتْ تلحظُ عنِّي ذاتَ الأمرِ ، ولكنَّهُما كانَا يؤْثرانِ الصمتَ تحتَ شعارِ - ما قُدِّرَ لُهما سوفَ يكونُ- ولكنَّ جدتَكِ أمينةَ في يومِ أنْ ظهرتْ نتيجةُ الشهادةِ الإعداديةِ لمْ تجدْ مَفراً منَ الحديثِ،ورأتْ أنَّ التكتُّمَ لنْ يَصلُحَ بعدَ الآن؛ فأتتْ لزيارتِنا لتُبارِكَ لي نجاحِي وتفوُّقِي حيثُ أنَّنِي كنتُ منَ المتفوِّقينَ. لقدِ استقبلتْها أُمِّي في ذلكَ اليومِ، والفرحةُ تُطِلُّ من جنباتِها قائلةً: مُباركٌ لمحمودَ.

فابتسمتْ جدتُكِ أمينةُ، وقالتْ بلهجةٍ ذاتِ معنى لمْ أدركْهُ في حينِها:

_ تفوُّقُ فريدةَ قدْ غطَّى على منْ سِوَاها.

فابتسمتْ أُمِّي في خجلٍ، ثمَّ قالتْ مُستفسِرَةً:

_ ولكنَّ محمودَ قدْ نجحَ أيضاً، أليسَ كذلِكَ ؟!

أومأتْ جدتُكِ برأسِها أن بَلَى، ثمَّ وجَّهتْ حديثَها نحوي قائلةً:

_ مباركٌ يا فريدةُ ! أحسنتِ صُنْعًا.

ابتسمتُ راضيةً عنْ إطرائِها، ولكنَّها أتبعتْ:

_ أرْجوكِ اترُكِينَا أنا وأمَّك سوياً ؛ فهناكَ أمرٌ أودُّ طرحَهُ عليها.

انسحبتُ حينَها في صمتٍ، ويشغلُ فكري لماذَا أصرفتْنِي بتلكَ الطريقةِ الفظَّةِ؟! ولِمَ قالتْ: تفوُّقُ فريدةَ غطَّى على منْ سِوَاه؟

ولكنَّني بعدَ انصرافِها بلحظاتٍ قدْ علمتُ السببَ.

اتسعتْ عيْنا عالية في انتباهٍ، وقالتْ:

_ وماذا كانَ هذا السببُ؟

فقالتْ فريدةُ:

_ عندَ انصرافِها لحقتْ بي أُمِّي إلى غُرْفتي، وقالتْ:

_ أتعلمينَ لماذَا أصرفتْكِ أمُّ محمودَ؟

فأجبتُ: لا.

فأتبعتْ أُمِّي موضِّحةً:

_ "لقدْ كانتْ تسعى لمعرفةِ هلْ تنوِينَ الالتحاقَ بالمدرسةِ الثانويةِ أم لا؟ وبالطبْعِ أجبتُها: نعم. فطلبتْ منِّي -إن كانَ في مقدورِي- إقناعَك بضرورةِ عدولِكِ عنْ رغبتِك تلكَ، هذا إنْ كنتِ تنوينَ الارتباطَ بابنِها محمودَ.

بالطبْعِ حينَها دُهشتُ كثيراً لحديثِ أُمِّي، كيفَ يكونُ هذا الموضوعُ مطروحاً للحديثِ الآن على الرغمِ من صغرِ عمرِ كليْنَا؟! إلى جانبِ تعجُّبي منْ تعلُّقِ أمرِ عُدولي عنِ الالتحاقِ بالمدرسةِ الثانويةِ بارتباطِي بهِ!! فما الرابط بيْنهُما؟! ولذلكَ لمْ أستطعْ كتمانَ أسئِلَتِي ،فصوَّبْتُها تجاهَ أُمِّي في محاولةٍ لاستجلاءِ الأمورِ ، فاستجابتْ أُمِّي لسؤالي، وأوضحتْ لي وجهةَ نظرِ جدتي قائلةً:

" أمُّ محمودَ يا بُنَيَّتِي! ترى أنَّ عندَ التحاقِكِ بالمدرسةِ الثانويةِ ستُتْبعينَها بالجامعةِ، لتحصُلينَ حينئذٍ على مؤهلٍ عالٍ، أمَّا ابنُها محمودُ فسيحصلُ فحسب على شهادةِ الثانويةِ الفنيةِ، وحينَها سيكونُ هُناكَ فارقٌ تعليميٌّ يمثلُ حائلاً بينكما، وهيَ لنْ تسمحَ مُطلقاً بزواجِكُما إنْ كانَ هُناكَ هذا الفارقُ، فلن

تسمحَ أن تنظُرينَ لابنِها في يومٍ منَ الأيَّامِ نظرةً دونيةً لكونهِ سيُصبحُ أقلَّ منكِ علماً.

عبثتْ عالية عندَ سماعِها لحديثِ أمِّها، فتسرَّبَ شعورٌ بالامتعاضِ إلى نفسِها ، ثم قالتْ:

_ أكملي يا أمّي ! أكمِلي !

فقالتْ فريدةُ:

_ أنا أيضاً عبثتُ مثلَكِ تماماً يا بُنيَّتي عندمَا صارحتْنِي أُمِّي بهذا الحديثِ ، ولكنَّ أُمِّي -علي الرغم من كونِها كانتْ سيدةً بسيطةً أمِّيَّةً ، أوْ كمَا يقولونَ "لا تفكُّ الخطَّ" -إلّا أنَّها كانتْ تؤمنُ بالحريةِ المطلقةِ، ولذلكَ أتتْ لتَعرِضَ عليَّ الأمرَ، لأتَّخِذَ أنا قراري بنفسي،وحتَّى لا تندمَ هيَ مستقبلاً إذا ما تطوعتْ بأخذِ القرارِ بدلاً منِّي.

_ وبماذَا أجبتِها يا أُمِّي ؟

_ أجبتُها: لا ، لنْ أترُكَ دراستي منْ أجلِ أحدٍ، سأُكمِلُ تعليمي ،وألتحقُ بالجامعةِ. حينَها أشرقَ وجهُ أمِّي بابتسامةٍ نابعةٍ منَ القلبِ ؛فهيَ كانتْ قلِقةً بحقٍّ مِنْ أنْ أتَّخِذَ قراراً يُحطِّمُ أملَها فيَّ.

_ إذاً ما الذي حدثَ بعدَ ذلكَ ؟ كيفَ تزوجتُما؟!!

قالتْها عالية بلهجةٍ تحْمِلُ الكثيرَ من التعجُّبِ ، فأجابتْها فريدةُ مبتسمةً:

_ لا تتعجَّلي، سأروي لكِ ما قد حدثَ.

_ في صباحِ اليومِ التالي ذهبتْ أُمِّي إلى جدتِكِ أمينةَ لإبلاغِها بقراري، وكمَا روتْ لي أُمِّي عندَ عودتِها فإنَّ جدتَك وعمتَك أنيسةَ قد تفاجآ من قراري كثيراً؛ فقدْ كانَا يظُنَّانِ أَنَّني سأتركُ دراستي لأنتظرَ أبيكِ، أو على الأقلِّ سأُكملُ دراستي في مدرسةٍ فنيةٍ؛ ليحْمِلَ كلانا نفسَ الدرجةِ العلميةِ ، ولذلكَ فما إن أنهتْ أُمِّي حديثَها حتَّى هبتْ جدتُكِ أمينةُ واقفةً، وقالتْ: حسناً إذاً، ولكنْ يا فوقيَّةُ ! أخبري ابنتَك أن تنسى محمودَ تماماً، فقدِ اختارتْ، وآنَ لها أنْ تتحملَ تبعاتِ اختيارِها، ولأَنَّني لا أستطيعُ كسرَ قلبِ ابني، وتحطيمَ حُلمِهِ أمامَ عينيْه، يجبُ عليكِ أنتِ أيضاً أن تنْسي أنَّ لكِ صديقةً تُدعى أمينةَ.

بالطبْعِ كانَ حديثُها هذا بمثابةِ طردٍ لأمِّي ، فهمَّتْ أُمِّي واقفةً وفي عينيْها ترقرقتِ العبراتُ التي سُرعان ما سارعتْ لإخفائِها، ثمَّ انصرفتْ مطأْطئَةَ الرَّأسِ في خزيٍ، وكأنَّها قد ضُبطتْ بجُرْمٍ مشهودٍ.

شهِقتْ عالية مندهشةً واضعةً يديْها على فمِها في استنكارٍ ممزوجٍ بعدمِ التصديقِ ،ثمَّ قالتْ:

_ أحقاً يا أُمِّي قدْ حدثَ هذَا ؟؟

_ نعمْ يا بُنَيَّتِي! هذا ما حدثَ ، فلقدْ كانتْ جدتُكِ أمينةُ شديدةَ البأسِ، لا تهابُ شيئاً، ولا تُعطِي اعتباراً سِوي لرغباتِها.

_ وماذا كانتْ حالةُ جدَّتي فوقيَّةَ عندمَا عادتْ إليكِ؟!!

_ بالطبْعِ كانتْ تُعاني الصدمةَ ، وعلى وجهِها أعتا علاماتِ الأسى والحزنِ، فهيَ كانتْ لا تتوقَّعُ ردةَ الفعلِ تلكَ من صديقتِها الوحيدةِ، علي الرغمِ من معرفتِها السابقةِ لطبَاعِها الحادَّةِ ، فلقدْ كانَ أبوكِ وحيدَ جدتِكِ الذي صبرتْ كثيراً حتَّى حملتْ به بعدَ عمتِكِ أنيسةَ ، وعندمَا جاءَ إلى دنياها كان مدللاً أيَّما تّدّلُّلٍ، فكيفَ يُرفضُ أو يعاملُ بهذا القدرِ من الاستهانةِ كما رأتْ في زعْمِها !!؟؟

وعندمَا أخبرتْني أمِّي بمَا حدثَ شعرتُ بألمٍ شديدٍ أوْغرَ صدري ؛ فأنا السببُ وراءَ أنْ فقدتْ أمِّي صديقةَ العمرِ. لاحظتْ أمِّي تجهمي فلاحقتْني وعلى وجهِها ابتسامةٌ مشرقةٌ تدعوني لتناسِي أحزاني قائلةً: لا تحزني يا عزيزتي، فأنتِ غايتِي، ونجاحُكِ هو ما أحيى على أملِه ، وليسَ هُناكَ أحدٌ أهمُّ عندِي منْكِ.

_ لقدْ كانتْ جدتي فوقيَّةٌ سيدةً عظيمةً.

قالتْها عالية في إعجابٍ حقيقيٍّ، فأومأتْ فريدةُ برأسِها مُؤمِّنَةً على حديثِها، ولكنَّ عالية تساءلتْ مستفسرةً في تعجبٍ:

_ ولكنْ أينَ جَدي في كلِّ هذا ؟!!

_ كان جدُّكِ قد توفى قبلَ تلكَ الأحداثِ بما يقربً منَ العامينِ.

طرقتْ فريدةُ بعينيْها أرضاً حيناً وقد لاحَ شبحُ ابتسامةٍ تحملُ الكثيرَ منَ الأسى، ثمَّ أردفتْ:

_ أتدرينَ يا عالية ! لو كانَ جدُّكِ مازالَ هُنا ما كُنَّا عانيْنا ما نُعانِيه الآنَ ؛ فلقدْ كانَ يمتلكُ قدراً وفيراً من الحكمةِ شملتِ العقلَ والقلبَ،و لمْ أتلمسْها في منْ سواهُ،إلى جانبِ رؤيةٍ ثاقبةٍ لَا يبطنُه الناسُ، وكأَنَّهُ يقرأُ أرواحَهُم ،و كانَ دائمَ الصمتِ، ولكنَّهُ إن تحدَّثَ أدهشَكِ بحكمتهِ ونظرتهِ الثاقبةِ..

أترينَ كلَّ تلكَ الكتبِ العملاقةِ بعناوينها الأخَّاذةِ ؟!

قالتْها فريدةُ مشيرةً إلى مكتبتِهِ، ثمَّ أكملَتْ :

_ لقدْ قرأَها جميعاً، ولذلِكَ أطفتْ عليهِ عمقاً قد لا تجدينَهُ في كثيرينَ ، ولقدْ كنتُ أشعرُ بأَنَّهُ ليسَ أباً كسائرِ آباءِ أصدقائي، يغضبُ ويثورُ ويعاقِبُ ، فلا أتذكرُ يوماً أَنَّهُ عاقبَنِي؛ فلقدْ كانَ قادِراً على احتواءِ كلِّ أفرادِ أسرتِنا، فلا تظنينَ أَنَّني وحدي كنتُ مدللَتَهُ الوحيدةَ، ولذلكَ لطالَما كنتُ أشعرُ أن صدرَه قادرٌ على اتساعِ الكوْنِ بأكملِهِ.

الهدوءُ كانَ سمتَهُ ، والتسامحُ خلقَهُ ، حتَّى أَنَّني كنتُ أنظرُ إليْهِ نظرةً مختلفةً ، نظرةً تحملُ قدسيةً منْ نوعٍ ما ، لا أعرفُ لماذا.

غرفتُكِ تلكَ كانتْ غرفتَه منفرداً ، ولمْ يكنْ يسمحُ لأحدٍ أن يشاركَه إيّاها ، فكُنَّا ننظرُ- أنا وإخوتي- إليْها، وكأنَّها صومعتُه الخاصَّةُ ، محرابُهُ إن صحَّ التعبيرُ.

أنهتْ فريدةُ جملتَها، ثمَّ أتبعتْها بتنهيدةِ أسى تعبِّرُ عمَّا يختلِجُ نفسَها من حسرةٍ على ماضٍ دافئٍ، ثمَّ استطردتْ:

_ ليتَهُ كانَ هُنا الآنَ!!

قالتْها بمرارةٍ تقطرُ منْ صوتِها ،وظلَّتْ للحظاتٍ متجهمةً فرأتْ عبراتُها أنَّها فرصةٌ مناسبةٌ لتتحررَ من مقلتيْها ، ولكنَّها أحكمتْ سيطرتَها عليْها كعادتِها ، فعادتْ إلى محبسِها تنتظرُ فرصةً أخرى في شغفٍ.

قطَبتْ عالية حزناً لِمَا لمستْهُ منْ ضعفٍ دخيلٍ احتلَّ روحَ أمِّها. فعالية قلَّمَا تلمحُ العبراتِ في عينِ والدتِها ، حتى أنَّها كانتْ تظنُّ للحظاتٍ أن أمَّها وُلِدتْ غيرَ مزودةٍ بخاصيةِ البكاءِ.

ربتت عالية على يديْها في حنانٍ تواسيها ،فتمالكتْ فريدةُ نفسَها سريعاً، وعادتْ لِتُكمِلَ حديثَها بعدَ أن أشرقَ وجهُها في تحدٍّ ملحوظٍ قائلة:

_ ولكنْ دعينا نُكمِلُ حديثَنا،وكمَا لكِ أن تتوقعينَ يا سيدتي فإنَّ علاقةَ العائلتيْنِ قدْ قطعِّتْ حبالُها تماماً منذُ ذلكَ الحينِ ، فقدْ كانتْ جدتُكِ أمينةُ كلمتُها واحدةً ، إن تحدثتْ صُدقتْ ، وإن وعدتْ ما أَخلفتْ ، لا تؤمنُ بمبدإِ أنَّ الأيامَ تُداوي الكثيرَ منَ الجراحِ ، فالتزمتْ بكلمتِها إلى أنْ قضتْ أمِّي نحبَها بعدَ التحاقِي بالجامعةِ بعامٍ واحدٍ ، وهُنا بالطبْعِ كُسِرتْ كلمتُها بوفاةِ أمِّي ، فجاءتْ- هي وعمتُك أنيسةُ- لتقديمِ واجبِ العزاءِ لي ولأختي رقيَّةَ ، وذهبَ والدُكِ لخالِكِ حسن لنفسِ السببِ وما إنِ انتهتْ مراسمُ العزاءِ حتَّى عادتْ الأمورُ لنصابِها مرةً أُخرى ،وعادتْ كلُّ عائلةٍ لِمَا كانتْ عليهِ من مخاصمةٍ وجِفاءٍ للأخرى.

قاطعتْها عالية قاطبةً حاجبيْها في تساؤلٍ يشوبهُ التعجُّبُ:

_ وأبي، ألمْ يسعَ لمحادثتِكِ مطلقاً حتَّى لوْ منْ وراءِ جدَّتي؟!!

_ بالطبْعِ لا.

_ لقدْ كانَ أبوكِ عزيزَ النفسِ ، وخبرُ رفضي لطلبِ أمِّهِ صدمهُ كثيراً، ولذلكَ كانَ يتجنبُني وكأنَّني الموتُ ، ويسعى لإظهارِ تجاهُلِهِ لي كلَّما واتتْهُ الفرصةُ؛ ليُثبتَ لي أنهُ لمْ يعُدْ يكترثُ لأمري ، وأنهُ هوَ منْ يرفضُني لا أنا.

_ وماذا كنتِ تفعلينَ عندمَا يتعمَّدُ تجاهلَكِ ؟

_ لمْ أكنْ أغضبُ أو أحزنُ، فقدْ كانَ فعلُهُ هذا يثبتُ لي استمرارَ نموِّ حبي في قلبِهِ ، وإنْ كانَ قدْ حدثَّني وتقبَّلَ وجودي بعدَ رفضي لهُ لكنتُ شككتُ في صدقِ محبتهِ لي؛ولذلكَ فكلَّما تجاهلَني ابتسمتُ واطمأنَّتْ نفسي بأنَّهُ مازالَ ينتظرُني، وينتظِرُ الفرصةَ التي قدْ تفتحُ البابَ بيْننا رغماً عنِ الجميعِ.

_ وهل جاءتْ تلكَ الفرصةُ:

_ بالطبْعِ قد جاءتْ، وإلَّا فكيفَ أتيتِ أنتِ إلى دُنْيَانا!!!

قهقهتْ عالية، وخجِلتْ منْ نفسِها لغباءِ سؤالِها ، ثمَّ قالتْ بعدَ نوبةٍ منَ الضَّحِكِ:

_ اعذُريني يا أمي ! فأنا لمْ أمرَّ بسحابةِ الغباءِ تلكَ منْ قبلُ.

ابتسمتْ فريدةُ في حنُوٍّ وربتتْ على كتفِ عالية، ثمَّ قالتْ:

_ بعد الشرِّ عنكِ يا حبيبتي.

_ إذاً أكملي ! متى جاءتْ تلكَ الفرصةُ ؟

_ لمْ يكنْ منَ الممكنِ أن يحدُثَ تقاربٌ بينَ العائلتينِ طوالَ حياةِ جدتِكِ أمينةَ – رحمَها اللهُ – ولذلكَ فإنَّ أولَ فرصةٍ سُنِحتْ لنا كانتْ في ليلةِ وفاتِها ، عندمَا ذهبْنا لتقديمِ واجبِ العزاءِ،وفي ذلكَ اليومِ التقتْ أعينُنا ،وأسْهبا في حديثٍ مطوَّلٍ لمْ تنعمْ بهِ شفاهُنا ، ثمَّ تفرقْنا ،وكلٌّ منَّا ينتظرَ الآخرَ لأخذِ الخطوةِ الأولى.

حينَها كنتُ في سنتي الأخيرةِ في كليةِ التربيَةِ، وقدْ كانَ دائمَ التنقلِ بينَ الأعمالِ الغيرِ مجزيةٍ ، هذا ما قدْ علمتُهُ منْ أختِه أنيسةَ التي عادتْ علاقتي بها كما كانتْ بعدَ وفاةِ والدتِها،وذلكَ حتى عرضَ عليهِ أحدُ أصدقائِهِ العملَ في شركةٍ سياحيَّةٍ لتنظيمِ رحلاتِ الحجِّ والعمرةِ إلى الأراضي المقدسةِ.

وافقَ والدُكِ على هذا العرضِ لكونهِ مُجْزياً أولاً، ثمَّ لشعورِه بعدَ وفاةِ أمهِ وزواجِ أنيسةَ أختِه في شقةِ عائلتهِ بأَنَّهُ لم يعُدْ لهُ مكانٌ ، فقدْ كانتْ علاقتُه بزوجِ أنيسةَ على غيرِ ما يرامُ ؛ ولذلكَ كانَ الحلُّ يكمنُ في الفرارِ من مصرَ لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ.

أعلمتني أنيسةُ بأمرِ سفرِهِ منْ مصرَ إلى المملكةِ العربيةِ ،والذي سيكونُ بشكلٍ متكررٍ ، فلمْ أُعلِّقْ، وتجاهلتُ الأمرَ برُمَّتِهِ ، باعتبارهِ لا يعنيني في شيءٍ. فما الذِي يربطُني بهِ لأكترثَ لأمرِهِ.

بالطبْعِ هذا ما أظْهرتُه ، ولكنَّني حينَها كانَ بداخلي سؤالٌ يطرحُ نفسَه بإلحاحٍ "تُرى هلْ يتعمَّدُ الفرارَ منِّي" ؟!!!

وعندَ تلكَ الجملةِ تنبهتْ فريدةُ إلى زائرة الحادية عشر القادم منَ المقْهى المقابلِ للبيتِ،فكانَ كصياحِ الديكِ في حكاياتِ ألفِ ليْلةٍ وليْلةٍ ،والذي ما إنْ صاحَ حتَّى تُعلِنُ شهرزادُ انتهاءَ حكايتِها لتلكَ الليلةِ. فحَزَتْ فريدةُ حزوَ شهرزاد، وتوقفتْ عنِ الكلامِ المباحِ قائلةً:

_ لقدْ مرَّ الوقتُ سريعاً، ولم تستعِدِّ ليومِ غدٍ.

قالتْها ،وهمَّتْ بالوقوفِ مستكملةً:

_ سأُعِدُّ لكِ الشطائرَ لتتناوليهَا في أثناءِ استماعِكِ لحبيبتكِ "الست"..

زفرت عالية مستنكرةً، ثمَّ تعلقتْ براحَةِ فريدةَ تستمْهلُها قائلةً:

_ انتظري يا أمي لِنُكملَ حديثَنا ،فقلَّما نجدُ الوقتَ الكافيَ للحديثِ سوياً مثلَ اليومِ، وأنا- حقاً- متشوقةٌ لمعرفةِ باقي الحكايةِ.

_ أعدُكِ يا عالية بأنَّنا سنستكملُ حديثَنا قريباً ،ولكنَّ هذا وقتُ العشاءِ ،ويجبُ أنْ أُعِدَّهُ لكِ ولأبيكِ أيضاً حتى لا يغضبَ ،وتُخْتَتَمَ الليلةُ بخاتمةٍ مأساويةٍ كأغلبِ الليالي، ولا تنسي أيضاً ضرورةَ إعدادِي لغداءِ غدٍ كمَا هيَ العادةُ.

قالتْها فريدةُ وراحتُها تتملَّصُ منْ راحةِ عالية، وفي عينيْها نظرةٌ تلتمِسُ العذرَ منها راجيةً، فأطلقتْ عالية لراحتِها العنانَ ؛لتمضيَ إلى المطبخِ وهيَ تُذَكِّرُ

نفسَها بضرورةِ عدمِ انزلاقِ لسانِها بسرِّها الذي يثقلُ عاتقَها أمامَ عالية في أثناءِ روايتِها ، ثمَّ تَبادرَ إلى ذهنِها سؤالٌ يحملُ في طيَّاتِهِ لنفسِها العليلةِ الكثيرَ منَ التَّوَجسِ.

_ هلْ يا تُرى ستنطلي روايتي المجتزأةُ على عالية رغمَ ذكائِها، أمْ ستفطنُ لوجودِ حلقةٍ مفقودةٍ تجنبْتُ ذكرَها؟!!

أدارتْ عالية قرصَ المذياعِ، وتابعتْ بشغفٍ ترنيماتِ"اسألْ روْحَك".

اسألْ روحَك.... اسألْ قلبَك إيه غيرني.

أنا غيرني عذابي في حبك..

لكن أنت غيرك إيه؟.. غيرك إيه؟..

شنفتْ عالية آذانَها بصوتِ الست بعدَ أنِ استلْقتَ على مضجعِها في استرخاءٍ شاعرةً بوتيرةِ السعادةِ تتصاعدُ بداخلِها، ولكنَّ عقلَها قدْ ظلَّ يبعثِرُ حديثَ أمِّها يميناً ويساراً، ويُعيدُ عليْها تخيُّلَ المشاهدِ التي قصتْها عليْها إلى أنْ غابتْ في سُباتٍ عميقٍ بلْ أحلامٍ، وصوتُ الست ما زالَ يشدُو:

واتغيرت شوية شوية..

اتغيرت ومش بأديا..

وبديت أطوي حنيني إليك..

وأكره ضعفي وصبري عليك..

***

_ أرى وجهَكِ اليومَ يشِعُّ بهجةً وسعادةً على غيرِ عادتِكِ، فهلْ أشرقتِ الشمسُ اليومَ لكِ وحدَكِ ؟!!

قالتْها حسناءُ ساخرةً عندمَا قدِمتْ عالية نحوَها في فناءِ المدرسةِ قُبيلَ طابورِ الصباحِ بدقائقَ معدودةٍ ، فما كانْ منْ عالية إلا أنْ انفرجتْ أساريرُها لدُعابةِ صديقتِها المقربةِ متسائلةً في سخريةٍ:

_ ألنْ أبتسمْ حتى تشرقَ الشمسُ لي وحدِي؟!!

_ بالطبْعِ يا عزيزَتِي ومن سواكِ تّستحِقُ الشمسَ أنْ تشرقَ منْ أجلِهِ؟!!

علا البِشْرُ محيَّا عالية، ثمَّ قالتْ مبتسمةً:

_ الحقُّ معكِ ؛ فالشمسُ أمسِ منحتني المزيدَ من وقتِها لي وحدِي ؟!!

عبستْ حسناءُ في عدمِ فهمٍ قائلةً:

_ ماذا تقصدينَ؟!!

_ أقصدُ أمِّي ، فقدْ ألغتْ أمسِ موعدَ درسٍ خصوصيٍّ؛ لتعودَ قبلي ،وتنتظرني متعللةً بشعورِها بالإرهاقِ ، ولكنَّني واثقةٌ أنَّها قدْ تعمدتْ أن تُخصِّصَ لي وقتاً لنُقضيَهُ سوياً.

_ هذا بالفعلِ رائعٌ.. أليسَ هذا ما كنتِ تتمنينَهُ؟!!

_ بلى بالطبعِ، فأنَا بسببِ عملِها المستمرِّ كثيراً ما ينتابُني شعورٌ بالوحدةِ، ولكنَّها أمسِ كانتْ لي وحدي، وأفاضتْ في حديثٍ مُمتعٍ كالحُلمِ.

أنهتْ عالية جملتَها على صوتِ الجرسِ؛ لينبهَهما إلى موعدِ طابورِ الصَّباحِ.

وبعدَ انقضاءِ اليومِ الدراسيِّ وخروجِهما منْ فناءِ المدرسةِ في طريقِهمَا إلى البيتِ يتباحثانِ جدولَ مذاكرةِ اليومِ،قدْ لاحظتْ حسناءُ إقدامَ كريمٍ نحوهُما ، فنبَّهتْ عالية قائلةً بصوتٍ خفيضٍ متحاشيةً النظرَ نحوَهُ:

_ عالية انتبهي، أترينَ منْ قادمٌ نحوَنا؟!

رنتْ عالية إلى الموضعِ الذي أوْمأتْ حسناءُ إليهِ في خفةٍ، فرأتْ كريمَ. فوجِلتْ، وقالتْ بصوتٍ هامسٍ:

_ تظاهري بعدمِ رؤيتِهِ.

_ كيفَ لي هذا وقد اقتربَ منَّا بالفعلِ!

في تلكَ اللحظةِ رفعتْ عالية رأسَها التي طأطأتْها تجنُّباً لرؤيتِه ،فوجدتْهُ أمامَها يعترضُ طريقَهما قائلاً بصوتٍ متردِّدٍ يكابدُ في طياتِه لوعةً حارةً مختلِساً النظرَ إلى وجهِها على استحياءٍ:

_ لقدْ كُنتُ ماراً منْ هنا ،فقلتُ لنفسي أنها فرصةٌ طيبةٌ لإلقاءِ السلامِ.

قالَ جملتَهُ ،ولكنَّ عالية كانتْ غيرَ منتبهةٍ لكلماتِه، فقدْ أحكمَ التوتُّرُ قبضتَه عليْها ،وتعالتْ خفقاتُ قلبِها حتى كادتْ أن تصُمَّ آذانَها. فأخذتْ تتلفَّتُ حولَها في جزعٍ خشيةَ أن يراهمْ أحدُ أساتذتِها ،وما إن أنْهى حديثَه الذي مرَّ لحظاتِهِ القليلةِ كالجاثومِ القابعِ فوقَ روْحِها حتى قالتْ:

_ وعليكَ السلامُ ، ولكنْ، اسمحْ لنا بالانصرافِ ، فوقفتُنا تلكَ لا تليقُ بي.

قالتْها وقدماها مستعدتانِ للهَرب مُشيحَةً بوجهِها بعيداً ، فاستمهلَها مسرعاً بنبرةٍ مرتجفةٍ:

_ أعلمُ أعلمُ ،ولكنَّني كنتُ أودُّ لوْ أتحْتي لي فرصةَ الحديثِ معكِ قليلاً.

_ أعتذرُ منكَ يا كريمُ! ، ولكنَّكَ تعلمُ أنَّ أخلاقِي لنْ تسمحَ لي.

قالتْ جملتَها، وأطلقتْ لقدميْها العنانَ ،جاذبةً حسناءَ خلفَها ،والتي كانتْ تُعاني الحيرةَ وعدمَ الفهمِ وكأنَّها حقيبتُها.

ظلَّ كريمُ متسمراً في مكانهِ تتملكُهُ الحيرةُ، مُناجياً نفسَهُ:

_ أهيَ –حقاً- تهواني كمَا أهواها ؟! عيناها تُقِرَّانِ بنعم.

_ إذاً فلِمَ لا تمنحُني فرصةً واحدةً للتقرُّبِ منها أكثرَ ؟!!

فأيُّ عَلاقةِ حبٍّ تلكَ التي تنشأُ فحسب من النظراتِ الوجِلةِ والحديثِ وسطَ الزُّملاءِ الذي قلَّما يتعدى اللحظاتِ قبلَ حضورِ المعلِّمِ.

أصدقائي لا يعانُون ما أعانيهِ ، فكلٌّ منهمْ له محبُوبَتُهُ التي يستطيعُ أن يلهوَ معها كيفمَا يشاءُ، حتى أنَّهم يخرُجُون سوياً للجلوسِ في المقاهي ، أمَّا أنا فعالية لا تسمحُ لي حتى بالحديثِ في عجلةٍ.

لن أسمحَ لها بالعبثِ بعواطفي بعدَ اليومِ ، فمنَ اليومِ لنْ أعترضَ طريقَها ،ولنْ أمنحَها اهتماماً لا تستحقُّهُ.

وهكذا عادَ كريمُ إلى بيتهِ ممتقعَ الوجهِ ، خاليَ الوِفاضِ ، ران علي حبه السخط والغضب بعدَ أنْ اصطنعَ المرضَ اليومَ لوالدتِه؛ ليتهرَّبَ منَ الذِّهابِ إلى

المدرسةِ ليُقابلَ عالية ، ولكنَّ كلَّ هذا العناءِ قدْ ذهبَ سُدى بعدَ أنْ رفضتْ عالية محادثتَهُ بشكلٍ قاطعٍ.

***

_ لماذا يا عالية لم تعطِ لهُ فرصةَ الحديثِ؟!!

قالتْها حسناءُ لائمةً ،عاقدةً حاجبيْها في استنكارٍ بعدَ أنِ ابتعدتَا لمسافةٍ كافيةٍ فأجابتْها عالية صائحةً:

_ ماذا تقولينَ ؟!! ماذا إنْ رآنا أحدُ أساتذتِنا؟!! أُخاطرُ بسمعتي لأستمعَ إلى حديثِهِ؟! وماذا إنْ وصلَ هذا الموقفُ إلى والدتي؟! هلْ تعتقدينَ كيفَ ستكونُ ردةُ فعلِها ؟!!

مطَّتْ حسناءُ شفتيْها خجلاً ،ثمَّ قالتْ:

_ كمَا تشائِين، كنتُ أتساءلُ فحسب عمَّا يدورُ في خُلْدِهِ لا أكثرَ.

_ أنا أعلمُ جيِّداً بما يريدُ قولَهُ ، ولكنّني لستُ أهلاً لهُ.

_ الآنَ كلُّ ما يعنيني هو نجاحي وتفوقي ،ومنْ ثمَّ الالتحاقُ بكليةِ الطبِّ لنيلِ رِضا أمِّي وتحقيقِ مُناها.

ثم أتبعتْ عالية بعدَ أنْ هدأتْ خطواتُها قليلاً، متسائلةً في دهاءٍ:

_ ولكنْ، دعْكِ منْ كريم الآنَ، ولتحدثيني عنْ ماجدَ ،كيفَ حالُه ؟!!

ابتسمتْ حسناءُ خجلًا مُشيحةً بوجهِها بعيداً ثمَّ قالتْ:

_ بخيرٍ ، يسعى دائماً ليتحدَّثَ إليَّ كلَّما واتتْهُ الفرصةُ ، ولذلكَ أظنُّ أنَّ قلبَه يُكِنُّ لي شيئاً.

_ وأنتِ؟!!

_ لا أدري، ولكنَّني أشعرُ بسعادةٍ غيرِ مبررةٍ عندَ ملاحقتِهِ لي ، وكأنَّ بدخلي شيئاً ينتظرُ اهتمامَه.

_ إذاً أنتِ أيضاً تُحبينَهُ؟

اكتسى صوتُ حسناءَ بنبرةٍ تحملُ الكثيرَ من الجديَّةِ قائلةً:

_ كلمةُ حبٍّ يا عالية أكبرُ مما تحتملُه أعمارُنا الغضَّةُ ، فلا أظنُّ أنَّ قلبَهُ قادرٌ على استيعابِ ما تحملُه لفظةُ الحبِّ من عواطفَ ، ولا قلبي أيضاً ،إلى جانبِ أنَّني لنْ أسمحَ لنفسي باستهلاكِ قدرٍ منْ عواطفي التي وُلِدتُّ مزودةً بها مبكراً هكذا.

ضحِكتْ عالية كثيراً لحديثِ صديقتِها ،ثمَّ قالتْ بعدَ أنْ هدأتْ قليلاً:

_ ماذَا ؟!! عواطفُك التي وُلدتِّ مزودةً بها !! كيفَ يكونُ ذلكَ!! أتحملينَ قلباً كالهاتفِ الخلويِّ مزوداً ببطاريةٍ تحملُ قدراً محدوداً منَ الطاقةِ ؟!!

_ كما تقولينَ تماماً !! فأنا أرى أنَّ العواطفَ مقدَّرةٌ لكلِّ إنسانٍ منذُ ولادتِه تماماً كعمره ورزقِه ، ولكنَّها ليستْ كبطاريةِ الهاتفِ الخلويِّ كلَّما فرغتْ، استطعتِ شحنَها مرةً أُخرى.

_ فمنْ وجهةِ نظري متى فرغتْ بطاريةُ عواطفِنا – على حدِّ تشبيهكِ - فلا يمكنُنا إعادةَ شحنِها؛ ولذلكَ فأنا أسعى للحفاظِ على أغلبِ طاقتي العاطفيةِ كاملةً لليوْمِ المشهودِ.

_ ومتى يحينُ هذا اليومُ أيَّتُها الفيلسوفةُ العظيمةُ ؟!!

قالتْها عالية ساخرةً بعدَ أنْ ألتفتت محدجة حسناءَ في تعجُّبٍ.

فأجابتْها حسناءُ أثناءَ عبثِها في خُصلاتِ شعرِها الكستنائيِّ المتموِّجِ:

_ عندمَا أصِلُ لمرحلةِ النُّضجِ العاطفيِّ ، أي: بعد تجاوزي لتلكَ المرحلةِ اللعينةِ المدعوةِ بالمراهَقةِ ؛ فأنا إلى الآن في أحيانٍ كثيرةٍ أبكي بلا سببٍ واضحٍ حتَّى بالنسبةِ لي، وأَبتسمُ أيضاً بلا سببٍ واضحٍ.

_ أحياناً أرى الدنيا جميلةً، وأنَّ الغدَ يحملُ ليَ الكثيرَ منَ النجاحاتِ، وأحياناً أخرى أرى أنَّ ما هيَ سِوى بوابةِ العبورِ للعالمِ الآخرِ الذي يجبُ ألا يشغلَ فكري سواهُ، فأُعدُّ عُدَّتي لهُ منْ طاعاتٍ والتزامٍ يتخطَّى تحاشِي الموبقاتِ ؛ليَصلَ إلى حدِّ الابتعادِ عنْ الوسائلِ الترفيهيةِ المباحةِ. أحياناً أرى عدمَ جدْوى تواجدي هُنا في مصرَ ، وهيَ ليستْ في حاجةٍ إليَّ ، وأنَّ الأرضَ المحتلةَ تدعونِي ،ويجبُ عليَّ أنْ أستجيبَ، وأُلبيَ نداءَها، وأتساءلَ في جديةٍ: لماذا لا تفتحُ حكومتُنا بابَ الجهادِ ؟! وإنْ حدثَ سأكون-بالتَّأكيدِ- أولَ الملبينَ، ولنْ أتوانى عنْ تقديمِ روْحي فداءً للأرضِ والعِرْضِ ، فأنا من سآخذُ بثأرِ الدُّرةِ وغيرِه من أطفالِ الحِجارةِ حتى أستشهِدَ على يدِ الاحتلالِ الغاشمِ. وحينَها

أبكي بكلِّ جوارحي لموتي في ربيعِ العمرِ،وما ألبثُ حتى أرى نفسي شاعرةً أُبعثِرُ الكلماتِ في المحافلِ الدوليةِ، وأنالَ الكثيرَ منَ الاحترامِ والتبجيلِ ، وذلكَ على الرغمِ منِ افتقاري حتَّى لقدرةِ حفْظِ الشِّعرِ أو تذوقِه ، ولكنَّ الفتاةَ لا بُدَّ أن تكونَ شاعرةً حتى تصيرَ حالمةً رقيقةً مرهفةَ الحسِّ.وهكذا إلى أن يغلُبَ عليَّ التعقُّلُ في بعضِ الأوقاتِ مثلَ الآن، وأنتبهُ إلى أنَّ ما أُعانيهِ منَ اضطرابِ مشاعرٍ بفعلِ المُرَاهَقةِ اللعينةِ التي أمرُّ بها ، وأعتقدُ أنَّهم أطلقوا عليها مراهَقةً لِمَا لَهَا من وقعٍ مرهقٍ بحقٍّ على النفسِ والروْحِ. وحينَها أتمنى أن أتخلَّصَ منْ تلكَ المرحلةِ في أسرعِ وقتٍ،وأنْ أصِلَ إلى مرحلةِ النُّضجِ ، أو كمَا يدعونَها الرُّشدَ. فرُشْدُ العواطفِ يتبعهُ بالضرورةِ رشدُ العقلِ، وبدونِ الأولِ لنْ يتحققَ الثاني، فكيفَ ليَ الآنَ بعدَ كلِّ ما أُعانيهِ منِ اضطرابٍ أسمحُ لنفسي أنْ أُمنحَ قدراً منْ مشاعري محكومٍ عليهِ مسبَّقاً بالهدرِ والتبديدِ لشابٍّ في مثلِ عمري لا بُدَّ وأنَّه هوَ الآخرُ يعاني ذاتَ الاضطرابِ.

عقدتْ عالية حاجبَها في مشدوهةٍ وتسمرتْ في محلِّها، تحملقُ في عينِ حسناءَ، غيرَ مستوعبةٍ لَمَا تقولُ حينَها ،إلى أن سيطرتْ على كلماتِها قائلةً في تعجُّبٍ:

_ كيفَ تُحلِّلينَ حالتَك بتلكَ الموضوعيةِ، وكأنكِ طبيبٌ نفسي؟!!

_ لأنَّني صادقةٌ معَ نفسِي ؛ ولذلكَ فأنا أُرجِأ عواطفِي تلكَ لأمنحَها للإنسانِ الذي سأقرِّرُ أنْ أُكملَ معهُ حياتي، وحينَها فقطْ سأطلقُ العنانَ لجمِّ عواطفي؛ لتوظَّفَ في محلِّها القويمِ.

أطرقتْ عالية أرضاً بعينيْها الذكيَّتيْنِ، ثم منحتْ الحريةَ لقدميْها لاستكمالِ طريقِهما ،فتبعتْها حسناءُ ، وبعدَ لحظاتٍ- منَ الصمْتِ الذي مَنحَ عقلَها وقتاً كافياً للتفكيرِ- قالتْ عالية:

_ على قدرِ تقديري لحديثِكِ هذا واتفاقِي معكِ في مسألةِ القدرِ المحدَّدِ منَ العواطفِ والقابلِ للاستنزافِ ، بيْدَ أنَّني لا أتفقُ معكِ في جانبِ الاستمهالِ لمرحلةِ الرُّشدِ لمنحِ جمِّ عواطفِكِ لشخصٍ واحدٍ قدِ اختارَهُ عقلُكَ ، فماذَا إنِ اتضحَ خَطؤُكِ في الاختيارِ معَ مرورِ الوقتِ ؟!! ألا ترينَ أنَّ في ذلكَ الوقتِ ستكونينَ أنتِ الخاسرةُ ؟! وخسارتُكِ تلكَ لن تكونَ بالهينةِ ، فعندمَا تُطلِقينَ العنانَ لعواطفِك المكنونةِ التي ظلَّتْ حبيسةَ صدركِ؛ لتتدفَّقَ نحوَ شخصٍ قدْ يتضِحُ زيفُ حقيقتِه معَ الوقتِ، بالتأكيدِ حينَها ستنكسرينَ، وقدْ لا تقومُ لكِ قائمةٌ بعدَ ذلكَ.

تمهَّلتْ حسناءُ للحظاتٍ مفكرةً، ثم قالتْ:

_ لمْ أُفكرْ بتلكَ الطريقةِ من قبلُ ، ولكنَّ رأيَك لا يجانبُهُ الصوابُ ؛ فكلٌّ منَّا قابلٌ للخداعِ ولا يسعُ التنبُّؤ لأحدٍ بمستقبلِهِ ، فما هيَ سِوى اجتهاداتٍ منْ جانبِنَا؛ لنضمنَ لأنفسِنا حياةً سالمةً وسطً عالمٍ مليءٍ بالمخادعينَ.

_ ولذلكَ فأنا لا أسعى للوقوعِ في هوى أحدِهمْ ، أو أنظرُ بعينِ الاعتبارِ لأمرِ الارتباطِ العاطفيِّ ، فلا تُشغلُ بالي هذهِ الأمورُ ، فإنْ كنتُ أتمنَّى وجودَ أحدِهم في حياتي ، فحتْماً لنْ يكونَ بدافعِ الهوى ، ولكنَّني أتمنى أنْ أجِدَ منْ

يحنُو عليَّ كمَا لوْ كانَ أخاً أكبرَ أُفضي إليهِ بهمومِي ، وأحتمي في كنفِهِ مستهينةً بتلكَ الدنيا القاسيةِ.

أومأتْ حسناءُ برأسِها أنْ لا، مُتعجِّبَةً ، وعلى وجهِها ابتسامةٌ ساخرةٌ، ثم قالتْ:

_ أنتِ تبالغينَ يا عالية في مسألةِ الأخِ هذهِ ، فها أنذا أمامَكِ خيرُ مثالٍ ،لي إخوةٌ يكبرونَني بأعوامٍ ،وعلى الرغم من ذلكَ لا أشعرُ في وجودِهما بما أتمنَّاهُ.

ابتسمتْ عالية في مرارةٍ، وقالتْ:

_ هذا لأنَّكِ لستِ في حاجةٍ ماسَّةٍ إليْهِمَا ، ولكنَّك متى احتجتِ لُهُمْا فلنْ يتوَانوا مطلقاً عنْ مساعدتِكِ ، ثمَّ إنَّكِ لا تفتقدينَ الشعورَ بالأمانِ مثلي؛ فوالدُكِ رجلٌ فاضلٌ ، ووالدتُكِ سيدةٌ عطُوفةٌ ضحَّتْ بعملِها منْ أجلِ سعادةِ أبنائِها.

_ ومتى احتجتِ إليْها وجدتِها آذاناً صاغيةً ، أمَّا أنا فوالدتِي معلمةٌ تعودُ منَ المدرسةِ فتُعدُّ نفسَها للذهابِ إلى الدروسِ الخصوصيةِ وفي المساءِ لا أجدُها تقريباً.

مطَّتْ حسناءُ شفتيْها في إيماءةٍ عنْ محاولةِ التَّفَهُّمِ ، ثمَّ قالتْ:

_ لا أعلمُ قدْ تكونينَ محِقَّةً.

_ بالطبْعِ أنا محِقَّةٌ..

قالتْها عالية، وابتسمتْ في مرارةٍ لتواريَ نظرةَ الحسدِ التي تسلَّلتِ رغماً عنْها إلى عينيْها مُصوَّبةً نحوَ حسناءَ:

هيَ تحبُّ حسناءَ حقاً ، ولكنَّها لمْ تستطعْ أنْ تمنعَ نفسَها منْ حسدِها منْ وقتٍ لآخرِ.

نعم ، حسناءُ لا تمتلكُ ذكاءَ عالية وفطنتَها وتفوقَها الدراسيَّ ، ولكنَّها تمتلكُ أشياءً أُخرى منْ وجهةِ نظرِ عالية أكثرَ أهميةً منَ التفوقِ الدراسيِّ ونظرةِ التبجيلِ في أعيُنِ المعلمينَ ؛ فحسناءُ تمتلكُ عائلةً سويَّةً تحترمُ قدراتِ أفرادِها ورغباتِهم ، هذا إلى جانبِ طلةٍ تخطفُ الأبصارَ ، ووجهٌ صبوحٌ يملأ الدنيا بهجةً تتخلَّلهُ قسماتٌ دقيقةٌ تكادُ تتوارَى لإبرازِ عينيْنِ قدِ استعارتَا منَ اليمِّ زرقتَهُ وعمقَهُ واتساعَه حتَّى تجعلَكَ تغوصُ فيهِمَا طواعيةً بلا مقاومةٍ تذكرُ.

أضِفْ إلى هذا شعْراً كستنائيًّا حاسِراً يموجُ أعلى قوامٍ ممشوقٍ نُحِتتْ ثنيَاهُ بدقةٍ بالغةٍ، أمَّا عالية فكانتْ تَرى نفسَها تمتلكُ منْ كُلِّ شيءٍ أوسَطهُ.

متوسطةُ القامةِ ، متوسطةُ الحُسنِ ، لمْ تُؤتَ منْ مزيةٍ تعلقُ في ذهنِك سوى ذكائِها ، فهيَ تكادُ تماثلُ أمَّها لولا فارق العمرِ ،فقدْ أورثتْها فريدةُ نحولَ الجسدِ، وبشْرةً أميلَ إلى السُّمرةِ إلى جانبِ صغرِ القسَماتِ ، وفي عمرٍ كهذا الحسنُ لهُ الكلمةُ العالية في مجتمعِ الفتياتِ.

فليذهبْ الذكاءُ إلى الجحيمِ في مقابلِ عينيْن زرقاويْنِ!

ودَّعتْ حسناءُ عالية أسفلَ بيتِها ،ورحلتْ في حينِ ترقتْ عالية الدَّرجَ ،وعقلُها مازالَ يعملُ في المحادثةِ التي دارتْ بينَها وبين حسناءَ؛فقدْ كانتْ تتأثرُ بشكلٍ كبيرٍ بأرائِها وتحترمُها ، وعادةً ما تأخذُها مأخذَ الجدِّ بعدَ أن تلقَى هوى في نفسِها ، فإنْ كانتْ عالية تمتلكُ القدرَ الوفيرَ منَ الذَّكاءِ، فحسناءُ تمتلكُ قدرةً -ليستْ بالهيِّنةِ -على تحليلِ الأمورِ ورؤيتِها برؤيةٍ قلَّما تجدُها بينَ قرينتِها ، وقدِ اكتسبتْها نتيجةَ القراءةِ المستمرةِ؛ فلقدْ كانتْ حسناءُ تهوى القراءةَ منذُ الصغرِ، ولمْ تكنْ والدتُها تمنعُها أو تعترضُ عليها مثلَما كانتْ تُعانيهِ عالية تجاهَ أمِّها، فعلى الرغمِ منْ كونِ فريدةَ معلمة ،ويُتَحتَّمُ عليْها أنْ تحترمَ هوايةً راقيةً كالقراءةِ ، إلا أنَّها جُردتْ من الولعِ بها منصرفةً إلى الحياةِ العمليةِ بقسوتِها ، وبالتبعيَّةِ كانتْ تمنعُ عالية من الغوْصِ في بحرِها حتى لا تُسرقَ اللحظاتُ من وقتِها الثمينِ ، فتتفرغُ تماماً للمذاكرةِ والتحصيُّلِ الدراسيِّ ابتغاءَ الحصولِ على أعلى الدرجاتِ العلميةِ تمهيداً لالتحاقِ بكليةِ الطبِّ تحقيقاً لأملِها، وقدْ كانتْ عالية تعلمُ ذلكَ جيِّداً ؛ ولذلكَ فقدْ كانتْ ترى أنَّ حسناءَ تسبقُها بخطواتٍ في فهمِ الحياةِ نظراً لاكتسابِها خبراتٍ عديدةٍ قدْ قدمتْها القراءةُ لها على طبقٍ منْ ذهبٍ، تفتقرُ هيَ إليَها.

دلفتْ عالية إلى غرفتِها، واستبدلتِ الزيَّ المدرسيَّ الذي طالَما تمنتْ التخلُّصَ منهُ ، ثمَّ توجهتْ إلى الحمام للاغتسالِ ،في حينِ أعدتْ فريدةُ الغداءَ على المائدةِ.

تناولا غدائَهما سوياً كعادتِها ، وما إنِ انتهيا حتَّى اعتذرتْ فريدةُ منْها لضرورةِ إسراعِها لِلَّحاقِ بموعدِ الدرسِ.

عادتْ عالية إلى غرفتِها، وأخرجتْ مفكرتَها ،وطفِقتْ تراجعُ جدولَ مذاكرتِها ؛ فقدْ كانَ هذا اليومُ منَ الأيامِ القلائلِ التي تنعمُ فيها بوقتِها بعيداً عنْ كابوسِ الدروسِ الخصوصيَّةِ التي تلتَهِمُ وقتَها بنهمٍ. جلستْ على أريكتِها التي تصلحُ كأريكةٍ وكفراشٍ وكمكتبٍ ، وطفقتْ تراجعُ دروسَها بكثيرٍ منَ التركيزِ والتفاني ، وكأنَّ الاختبارَ صباحَ غدٍ، فالمذاكرةُ بالنسبةِ لها تمثلُ خيرَ وسيلةٍ لمرورِ الوقتِ، إلى جانبِ كونِها تمنحُها شعوراً بالأهميةِ، وكأنَّ العالمَ في انتظارِ تخرُّجِها منْ كليةِ الطبِّ لتُقدِّمَ العلاجَ الفعالَ لمرضِ السرطان. وذلكَ حتى تنبهتْ إلى دنوِّ الشمسِ منَ الغروبِ ،فتغطتِ الموجوداتُ باللونِ الأرجواني الكريهِ إلى روْحِها ،ولطالَما تساءلتْ عنْ ماهيةِ الجمالِ الذي يذوبُ فيهِ مرهفُو الحسِّ في مشهدِ الغروبِ ، فهيَ لا تجدُ فيهِ سوى مشهدٍ دمويٍّ ، يستعرِضُ مصرعَ الشمسِ بمنتهى القسوةِ ، ويختتمُ بكتابةِ شهادةِ وفاةِ يومٍ آخرَ لنْ يعودَ في أداءٍ متكررٍ كموظفٍ لا يملُّ عملَه الروتينيَّ ، وما يزيدُ الأمورَ سوءً في كل يومٍ شعورُها بالوحدةِ الإجباريةِ التي فرضتْها عليْها ظروفُ أُمِّها القاسيةُ ؛ ففي مثلِ هذا الوقتِ غالباً ما تكونُ أمُّها في العملِ المسائيِّ.

قُبِضَ قلبُها الصغيرُ فحاولتْ أن تتنفسَ الصعداءَ، فاستجابتْ رِئتيْها بكثيرٍ من العسرِ، وكأنَّ هُناكَ جاثومًا قابعاً فوقَ روْحِها.

تركتْ مذاكرتَها ،ونهضتْ بكثيرٍ منَ العسرِ بعدَ أن تشبثتْ قدماها إثرَ الجلوسِ، فنفضتْهما وترجَّلتْ نحوَ شرفتِها بعدَ أنْ أدارتْ قرصَ المذياعِ؛ لتتهادى النغماتُ العذبةُ إلي آذانِها.

ظلتْ للحظاتٍ في الشُّرفةِ تتابعُ حركةَ سيرِ السياراتِ ، ومنْ آنٍ لآخرَ تخترقُ أذنَها سبةٌ منْ هنا على سبةٍ منْ هناك يتبادلُها المتردِّدونَ على المقهى على سبيلِ المُزاحِ.

عادتْ إلى غرفتِها بعدَ مرورِ لحظاتِ الغروبِ الموحشةِ عائدةً إلى الاستذكارِ على ترنيماتِ "آدي الربيع عاد من تاني" بصوتِ "فريد الأطرش"التي أدخلَتْ عذبُ موسيقاها على روْحِها بعضَ السرورِ.

***

فُتِح البابُ بكثيرٍ منَ العنفِ ،ودلفتْ فريدةُ إلى الصَّالةِ صائحةً في استياءٍ:

_ ألنْ تتخلصَ منْ عادتِكَ الذميمةِ تلكَ، وتكفَّ عنْ تتَبُّعي ومراقبتي ؟!

وكيفَ لكَ أنْ تسمحَ لنفسِكَ بقذفي باتهامٍ كهذا وأنا في ذلكَ العمرِ ؟؟ أنتْ حقاً قدْ جُننتَ تماماً.

قالتْها ،ودفعتِ البابَ بعنفٍ ليُغلقَ خلفَها محدِثاً ضجةً، وكأنَّهُ قنبُلةٌ هيدروجينية.

_ هذهِ عادتُكِ دائماً تتهمينَني بالجنونِ وقصرِ التفكيرِ ، أنا الأحمقُ الذي لا يعي، ولا يُقدِّرُ تصرفاتِ زوجتِهِ النابغةِ. فمنْ أنا حتى أراجعُكِ في تصرفاتِكِ، وأنتِ الجامعيةُ المثقفةُ، وأنا الرجعيُّ المتخلفُ ذو الفكرِ القاصرِ أليسَ كذلكَ؟!!

قالَها محمودُ صائحاً في فريدةَ بصوتٍ منافِسٍ لصوتِها ارتفاعاً ،طارقاً رأسَه بيدهِ في غلٍّ حقيقيٍّ بعدَ أن تأججتْ بداخلهِ نيرانُ عقدةِ نقصٍ قديمةٍ وأزليةٍ طالَما ألَّحتْ عليهِ أثناءَ مشاجراتهِ معَ فريدةَ.

وفي تلكَ الأثناءِ كانتْ عالية في غرفتِها تُنصتُ في جزعٍ لَما قدْ طرقَ مسامِعَها منْ مشاجرةٍ حارَّةٍ بينَ والِديْها آتيةٍ منَ الصالةِ. أغلقتِ المذياعَ خوفاً منْ أبيها ،وضمَّتْ ساقيْها إلى صدرِها في وضعٍ حزينٍ لترتجِفَ في مجلسِها ، واعتلتْ عينيْها نظرةُ حزنٍ ممزوجةٍ بالعجزِ والقهرِ شاعرةً أنَّ هذا اليومَ لنْ يمرَّ على خيرٍ.

دعتْ ربَّها أن يهديَهُما، ولا يتجاوزُ الخلافُ حدودَه ،ولكنَّ قلبَها حدَّثَها بأنَّ في تلكَ المرةِ الأجواءَ مشحونةٌ بشحناتٍ سلبيةٍ عاليةٍ، ولنْ يتعقلَ أحدٌ منهما قبلَ أنْ يُهدمَ شيءٌ ما.

_ لقدْ تحمَّلتُ فوقَ طاقتي منكَ، ولنْ أسمحَ لكَ بإهانتي باتهامٍ كهذا.

_ أنا أحترمُ نفسي جيِّداً لأنني محترمةٌ لا لخشيتِي منكَ. وبالطبْعِ لنْ أسمحَ لأحدٍ مثلِك أنْ يُعلِّقَ على تصرفاتي.

قالتْها فريدةُ مشيرةً إلى محمودَ منْ أعلى إلى أسفلَ في استهانةٍ متعمدةٍ.

_ أحدٌ مثلِي ؟!!

تساءلَ محمودُ مشيراً إلى نفسِهِ في صدمةٍ منَ الحدِّ الذي وصلتْ إليهِ فريدةُ منَ الاستخفافِ به و التقليلِ منْ شأنِهِ.

فأجابتْ فريدةُ في تحدٍّ مقصودٍ مؤكدةً على حديثِها:

_ نعم، أحدٌ مثلَكَ ، فمَنْ أنتَ لتعلِّقَ على تصرفاتي، وتتهمَني بالاستمتاعِ بكلماتِ الإعجابِ منَ الرجالِ الأغرابِ.

_ هذا ما رأتْهُ عيني عندمَا تتبعتُكِ، ورأيتُ قاسمَ يستوقفُكِ ليُطرِبَ آذانَك بأعذبِ الكلماتِ والتي ابتسمتِ عندَ سماعِها.

هتفتْ فريدةُ منفعلةً بعدَ أنْ تصاعدتْ حدةُ نظراتِها، واكتستْ ملامحُها برداءِ الغضبِ:

_ عنْ أيِّ إعجابٍ تتحدثُ؟! لقدِ استوقفَني الرجلُ ليطلبَ مني إعطاءَ درسٍ لابنتِهِ.

_ نعم بالطبعِ، فهذهِ هيَ وسيلتُه لاستدراجِكِ إلى بيتِهِ ؛لتكونا على راحتِكما بعيداً عنِ الأعيُنِ.

قالَ جملتَه وعلى وجهِهِ ابتسامةٌ ساخرةٌ، وكأَنَّهُ يمْعِنُ في استثارتها، ثم أتبعَ:

_ فأنتِ لا تقولينَ لا لمنِ استدرجكِ إلى بيتِهِ بتلكَ الحجةِ. وكيفَ لي معرفةٌ منْ غيرِهِ على قائمةِ خروجاتِكِ اليوميةِ بحجةِ الدروسِ.

قالَها محمودُ، وفتحَ البابَ ليخرُجَ منَ البيتِ، والغضبُ مازالُ يشتعِلُ بداخلِهِ ، لقدْ تقيَّأَ ما كانَ يحجمُ نفسَه عنْ قولِهِ طوالَ السنواتِ المنقضيةِ رغماً عنهُ، ولكنَّه يفتقرُ إلى الشجاعةِ الكافيةِ لمواجهةِ ردةِ فعلِ فريدةَ؛ ولذلكَ آثرَ الهربَ ،وتركَها تُعاني ذهولَها قبلَ أن تنبس ببنت شفه..

حملتْ فريدةُ صدمتَها وخيبةَ أملِها في زوجِها الذي طالَما تحملتْ حماقاتَه ،ومضتْ متوجهةً إلى غرفتِها بقلبٍ تعالتْ خفقاتُهُ، ووجهٍ ممتقعٍ منْ فورها دونَ أن تسعى لمعرفةِ إنْ كانتْ عالية قدِ استمعتْ إلى اتهاماتِ أبيها المشينةِ أمْ لا.

لمْ تكنْ لتستطيعَ النظرَ في عينِ ابنتِها بعدَ تلكَ المواجهةِ الداميةِ التي اغتيلت فيها كرامتها اغتيالا ، وارتعشتْ صورتُها في عينيْها هيَ ذاتِها ، وهيَ التي لمْ تقترفْ إثماً واحداً في حياتِها سوى عَلاقتِها بذلكَ الرجلِ ناكرِ المعروفِ، فأحياناً اتهامُنا بإثمٍ لا يمكنُنا اقترافُهُ يكونُ وقعُهُ على نفوسِنا أقسى منَ المحتملِ ،فلا يعزِّينَا منهُ حتى براءتنا..ولا يبرئُنا أمامَ أعزائِنا حتّى إنكارنِا لهُ..

وفي تلكَ الأثناءِ كانتْ عالية تجمدتْ في مكانِها تُعاني صدمةً تَركَتْ في نفسِها عميقَ الأثرِ ، فاستسلمتْ لعبراتِها التي انهمرتْ تلهبُ وجنتيْها خجلاً من حديثِ أبيها، وعدمِ استيعابِهِ لما يتهمُ أمَّها بهِ.. حديثٌ صكَّ مسامعَها، وقبضَ صدرَها، وغشيَها على إثرهِ كدر عميقٍ.

فعلى الرغمِ من محاولتِها لتتجنبَ سماعَه بوضعِها راحتيْها على آذانِها والضغطِ عليْهما حتى كادتْ أن تُحطِّمَ رأسَها ،ولكنَّهُ اخترقَهمَا كطلقاتٍ مندفعةٍ من بندقيةٍ عامرةٍ لا ترحمُ الجرحى العُزَّلَ..

تمالكتْ نفسَها بكثيرٍ منَ العسرِ ،وألقتْ بنفسِها على الفراشِ متخذةً وضعَ الجنينِ الذي يعبِّرُ أصدقَ تعبيرٍ عنْ حالتِها النفسيَّةَ القاتمةَ.

فاليومُ قدِ انتهى نهايةً مأساويةً ، ولمْ يعدْ في إمكانِها فعلُ شيءٍ سوى الخلودِ إلى النوْمِ هرباً منْ أفكارِها الشنعاء بعدَ أنْ طفِقتْ تطرقُ رأسَها خواطرُ أدمتْ نفسَها ،ومزقتْ سلامَها النفسيَّ.

نعم ، هيَ بالطبْعِ لم تساورْها الشكوكُ ولو للحظاتٍ في إمكانيةِ صدقِ حديثِ أبيها، بيْدَ أنهُ قدْ ظلَّ في حلقِها تساؤلٌ ودتْ لو كانَ في مقدورِها أن طرحتُهُ على أمِّها ،وهوَ لماذا يتطرَّقُ إلى ذهنِ أبيها اتهامٌ كهذا؟! فليسَ هُناكَ دخانٌ بدونِ نارٍ ،ولماذا تجنبتْ أمُّها النظرَ في عينِها ،وفرَّتْ إلى غُرفتِها حتَّى دونَ أنْ تطمئنَّ عليْها كمَا هيَ العادةُ عندَ عودتِها ؟!! هزَّتْ رأسَها يميناً ويساراً في محاولةٍ لطردِ الأفكارِ الشنعاء التي طفِقتْ في التسلُّلِ إلى رأسِها خِلسةً رغماً عنْها..

استكانَ جسدُها على عكسِ عبراتِها التي أصرتْ على الانهمارِ تُسقيَانِ وسادتَها.

بكاءٌ ونحيبٌ بلا ضوضاءَ، هذه عادتُها ، فهيَ حتَّى لا تمتلكُ شجاعةَ لفتِ الأنظارِ إلى مبكاها ، ولا تمتلكُ رفاهيةَ انتظارِ مَنْ يواسيها ؛فلكلِّ امرئٍ معاناتُه الخاصةُ التي يجبُ أنْ يتحمَّلَها بجلَدٍ ،ولا يُضيفُ إلى الآخرِ مزيداً منَ الآلامِ، هذا ما علمتْها إياهُ وحدتُها القاسيةُ.

وعلى غرارِ إفرازِ الجسدِ للادرينالين في حالةِ اعتلالِ الجسدِ ليعزلَهُ عنِ الآلامِ ، أفرزَ عقلُها مُسكناتِهِ الخاصةَ ؛ ليغلِّفَ روْحَها منَ الأوجاعِ ، مستخدماً خيالَها الخصبَ ، فرسمَ لها واقعاً افتراضياً يفترضُ وجودَ أخٍ مثاليٍّ يكبرُها ببضعةِ أعوامٍ يشاركُها أحزانَها، ولكنَّهُ أيضاً قادرٌ على إيجادِ حلولٍ لها ولأمِّها البائسةِ.
رجلٌ بما تحملهُ الكلمةُ منْ معانٍ ساميةٍ قرأتْ عنها في الكتبِ ، وتصورتْها في مخيَّلتِها.
وقدْ نجحَ عقلُها بالفعلِ في انتشالِها منْ واقعِها المريرِ، وذلكَ حتَّى احتلَّ النعاسُ كاملَ جوارِحِها فاستسلمتْ لهُ خاليةَ الوفاضِ.
وهنا شعرتْ بأنَّ هناكَ منْ يجلسُ خلفَ ظهرِها بلطفٍ ليربت على كتفِها في حنانٍ قائلاً:
_ أنا هُنا بجوارِك يا عالية ، أخوكِ الذي تبحثينَ عنهُ فاطمئَني لستِ وحدَك..
انتفضتْ من نعاسِها وهَّبتْ جالسةً في جزعٍ تُعاني رجفةً سارتْ في أوصالها.

أخذتْ تتلفتُ حولَها باحثةً عْن مطمئِنِها ،ولكنَّها بالطبعِ لمْ تجدْ أحداً، فقدْ كانَ السكونُ استولى على البيتِ وكادَ الإعتامُ أن يتمَّ لولا مصباحٌ صغيرٌ في نهايةِ الردهةِ اعتادَ أن يؤنسَ البيتَ بإضاءَتهِ الخافتةِ.. هدَّأَتْ عالية من روْعها ، وطمأنتْ نفسَها بكونهِ مجردُ حلمٍ.. ولكنَّ عقلَها حدَّثَها بكونِ مَنْ رأتهُ في حُلمها ليسَ منْ صُنعِ عقلِها الباطنِ ، وإنَّما هوَ تجسيدٌ لذلكَ الحضورِ الذي تَشعرُ وكأَنَّهُ يراقبُها دائماً على أنهُ أتى لتلكَ المرةِ في حُلمِها ليمنحَها مزيداً منَ الطمأنينةِ والعطفِ ، ولكنَّهُ بالطبعِ مجردُ حُلمٍ فكانَ عاجزاً على انتزاعِ الأحزانِ منْ بينِ جوارحِها التي باتتْ عليلةً تكابدُ جُرحاً غائراً..

تكورتْ عالية على نفسِها، واتخذتْ منْ راحتيْها متكأً لرأسِها الذي راحَ يطرقُ وكأَنَّهُ قد أوشكَ على الانفجارِ، وفي ذلكَ الوقتِ منَ الليلِ كانتْ واثقةً منْ أنَّ أحداً لنْ يستمعَ إلى أنينِها فأطلقتْ لنفسِها العنانَ، وشرعتْ في بكاءٍ ونحيبٍ حارَّيْنِ يمزقُ نياطَ القلوبِ..

بكتْ بحرقةٍ كما لمْ تبكِ من قبلُ، ناعيةً حالَها وحالَ أمِّها حتى شعرتْ بنفاذِ مُقلتيْها منَ العبراتِ، وبأنَّها في تلكَ الليلةِ قدِ استنفذتْ طاقةَ الحزنِ التي وُلدتْ مزودةً بها، وهُنا تذكَّرتْ حديثَ صديقتِها حسناء عنِ الحبِّ فابتسمتْ ساخرةً لشعورِها بقدرِ تأثُّرِها بآرائِها.

فقدْ تبنَّتْ وجهةَ نظرِها حرفياً دونَ أن تدريَ، ولكنَّها في تلكَ المرةِ قدْ طبَّقتْها على الحزنِ لا الحبِّ.

وهُنا لعِبَ عقلُها لعبتَهُ التي داومَ عليْها في إخراجِها منْ بوتقةِ أحزانِها على طريقتِهِ الخاصَّةِ حفاظاً على سلامِها النفسيِّ بقدرِ الإمكانِ؛ فأخذَ يُلهِيها بأفكارٍ فلسفيَّةٍ عنْ ماهيَّةِ المجرَّداتِ وتفاوتِها تبعاً لأعمارِنا ونشأتِنا.

وهلْ هيَ تُعدُّ من ضمنِ الأرزاقِ التي وزَّعَها اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه ،أي: أنَّها مقدرةٌ بقدرٍ!! أمْ أنَّ كلاً منَّا قادرٌ على استثمارِ البعضِ منها والتحكُّمِ بالبعضِ الآخرِ تبعاً لأخلاقِهِ وعقيدتِهِ..

وهكذا قضتْ عالية ما تبقى من ليلتِها الغبراء تفكِّرُ تارةً في ذلكَ الحضورِ الذي أخذَ اليومَ شكلاً مختلفاً؛ ليُشْعرَها بمدى قُربهِ منها واهتمامِه بها ، ومدى كونهِ حقيقياً وليسَ من نسيجِ خيالِها.

وتارةً في حسناءٍ وفكرِها المُنظَّمِ ونشأتِها السويَّةِ التي أنبتتْ فتاةً مثقفةً بالنسبةِ لقرينتِها ، قادرةً على تكوينِ وجهةِ نظرٍ في الحياةِ علي الرغمِ من صغرِ عمرِها.

وبدونِ أن تدركَ ،أخذت تقارنُ حاليْها وما منحتْهُ الحياةُ لكلٍّ منهُما؛ لتقعَ فريسةً لبراثِنِ الحسدِ والغيرةِ دونَ أن تدريَ..،وذلك حتى نبَّهَها صوتٌ شجيٌّ كانَ قديماً في مثلِ ذلكَ الوقتِ منَ اليومِ يزرعُ الفزعَ في نفسِها حتى كبرَتْ، وتعلَّمتْ أنَّهُ نداءُ الحقِّ لعبَادِهِ ليمتثلوا بينَ يديهِ في أكثرِ الأوقاتِ خشوعاً منَ اليومِ..

نهضتْ من مجلسِها متوجهةً صوبَ الحمامِ مُروراً بالصالةِ وهُنا لاحظتْ خلوَّ أريكةِ أبيها – والتي تمثِّلُ لهُ فِراشاً- منْ جسدِه.. فأدركتْ أنَّهُ لمْ يعُدْ إلى البيتِ

منذُ ليلةِ أمسِ، وتساءلتْ في نفسِها من بابِ الفضولِ لا منْ بابِ الاكتراثِ لأمرِهِ:

ـ تُرَى أينَ قضى ليلتَهُ ؟!

ولكنَّها لمْ تتوقفْ كثيراً فمضتْ في سبيلِها لتتوضَّأَ وتصليَ الفجرَ حاضِراً..فمنْ غيرُ اللهِ يكونُ قادراً على الاستماعِ إلى أنينِ روْحِها وانتزاعِ الأسى منْ بينِ جنباتِ نفسِها..

توضَّأتْ وعندَ خروجِها منَ الحمَّامِ وجدتْ أمَّها تنتظرُها لتتوضأَ هيَ الأُخرى، ومنْ عينيْها علمتْ أنَّ ليلتَها لمْ تختلفْ كثيراً عنْ نظيرتِها..

حدجتْها عالية بنظراتٍ لمْ تتبينْ فريدةُ مغزاها، ولكنَ ظَنَّها حدَّثَها أنَّ النظراتِ تلكَ تحملُ نوعاً منَ المشاعرِ السلبيةِ.

وجِلتْ فريدةُ إثرها، وادَّعتِ انشغالَها في إعدادِ نفسِها للوضوءِ هرباً منْها..

لمْ تعلمْ فريدةُ لماذا طالعتْها عالية بتلكَ النظراتِ؟

ولا لِمَ شعرتْ بالخجلِ منها على الرغمِ منْ عدمِ ارتكابِها أيِّ فُحشٍ، ولكنَّ عالية كانتْ تعلمُ لِمَ.

فعلى الرغمِ منْ شعورِها بالشفقةِ تجاهَ أمِّها إلَّا أنَّها لمْ تستطعْ إعفاءَها منَ الذنبِ بصورةٍ كليَّةٍ..

فلماذا تتقبلُ بمثلِ تلكَ الحياةِ المشينةِ بنفسٍ مستكينةٍ وإرادةٍ خانعةٍ؟ّ لماذا تتحملُ كلَّ هذهِ الإهاناتِ من أبِيها ، وتجبرُها على مواجهتِها هيَ الأخرى!!

أسئلةٌ عديدةٌ تحاصرُها ببراثِنها ما لها منْ جوابٍ ، وإنْ طرحتْها على أمِّها فلنْ تظفرَ بإجابةٍ تطفِئُ نيرانَ حيْرتِها ، ولذلكَ فليسَ أمامَها سِوى أنْ تصُبَّ نيرانَ غضبِها عليْها؛ لأنّها السببُ في معاناتها التي لا تعلمُ متى ستحرَّرُ منْ قُضبانِها.

صلَّيَا الفجرَ كلٌّ في غرفتهِ مناجياً ربَّهُ بما يختلِجُ في نفسهِ منْ آلامٍ، داعياً اللهَ أن يشملَهُ بعطفهِ؛ ليَهبَ لهُ غداً أفضلَ..

وما إنِ انتهتْ عالية من صلاتِها حتى شعرتْ بنسماتٍ رقيقةٍ تهبُّ على نفسِها المتأرجحةِ بين النقمِ والحزنِ ، فأُثلِجَ صدرُها ارتياحاً ،ولكنَّها لمْ تتخلَّ عنْ شعورِها بالقهرِ.

أعدَّتْ عالية نفسَها للذهابِ إلى المدرسةِ دونَ أنْ تتبادلَ معَ أمِّها حديثاً يُذكرُ ، وبالطبْعِ كانَ يومُها عصيباً،نفسُها جريحةً،عقلُها مشتتاً، تركيزُها مُعدماً ،و لاحظتْ حسناءُ شرودَها على مدارِ اليومِ الدراسيِّ ، فسعتْ إلى معرفةِ الأسبابِ على الرغمِ منْ علمِها المسبقِ بطبيعةِ عالية وأنها بئرٌ بلا قاعٍ ، ومنَ المستحيلِ أن تشاركَ أحداً أسرارَها ، بيْدَ أنَّ هذا لمْ يمنعْ حسناءَ منْ أنْ تتوقَّعَ بفطنتِها أنَّ عالية تُقاسي حياةً أسريةً غيرَ سويةٍ ، كما أنَّها توقعتْ أنَّ تجنُّبَ عالية أنْ تقُصَّ أياً مِما تكابدُه منْ معاناةٍ يرجعُ إلى رغبتِها في عدمِ الظهورِ بمظهرِ البائسةِ، والذي قد يدُرُّ عليْها شفقةَ البعضِ وشماتةَ البعضِ الآخرِ..

أنهتْ عالية يومَها الدراسيَّ عائدةً إلى بيتِها وهيَ ما زالتْ صامتةً كالقبورِ..

أولجتْ مِفتاحَها في البابِ، ودلفتْ في سكونٍ إلى الصَّالةِ ،ومنْ ثمَّ إلى غرفتِها ، وأتتْ فريدةُ على عقبِها وهيَ تجفِّفُ يديْها في مِنْشفةِ المطبخِ، وعلى وجهِها ابتسامةٌ بشوشةٌ كدعوةٍ لتناسي ما كانَ في ليلةِ أمسِ قائلةً بنبرةٍ حماسيةٍ مترددةٍ:

_ سأُعِدُّ لكِ الغداءَ حالاً يا عزيزتي، فما بقيَ سِوى دقائقَ وينضجُ الأُرزُ ،لِتُخَمِّني! ماذا أعددتُ لكِ اليومَ ؟!!

كانتْ عالية تنزِعُ عنْها ثيابَها بكثيرٍ منَ التخاذُلِ، متحاشيةً النظرَ إلي أمِّها، ولكنَّ فريدةَ ما إنْ أنهتْ حديثَها بتساؤلٍ وجبَ على عالية الانتباهُ واضطرَّها للتجاوبِ معهُ حتى أعرتها اهتمامَها متسائلةً بعينيْها في عدمِ اكتراثٍ حقيقيٍّ دونَ أن تنبس ببنت شفة.

استكملتْ فريدةُ حديثَها بعدَ أنْ خبَّتْ نبرةَ الحماسةِ التي افتتحتْ بها وعبسَ وجهُها قليلاً قائلةً:

_ لقد أعددتُّ الباميةَ التي تحبينَها.

ابتسمتْ عالية ابتسامةً صفراءَ غيرَ خافيةٍ ،في مجاملةٍ واضحةِ المعالمِ،فعلى الرغمِ منْ أنَّها لمْ تكنْ يوماً ساعيةً لتُثقلَ عاتقَ والدتِها بمزيدٍ منَ الأعباءِ النفسيةِ إلا أنَّها في تلكَ المرةِ كانَ ما يعتملُ بداخلِها طافحاً علي روْحِها، وما كانتْ تمتلكُ القدرةَ، بلِ والرغبةَ في مواراتهِ خلفَ ابتسامةٍ صافيةٍ.

انسحبتْ فريدةُ حاملةً أوْزارَها التي حمَّلتْها إيَّاها عالية بعينيْها الحزينتينِ في صمتٍ؛ لتتساءلَ في أسى: بأيِّ ذنبٍ أُدِنْتُ؟

لقدْ دبَّ الصَّدعُ في عَلاقةِ عالية بوالدتِها ؛لتُزعزِعَ ثقتَها في أنّها ملاذُها الآمنُ والأوحدُ منْ غدرِ الأيامِ، وشعرتْ عالية كمْ هيَ وحيدةٌ.

قديماً كانتْ تشعرُ بوحدتِها ؛لأنَّ أمَّها كانتْ دائمةَ الانشغالِ بعملِها على الرغمِ منَ العلاقةِ الجيِّدةِ التي كانتْ تجمعُها ، ولكنَّ عالية اليومَ -بعدَ أنْ أصابَ التوترُ علاقتَها ،وانزوتْ هالةُ القداسةِ التي كانتْ تُحيطُ فريدةَ في عينيْها- فقدتْ حتى رغبتَها في الظفرِ ببعضِ الوقتِ في صحبتِها، وفقدتْ معها تطلعَها إلى المستقبلِ الذي خطتْهُ فريدةُ بأناملِها في نفسِها ليُطلَّ عليْها واقعُها في أبشعِ صورةٍ لهُ.. ولتمسى فاقدةً لحاضرِها، يائسةً من مستقبلِها ،تُعاني رفضَ الحياةِ.

***

_ ألمْ يحضُرْ أبي منذُ ليلةِ أمسِ؟!!

تساءلتْ عالية وهيَ تبعثِرُ ما في طبقِها منْ طعامٍ في وجومٍ ،فأجابتْها فريدةُ مقتضبةً بعدَ أنْ غشيَها الكدرُ لسؤالِ عالية:

_ لا لمْ يحضُرْ.

_ هلْ سألتِ عمتي أنيسةَ عنهُ؟

_ بالطبْعِ لا.

قالتْها فريدةُ في حدَّةٍ وكأنَّ عالية أهانتْها بسؤالِها ،ولكنَّ عالية أتبعتْ تدفعُها رغبةٌ مستعرةٌ في إثارةِ حفيظةِ أمِّها :

_ لوْ قضى ليلتَهُ عندَ عمتي لكانتْ هاتفتْكِ اليومَ لإصلاحِ ذاتِ البينِ ، فأينَ منَ الممكنِ أنْ يكونَ؟!!

لمْ تجِبْ فريدةُ متجاهلةً استدراجَ عالية لها في حديثٍ تتجنبُه كيومٍ عاصفٍ.

التقطَتْ عالية تجاهلَ أمِّها، وفطِنتْ إلى تعمُّدِها إيّاهُ فاستطردتْ:

_ أعلمْ أنَّكِ غاضبةٌ منهُ ، ولكنَّهُ يظلُّ في النهايةِ ظلَّ الحائطِ الذي داومتِ على الاحتفاظِ بهِ خشيةً منْ كلامِ الناسِ ، كما أنَّهُ أبي الذي يجِبُ أنْ يقدمَني إلى زوجي في ليلةِ العُرسِ ،أليسَ كذلكَ ؟!!

جحظتْ عينُ فريدةَ في تحدٍّ ،وطفحَ الغضبُ على وجنتيْها بنيرانِهِ ،فصاحتْ في انفعالٍ:

_ لا تحزني يا عالية ! سأبحثُ عنهُ، وأُعيدُه إلى البيتِ في أسرعِ وقتٍ، أهذا ما تتمنينَهُ ؟!!

قالتْها وهيَ تهبُّ واقفةً لتطرقَ بيديْها على مائدةِ الطعامِ في غلٍّ وجِلتْ على إثرِه عالية ، ثمَّ انصرفتْ منْ أمامِها بدونِ أن تنتظرَ رداً.

زفرتْ عالية في أسى؛ فهيَ لمْ تكنْ تسعى لإثارةِ حفيظةِ والدتِها عن عمْدٍ ،ومنْ ثمَّ أغضابَها ، ولكنَّها تتصرفُ مدفوعةً بروحِ الفضولِ وبدونِ تخطيطٍ مسبقٍ.

فلوْ كانتْ أمُّها صادقةً معها لمَا دفعتْها إلى ذلكَ الموقفِ الذي أضافَ مزيداً منَ التَّوتُّرِ إلى عَلاقتِهما..

نهضتْ عالية لترفعَ الأطباقَ عنِ المائدةِ، وفكَّرتْ في أنْ تتوجهَ إلى أمِّها في غرفتِها لطلبِ السماحِ منها ، بيْدَ أنَّها تراجعتْ ؛ فنفسُهما محملتانِ بالهمومِ ، وحريٌّ بهما أنْ يمْهلا بعضَهما بعضَ الوقتِ لتطيبِ جراحِهما بدونِ مزيدٍ منَ النَّزْفِ.

وفي أثناءِ مرورِها عبرَ الردهةِ عائدةً إلى غرفتِها سمعتْ صوتَ المِفتاحِ يولَجُ في البابِ فأيْقنتْ أنَّ أباها قدْ عادَ.

تصلبتْ في مكانِها بعدَ أنْ جفَّتِ الدماءُ في عروقِها ،واصطكتْ سقاها خوفاً مما قدْ تحملُهُ اللحظاتُ القادمةُ منْ مواجهةٍ قدْ تسوقُهما إليْها الأعينُ ،ولكنَّهُ باغتَها في الردهةِ مندفعاً أثناءَ توجُّههِ إلى غرفةِ أمِّها دونَ أن يعيرَها أدنى انتباهٍ وكأنَّهُ لا يراها.

أفسحتْ لهُ عالية الطريقَ بقلبٍ تعالتْ خفقاتُه بعدَ أنْ لمحتْ الشرَّ يتطايرُ من عينيْه، وودتْ لوْ أنَّها عجَّلتْ بخروجِها منَ البيتِ إلى درسِها قبلَ حضورهِ ؛ فنفسُها لمْ تعُدْ تتحمَّلُ المزيدَ منَ الضغوطِ والخلافاتِ التي أخذتْ في الأوقاتِ الأخيرةِ مُنْحنى جارحاً لثلاثتِهم، تأبى روحُها الإنصاتَ إليهِ، ولكنَّهُ القدرُ....

اندفعَ إلى غُرْفةِ النومِ وفي أثناءِ اللحظاتِ القليلةِ التي مرَّ خلالَهم أمامَها لاحظتْ هيئتَهُ الرثةَ ، وشعرَهُ المبعثرَ، فترجمَ عقلُها تلكَ المعطياتِ، وخرجَ منْها بنتيجةٍ فحواها: أنَّ ليلتَهُ كانتْ أشدَّ ضراوةٍ منْ ليلتِهما..

وما إنْ دلفَ إلى الداخلِ حتَّى توالتِ الإهاناتُ المتبادلةُ منَ الجانبيْنِ.

لم تعانقْ عالية رغبتَها في أنْ تسترقَ السمعَ لشجارِهما رغمَ نفورِ روحِها لَمَا يحويهِ منِ اتهاماتٍ لاذعةٍ يتقاذفُها الجانبيْنِ وذلكَ على أملِ أنْ تستنبطَ حلاًّ للغزِ الذي لطالَمَا شغلَ فكرَها، وأضنى عقلَها..

***

_ لنْ يكونَ هناكَ عملٌ بعدَ اليومِ ، أتسمعينَ؟ هذا قراري، ولنْ أتراجعَ عنهُ كما حدثَ في المرةِ السابقةِ، وستنصاعينَ لأوامري رغماً عنكِ..

ألقى محمودُ أمرَه في وجهِ فريدةَ مُلوِّحاً بيدهِ في إشارةٍ تعني الانتهاءَ ، والشرُّ يتطايرُ منْ عينيْه مصحوباً برزارِ لعابِه الذي لمْ يستطعِ السيطرةَ عليهِ، كمَا لمْ يستطعِ السيطرةَ على غضبِهِ.

ابتسمتْ فريدةُ ساخرةً بعدَ أنِ اعتدلتْ في جِلستِها على فِراشها ،ثمَّ قالتْ متحدِّيَةً:

_ أنا أيضاً تعبتُ منَ العملِ والمسؤوليةِ، وأريدُ أن أستريحَ في البيتِ ، ولذلكَ فأنا سأطيعُكَ في هذهِ المرةِ أيضاً كما أطعتُكَ في المرةِ السابقةِ ، بيْدَ أنَّ هُناكَ سؤالاً بسيطاً أتمنَّى أنْ تُجيبَ عنهُ ، من سيتحملُ نفقاتِ هذا البيتِ؟!! منْ سيُلبِّي احتياجاتِنا ؟!! أفكَّرتَ في هذا أمْ أنَّك تتخذُ القراراتِ دونَ تدبُّرٍ !! أنهتْ جملتَها ،وهمَّتْ بالوقوفِ ؛ لينتصبَ جسدُها باعتدالٍ في المقابلِ منهُ ساعيةً للإعلاءِ منْ وتيرةِ التحدي ، واستطردتْ ملاحقةً إيّاه وفي عينيْها نظرةُ ازدراءٍ لا تخفي وبصوت بدأ خفيت ،ثمَّ ما لبثَ حتى تعالتْ نبراتُهُ :

_ ولكنْ، قلْ لي ، ألنْ تتعلمَ من ماضيك أبداً ؟!! أليْسَ هذا ما حدثَ في المرةِ السابقةِ قُبيلَ زواجِنا،وقدْ كانَ شرطُك لزواجِنا أنْ أتركَ عملِي ،وأجلسَ في البيتِ لأنَّ البيتَ هوَ مكانُ المرأةِ،وأنا وافقتُكَ مضطرةً لكيْ تتمَّ الزيجةُ، وتقدمتُ باستقالتي من عملي الحكوميِّ الذي كانَ يضمنُ لي الكثيرَ والكثيرَ منَ الامتيازاتِ أهمِّها: الراحةِ، والمعاملةِ الحسنةِ لامْرأةٍ مثلي لها باعٌ طويلٌ في العملِ الحكوميِّ، وجلستُ في البيتِ أنفقُ منْ مُدَّخراتي حتى نفدَتْ، وبعدَها انتظرتُ منكَ أنْ تتحملَ أنتَ عبئنَا أنا وابنتِك التي أحملُها في أحشائِي، ولكنَّكَ ماذَا فعلتَ ؟!! ماذا قدمْتَ أنتَ منْ تنازلٍ لِتُلبِّيَ احتياجاتِنا ؟!! لا شيءَ !! فقدْ أخذتَ تتنقلُ بينَ الأعمالِ هنا وهناكَ كعادتِك ،وتأتي لي بالفتاتِ الذي لا يكادُ يكفي أحدَنا، فهزِلْتُ وضعُفْتُ حتى كدتُّ أنْ أخسرَ جنيني، وعندمَا كنتُ ألومُكَ على عدمِ المكثِ في عملٍ واحدٍ لمدةِ شهرٍ ، كنتَ تتعللُ بسوءِ المعاملةِ، تارةً منْ جانبِ المديرِ ، وتارةً أخرى منْ جانبِ زملائِك، وبالطبْعِ أنتَ لا تتحمَّلُ المضايقاتِ التي لا بُدَّ منْها في العملِ.

_ فكنتَ تتركُه لتأتيَ لي ،وتقولُ: ليسَ في يدي حيلةٌ ؛فنفسِي عزيزةٌ لا تتحمَّلُ سُوءَ المعاملةِ ، حتَّى وإنْ كانَ تركُكَ للعملِ هذا قدْ يُدمِّرُ حياتَنا أكثرَ وأكثرَ، ويضعُ حياتي على المحكِّ كمَا أعلمَك الأطباءُ بسببِ ضعفِ التغذيةِ.

همَّ بقولِ شيءٍ فقاطعتْهُ مرةً أخرى، قائلةً بحدةٍ وانفعالٍ:.

_ حتَّى وجدتُّ نفسِي ما بينَ الحياةِ والموتِ، وثمنُ حياتي هوَ عمِلي بعدَ أنْ فقدتُّ فيكَ الأملَ ، وأيقنتُ منْ عدمِ قدرتِك على تحملِ المسؤوليةِ ، وعلى الرغمِ منْ ضعفي ومَا اعتراني من هُزالٍ إلا أنَّنِي طفقتُ أبحثُ عنْ عملٍ في المدارسِ الخاصَّةِ بعدَ أنْ خسِرتُ فرصتي في العملِ الحكوميِّ.

_ الجميعُ كانَ يرفضُني فبالكاد كنتُ أستطيعُ الوقوفَ ، فكيفَ لي التعاملُ مع طلابٍ في مرحلةٍ عمريةٍ حرجةٍ،وذلكَ إلى أنْ أشفقَ أحدُهمْ عليّ بعدَ أنْ استدررتُ عطفَه ببكائي، وحينَ علمَ بقصتي وافقَ على منحي الوظيفةَ مُراعاةً لظروفي، ووقتَها أنتَ لمْ تعاندْ وتكابرْ وتركتَني أعملُ بلا جدلٍ يُذكرُ.

_ فإنْ كانتْ قناعاتُكَ بضرورةِ أنْ تظلَّ المرأةُ في البيتِ بعيداً عنْ أعيُنِ الرجالِ ستتسببُ لكَ بالشقاءِ والعملِ المُضْني، فلتذهبْ قناعاتُك تلكَ إلى الجحيمِ، فالراحةُ والدعةُ أعزُّ وأسمَى ، أمَّا أنا فقدْ عملتُ، وعملتُ ،وعملتُ ،وحافظتُ علي جنيني ،ووفرتُ لنفسي حياةً قويمةً ، ولكَ أيضاً ، وفي المقابلِ أنتَ قدِ ازددتَّ تخاذلاً وإهمالاً ، وأصبحَ العملُ بالنسبةِ إليْكَ وسيلةً لتزجيةِ الوقتِ لا أكثرَ. إنْ كانَ وقتُك يسمحُ فلتعملْ لعدةِ أيامٍ ، وعندمَا تملُّ تتركُه غيرَ عابئٍ بشيءٍ ، فما يعنيكَ إنْ كانَ هُناكَ جاريةٌ استأجرتَها لتعملَ بدلاً منكَ ؟!! واليومَ وبعدَ كلِّ تلكَ السنواتِ تأتي لتأمرَني بتركي لعمِلي مرةً أُخرى ، أتظُنُّ حقاً أنَّنِي قدْ أُلدغُ منْ ذلكَ الجُحْرِ مرتينِ؟!

قالتْ جملتَها الأخيرةَ في استنكارٍ ممزوجٍ بالدهشةِ ،وعيناها تحدجهُ محطِّمةً حاجزهُ النفسيَّ الهشَّ، وراحتاها في خصرِها في تحدٍّ سافرٍ.

ظلَّ محمودُ يحملقُ في عينيْها، ممتقعَ الوجهِ ، يموجُ بداخلِهِ بركانٌ منَ الغضبِ ،باحثاً عنْ بقعةٍ ضعيفةٍ ليتفجرَ منْ خلالِها في وجهِها. ولكنَّهُ عجزَ عنْ مجابهَتِها في تلكَ المواجهةِ المشتعلةِ بنيرانِ الماضي، والذي قد تجنَّبا الحديثَ عنهُ طوالَ السنواتِ المنقضيةِ. الكلماتُ راوغتْهُ ،وعقلُه خانَه؛ ليُعلنَ انسحابَه منَ المبارزةِ تاركاً إيّاه يواجهُ هجومَها الحادَّ الغيرَ متوقَّعٍ وحيداً ، ولذلكَ ظلَّ صامتاً طوالَ حديثها الذي خرجَ مندفعاً وكأنَّهُ طلقاتٌ ناريةٌ قدْ صُوِّبتْ نحوَه منْ فوَّهةِ بندقيةٍ عامرةٍ.

وما كانَ منْ فريدةَ إلا أنْ تجاهلتْ ذلكَ النذيرَ المتطايرَ منْ عينيْهِ وأكملتْ مواجهتَها، تدفعُها رغبةٌ مستعرةٌ وكأنَّها في سباقِ عدوٍّ -تطوق إليه - أطلقَ صافرةَ بدْئِهِ بيدهِ جاهلاً لعدمِ قدرتهِ على اللحاقِ بها، ولذلكَ كانْ تجرُّعُهُ كأسِ الهزيمةِ حقٌّ.

وبالطبْعِ هيَ لنْ ترحمَ.

وبوجهٍ يحملُ الكثيرَ منْ أماراتِ الاشمئزازِ ، استطردتْ مشيرةً لهُ منْ أسفلَ إلى أعلى في تحقيرٍ واضحِ المعالمِ:

_ أتنتظرُ منِّي أنْ أُسلِّمَ أمري وأمرَ مستقبلِ ابنتي التي تحمَّلتِ الكثيرَ والكثيرَ منْ أجلهِ لإنسانٍ مثلِكَ فاشلٍ اعتادَ أنْ يحيى عائِلا على منْ سواهُ.

وبتلكَ الجملةِ سحبتْ فريدةُ فتيلَ محمودَ؛ ليتفجَّرَ في وجهِهَا ،صائحاً في حنقٍ وغلٍّ حقيقيَّيْنِ ،مُتحرِّراً لسانُهُ منْ لجامِ الصدمةِ:

_ أنتِ منْ جعلني كذلكَ ، أنتِ سببُ فشلي يا فريدةُ ، أنتِ منْ دمَّرَ حياتي ومستقبلي.

_ لا تُعلِّقْ أخطاءَ السيدةِ الوالدةِ على شخصي، فأمُّكَ منْ زرعتْ في نفسِكَ الاستسلامَ والضعفَ لا أنا ، اذهبْ وحاسبْ أمَّك في قبرِها ، واسأَلْها لماذَا جعلتْ منْكَ رجلاً متخاذلاً لا يتحمَّلُ المسؤوليَّةَ.

بوجهٍ احتقنَ بالدماءِ زجرَها محمودُ قائلاً:

_ لا تَذْكُري سيرةَ أمِّي على لسانِكِ! أسمعتِي !! لقدْ كانتْ على حقٍّ في رفضِها لزواجِنا قديماً، وأنا منْ أخطأَ بتكسيرِ أوامرِها.

_ بالطبْعِ كانتْ على حقٍّ وثلاثُثَنَا يدفعُ الثمنَ الآنَ، ولكنَّ هذا ليسَ لأنها كانتْ حكيمةً، وترى الغيبَ ،بلْ لأنها كانتْ متعجرفةً ومغرورةً ،زرعتْ في نفسكَ بذورَ غرورِها الأعمى فجعلتكَ مسخاً مُطمسَ الهُويةِ طُبِعَ على الرُّكُونِ ، وما عدتَّ تصلحُ لا لي ولا لغيري.

_ مكانُك الصحيحُ الآنَ بجوارِ لحدِها تنتظرُ الموتَ في تراخٍ واستسلامٍ ،فهوَ القادرُ على إصلاحِ ما أفسدتْه في نفسكَ بحماقتِها وغرورِها.

_ اخرسي ،اخرسي !.

هتفَ محمودُ صائحاً ،وبكلِّ ما أُوتي منْ قُوى دفعَ فريدةَ لتسقطَ أرضاً ،صارخةً في عدمِ فهمٍ، وهُنَا كانَ قدِ استنفدَ آخرَ قدراتِه على التعقُّلِ فانْكّبَّ عليْها ؛ليلتحمَ جسدُهُما، وتهوى روحاهُما ألماً وحزناً ورثاءً لهوي اغتيل بفضل كلاهما، وانهالَ عليْها بضرباتٍ عشوائِيَّةٍ بلا وعيٍ، يحرِّكُهُ الحنقُ والعجزُ والرغبةُ في الانتقامِ..

ضرباتٌ نابعةٌ منْ روحٍ دُميتْ ونفسٍ مُزِّقتْ..

ضرباتٌ كصرخاتِ أمٍّ ثكْلى وآهاتِ أبٍ مكلومٍ.

ضرباتُ صحبتْها عبراتُ أوجاعٍ قدِ انهمرتْ على وجهِ فريدةَ لتمْتَزِجَ بعبراتِها كحبِّات عرق نبتتْ منْ كلاهِما إبَّان مطارحتِمها الغرامَ ،تلحقُها صرخاتُهما التي تضافرتْ في نشوةٍ منَ الألمِ.

وفي تلكَ اللحظةِ لم تتحمَّلْ عالية سماعَ المزيدِ من صرخاتِ الاستغاثةِ النابعةِ منْ أمِّها ، فاندفعتْ نحوَ الغرفةِ غيرَ عابئَةٍ بردةِ فعلِ أبيها إذا ما تدخَّلتْ لحمايّتِها..

تكوَّرَتْ عالية على جسدِ فريدةَ في محاولةٍ لتلقي الضرباتِ بدلاً عنْها ، وبالفعْلِ لمْ يكنْ محمودُ قدِ استنفدَ طاقةَ غضبِهِ بعدُ ، ولذلكَ لمْ يفرِّقْ كثيراً بينَ جسدِ عالية وجسدِ أمِّها ، حتى أعلنَ قلبُه عدمَ قدرتِه على تحمُّلِ المزيدِ منَ الانفعالِ

مُهدِّداً بالتوقُّفِ ، فاستجابَ محمودُ ليتهاوى بجوارِهما صدرُه يعلو ويهبطُ كمضخةِ مياهٍ متصلةٍ بنهرٍ جافٍّ.

***

بعدَ مرورِ لحظاتٍ حاولتْ عالية مساعدةَ فريدةَ التي ما زالتْ تئنُّ في النهوضِ ، ولكنَّها لاحظتْ أنَّ ذراعَها الأيمنَ ليسَ في وضعِه الصحيحِ.

هلعِتْ وأشارتْ إلى أمِّها مستفهمةً ،وقدِ اتسعتْ عيناها رعباً، والعبراتُ ما زالتْ تترقق ،فاختنقتْ كلماتُها بعبراتِها..

_ أمِّي ما بالُ ذراعِكِ ؟! لماذا ليستْ في وضعِها الصحيحِ؟!!

ارتفعَ أنينُ فريدةَ ،وقالتْ بعدَ أنْ تحاملتْ سعياً للنهوضِ:

_ لا تفزعي يا حبيبتي !، لقدْ كُسِرَ ذراعي ،وسأكونُ بخيرٍ، لا تقلقي ، فقطْ ساعديني في ارتداءِ شيءٍ يسترُني حتى نذهبَ إلى المشفى.

وعندمَا أنهتْ فريدةُ جملتَها هبَّ محمودُ جالساً ليتبيَّنَ ما اقترفتْهُ يداهُ، وعندها تأكدَ من صحةِ حديثِها، فلقدْ كُسِرَ ذراعُها اثناءَ دفعِهِ إيّاهَا وارتطامِها بالأرضِ.

لمعتْ في عيونِه نظرةُ فزعٍ وخوفٍ ما كانَ قبلَ لحظاتٍ يتصورُ أنْ تتسلَّلَ إلى عينيْه يوماً ، فاختلجَتْ صدرَه عواطفٌ تجاهَ فريدةَ ظنَّ منْ زمنٍ أنَّها ماتتْ ، وأخذَ عزاءَها بيدِهِ، ولكنْ، ها هيَ تحيَى منْ جديدٍ لتَطلَّ عليهِ ،وتنبهَهُ أنَّها ما زالتْ حيةً تُرزقُ ، وأنَّهُ قدْ تغافلَ عنْها فحسب لا أماتَها بيدِهِ كمَا كانَ يعتقدُ.

وفي تلكَ اللحظاتِ ماجتْ بداخلهِ مشاعرٌ مختلطةٌ يدفعُ بعضُها بعضاً ،ولكنَّ الحبَّ كانَ سيدَها ،والعطفُ والرحمةُ كانتْ لُهما الكلمةُ العالية..

اندفعَ نحوَها ،وعيناهُ تلمعانِ إثرَ العبراتِ محاولاً مدَّ يدِ العونِ ، ولكنَّها دفعتْ يدهُ بيدِها اليُسرى في اشمئزازٍ ونفورٍ واضحيْ المعالمِ.

تراجعَ محمودُ خجلاً وعيناهُ لا يُفارقانِها، يحملانِ نظرةَ استجداءِ المغفرةِ.، ولكنَّها بادلتْهُ إيّاها بنظرةِ "فات المِيعاد"..

حملَ نفسَهُ، وانسحبَ منَ الغُرفةِ مُسرعاً عائداً إلى الصالةِ ، وكأنَّ هُناكَ بركانَ حزنٍ بداخلِهِ أوشكَ على الانفجارِ أرادَ أن ينفردَ بهِ وحيداً بعيداً عنِ الأعينِ.

استطاعتْ عالية -بكثيرٍ منَ العسرِ- مساعدةَ أمِّها على النُّهوضِ، ومنْ ثمَّ الجلوسِ على طرفِ الفراشِ ، ثمَّ قالتْ بنبرةٍ عمليةٍ لم تتخلَّ عنِ الحزنِ:

_ لنْ نذهبَ إلى المشفى بمفردِنا ، لا بُدَّ أنْ يكونَ هناكَ أحدٌ بصحبتِنا.

فقالتْ فريدةُ زاجرةً:

_ لنْ أقبلَ أنْ يصحبَنا ، فمنَ اليومِ لكلٍّ منَّا طريقُهُ. أفهمْتِ؟!!

_ أنا لا أقصِدُ أبي يا أُمي، أنا أقصدُ عمَّتي أنيسةَ ،سوفَ أتصلُ بها لتساعدَنا في الذهابِ إلى المشفى..

_ لا بأسَ اذهبِي، وهاتفِيها ،ولكنْ لا تذْكُري لها شيئاً ممَّا حدثَ، سنقولُ أنَّنِي فقطْ انزلقتْ قدمي وسقطْتُ فكُسِرَتْ ذراعي ،اتفقنا ؟!!

_ كمَا شئتِ يا أمي.. كمَا شئتِ..

تركتْ عالية أمَّها متوجهةً صوبَ الصالةِ ،وعقلُها يعذِّبُها بتساؤلاتِه..

_ كيفَ لنْ نذكرَ لعمَّتي سببَ الحادثِ الحقيقيِّ ؟!! وهلْ ستنطلي عليْها كذِبةُ أنَّ أمَّي انزلقتْ فكُسِرَ ذراعُها على الرغمِ من سذاجتِها؟! ولماذا إلى الآن تتعمدُ إخفاءُ أخطائِهِ عنْ أقْرَبِ الناسِ إليْها ؟!!!!!

رفعتْ سمَّاعةَ الهاتفِ، وعاقبتْ أزرارَهُ المستكينةَ بضرباتِها القاسيةِ تنفيساً عنْ ضجرِها ،وعدمِ فهمِها لمَا يحدُثُ ، فجاءَها صوتُ عمَّتِها متسائلاً عمَّا هُنَالِكَ ،قائلةً:

_ عالية ما بكِ؟ لماذا صوتُكِ باكياً؟! أحدثَ مكروهٌ لكمْ ؟!!

_ نعمْ يا عمَّتي، أرجو أن تحضري حالاً.

قالتْ عالية جملتَها واضعةً سماعةَ الهاتفِ، وهمَّتْ بالعودةِ إلى أمِّها ولكنَّ عينيْها وقعتْ على أبيها ، ولشدَّةِ ما أدهشَها حالُه ، فقدْ وجدتْهُ اتخذَ منْ كلتَا راحتيْهِ مُتكأً لرأسهِ ،وهُنَاكَ أنهارٌ منَ العبراتِ تتدفقُ منْ مقلتيْهِ، تصحبُها أنَّاتُ أوجاعٍ بدتْ وكأنَّها أصابتْ كلاًّ منَ القلبِ والنفسِ والروحِ كسهمٍ نافذٍ، حتَّى أنَّهُ لم ينتبهْ لحديثِها معَ عمتِها في الهاتفِ ولا لوجودِها منَ الأصلِ.

رمقتْهُ بمزيجٍ منَ الفضولِ والاندهاشِ، ثم ما لبثتْ أنْ عادتْ إلى أمِّها لتبلغَها بحضورِ عمتِها في أسرعِ وقتٍ.

وبالفعلِ جاءتْ أنيسةُ ملهوفةً، فدلفتْ منْ فوْرِها إلى غرفةِ فريدةَ بعدَ أنْ رمتْ محمودَ بنظرةٍ علي عجَلٍ تحملُ الكثيرَ منَ الاندهاشِ وعدمِ الفهمِ في

طريقِها. ولكنَّها لمْ تتوقَّفْ لتطرحَ عليْهِ أيّةَ تساؤلاتٍ، فقدْ حدثتْها نفسُها بأنَّ له علاقةً أصيلةً بمَا يحدثُ.

_ ماذا هناكَ ؟! ماذا حدثَ؟!!

قالتْها أنيسةُ، وعيناها تحدج إلى ذراعِ فريدةَ الذي نمَّ مظهرُه على كونهِ على غيرِ ما يُرامُ ، ولكنَّ عقلَها لمْ يكنْ قدْ ترجمَ نظرتَها تلكَ ليُقدِّمَ لها الاستنتاجَ بعدُ ، فبادرتْ عالية بالقولِ:

_ كمَا ترينَ يا عمتي ،لقدِ انزلقتْ قدمُ أمِّي فسقطتْ وكُسِرَ ذراعُها..

أومأتْ أنيسةُ برأسِها لتكونَ علامةً على التَّفَهُّمِ ، على أنَّ عينيْها كانتْ تبوحُ بعدمْ تصديقِها لتلكَ الكذبةِ الفقيرةِ ، ولكنَّها بالطبْعِ كانتْ مستعدةً لابتلاعِها في الوقتِ الحالي على أملِ أنْ تستجليَ حقيقةَ الأمرِ فيمَا بعدُ.

أنهضتْ أنيسةُ فريدةَ وساعدتْها في ارتداءِ خِمارِها ،ثمَّ أعانتْها على السيرِ حتى الصالةِ ، وهُنَا تلاقتْ عينُ أنيسةَ بمحمودَ الذي أسهبتْ مقلتاهُ في قصِّ ما يُعتملُ في ضميرِهِ من إحساسٍ بالذنبِ فحدجتهُ أنيسةُ بمزيجٍ منَ اللومِ والشفقةِ، فطرقَ أرضاً خجلاً ، وانصرفوا إلى المشفى..

دلفتْ فريدةُ إلى قسمِ الاستقبالِ، وتمَّ عملُ الفحوصاتِ اللازمةِ لها على عجَلٍ، ثمَّ خرجَ عليهمُ الطبيبُ ليخبرَهمْ بضرورةِ بقاءِ فريدةَ في تلكَ الليلةِ في المشفى ، حيثُ أنَّها في حاجةٍ إلي إجراءِ عمليةٍ جراحيةٍ في صباحِ الغدِ لتثَبِّتَ شرائحَ ومساميرَ تساعدُ على الْتآمِ العظامِ بصورةٍ صحيحةٍ..

فقالتْ أنيسةُ ،وقدْ أمستْ منْ تتخذُ القراراتِ منفردةً دونَ الرُّجوعِ لفريدةَ:

_ افعلْ ما تراهُ مناسباً يا دكتور ! ولكنْ، ما الذي يتوجَّبُ عليْنا فعلَهُ الآنَ؟

_ اذهبي لإحضارِ تذكرةِ دخولٍ ،أخبري الإدارةَ بحجزِ غرفةٍ..

أومأتْ برأسِها موافقةً، وانطلقتْ تنفذُّ ما طُلبَ منْها.

ظلتْ فريدةُ شاردةَ الذهنِ، تتابعُ حركةَ الجميعِ بدونِ اكتراثٍ. أحياناً تستمعُ إلى صوتِ صرخاتٍ قادمةٍ منْ جهةِ المدخلِ فتجفل. وأحياناً أخرى ترى مَنْ هوَ أسوءُ حالاً منْ حالتِها ، فتحمدُ اللهَ على أنَّ الأمرَ تحتَ السيطرةِ ، وقابلٌ للشفاءِ ، ولكنَّ الغريبَ في الأمرِ أنَّ محمودَ لمْ يخطرْ ببالِها في تلكَ اللحظاتْ أبدًا ، وكأنَّها حقاً صدَّقتْ كذبتَها التي ادَّعتْها لأنيسةَ وللطبيبِ عندمَا تساءلَ عنْ كيفيةِ حدوثِ الكسرِ.

لا تعرفُ لمَ تجاهلَ عقلُها فعلةَ محمودَ وآثرَ إعفاءَهُ منْ ذنبِهِ!!!!

وأثناءَ كلِّ ذلكَ كانتْ عالية هيَ الأخرى شاردةً في عالمٍ آخرَ ، فقدْ كانَ جُلُّ ما يُشغِلُ بالَها الآنَ هوَ الجوُّ الخانقُ الذي كانتْ تعانيهِ في المشفى، فقدْ شعرتْ أنَّ رائحةَ المطهراتِ جاسمةٌ فوقَ روْحِها، وأصواتِ صرخاتِ الحالاتِ القادمةِ يصيبُها بالدُّوارِ، وعندَ امتزاجِ الصوتِ بالرائحةِ شعرتْ بالغثيانِ والرغبةِ في الهربِ منْ ذلكَ الجوِّ القاتمِ.

بيْدَ أنَّهُ بالطبْعِ يجبُ عليْها أنْ تتحاملَ منْ أجلِ والدتِها وهُنا تَوَّلدَ لديْها تساؤلٌ يطرقُ رأسَها بقوةٍ وعُنفٍ:

_ كيفَ أكونُ طبيبةً وأنا لا أتحمَّلُ أجواءَ المشفى ،وأعصابي لا تتحمَّلُ صرخاتِ المرضى ؟!!!

لا ،لا أنا لا أنتمي لهذا العالمِ، ولن أنتميَ ،ولكنَّ هذا حلمُ أمي ،فكيفَ لي إصابتُها بخيبةِ الأملِ برفضِي ؟!

هزَّتْ رأسَها يميناً ويساراً، وكأنَّها تسعى لطردِ تلكَ الأفكارِ التي استدعتْ صرفَ ذِهنِها عنْ أمِّها ساكنةَ الجوارحِ، كسيرةَ الفؤادِ والذراعِ ، فليسَ أوانَها الآن.

وفراراً منْها سألتْ أمَّها رغبةً في الاطمئنان..

_ كيفَ حالُك الآنَ يا أمِّي ؟!!

ربتتْ فريدةُ بيدِها السليمةِ علي يدِ عالية بعدَ أنْ لاحَ شبحُ ابتسامةٍ فاترةٍ على وجهِها تدعوُ للاطمئنان قائلةً:

_ أنا بخيرٍ يا عزيزتي.. لا تقلقي..

ابتسمتْ عالية بدورِها مجاملةً لأمِّها، ولكنَّها كانتْ تُعاني صراعاً نفسياً وحيرةً كابدتْ الكثيرَ لإخفائِهما.

تمَّتِ الإجراءاتُ علي عجَلٍ، وانتقلتْ فريدةُ إلى الغرفةِ التي ستقْضي بها ليلتَها في انتظارِ صباحِ غدٍ لإجراءِ العمليةِ الجراحيةِ. وبعدَ أنِ اطمأنَّتْ أنيسةُ على فريدةَ في غرفتِها ،خرجتْ لتُحضرَ بعضَ اللوازمِ منْ عصائرَ وأطعمةٍ خفيفةٍ تساعدُهم على قضاءِ ليلتِهم ، وعقبَ عودتِها دلفتْ إحدى المُمرِّضاتِ بطلتِها

البيضاء وشعرِها المعقوص لتبلغَهم بضرورةِ انصرافِ إحداهُما ، فليسَ مسموحٌ ببقاءِ سِوى مرافقٍ واحدٍ فحسب معَ الحالةِ.

جادلتْ أنيسةُ الفتاةَ قائلةً:

_ ولكنْ هذهِ ابنتُها ،ولن تستطيعَ تركَ أمِّها والرحيلَ، وكمَا تلاحظينَ هي لا تستطيعُ القيامَ على احتياجاتِ أمِّها لصغرِ عمرِها فلا بُدَّ منْ مرافقتي لهمَا..

ردَّتْ في نفاذِ صبرٍ بحلٍّ تراهُ بديهياً، وليسَ هناكَ داعٍ لطرحِه:

_ إذاً ابقي أنتِ، ولترحلْ هيَ، وتأتي غداً في الصباحِ قُبيلَ العمليةِ، أمَّا تواجدُكما معاً فهذا مستحيلٌ؛ فإدارةُ المشفى لنْ تسمحَ بذلكَ مطلقاً.

أنهتِ الممرضةُ الصغيرةُ السنِّ، المليحةُ الوجهِ جملتَها، وانصرفتْ في تجاهلٍ تامٍّ لَمَا همَّتْ أنيسةُ بقولهِ؛ لتضعَ بذلكَ حداً لجدلٍ اعتادتْهُ وأمسى جزءً لا يتجزأُ من مهامِها، فالغالبيةُ العظمى منْ ذوى المرضى يعتبرونَها في تلكَ اللحظةِ تحديداً مديرةَ المشفى، وبإمكانِها أن تسمحَ ببعضِ التجاوزاتِ ، وبالطبْعِ هذا ضغطٌ يسبِّبُ لها الضجرَ ،حتَّى تعلّمتْ أخيراً منْ خلالِ خبراتِها الصغيرةِ أن أفضلَ وسيلةٍ لوضعِ حدٍّ لهذا الجدلِ هيَ الانسحابُ.

وقدِ اعتمدتْ تلكَ الطريقةَ لَمَا لها منْ فاعالية في إنهاءِ حديثٍ لا طائلَ منْ ورائِهِ.

وبالفعْلِ بانسحابِها وضعتْ أنيسةَ وعالية أمامَ الأمرِ الواقعِ. فبعدَ لحظاتٍ منَ الصمْتِ ظَلَّا يرمقان فرجةَ البابِ الذي مضَتْ منْ خلالِه الفتاةُ، لتتركَهما في حيرتِهما، وبادرتْ أنيسةُ بالحديثِ قائلةً:

_ ليسَ هُناكَ مفرٌّ يا عالية!. لا بُدَّ أن تعُودي إلى البيتِ و.....

قاطعتْها عالية مُسرِعةً ،ويداها تسبقانِ كلماتِها ملوِّحةً بهِما في إشارةٍ تعْني النفيَ قائلةً:

_ بالطبْعِ لا. لنْ أتركَ أمِّي وأرحلُ. هذا لنْ يكونَ ، حاولي يا عمَّتي ،أنْ تُقنعي إدارةَ المشفي، ولكنَّني في كلِّ الأحوالِ لنْ أعودَ.

همَّتْ أنيسةُ بقولِ شيءٍ ولكنَّ فريدةَ قاطعتْها بصوتٍ هادئٍ ،ولكنَّهُ قاطعٌ:

_ ما تقولُه عمَّتُكِ هو الصوابُ، عودي يا عالية إلى البيتِ.

طالعتْ عالية أمَّها مشدوهةً غيرَ مصدقةٍ لَما تقولُ، وهُنا تدخلتْ أنيسةُ لتحسمَ الموقفَ قائلةً:

_ سأتصلُ بأبيكِ حتَّى يأتيَ ليأخذَكِ؛ فبالطبْعِ لنْ تعودي في هذا الوقتِ إلى البيتِ بمفردِكِ.

همَّتْ أنيسةُ بطلبِ محمودَ على هاتفِها الخلويِّ، وحينَها حاولتْ عالية قولَ شيءٍ، ولكنَّ فريدةَ حدجتها بنظرةٍ تعني"اصمُتي وأطيعي الأوامرَ "..

فَما كانَ منْها إلَّا أنْ انصاعتْ للأمرِ مزدردة كلماتِها على رغمِ ما يموجُ بينَ جنباتِ نفسِها منْ عواطفَ مضطربةٍ جمعتْ بينَ الرفضِ والخوفِ والتذَمُّرِ،

وبالطبْع كانَ بصحبتِها العديدُ منَ التساؤلاتِ التي أخذ عقلُها يطرحُها عليْها دونَ رحمةٍ ، كيفَ ستعودينَ معَ هذا الوحشِ إلى البيتِ وحيدةً دونَ حصنِ الأمانِ الذي طالمَا شكَّلَ حائلاً بينَكِ وبينَ بطشِهِ ؟!! وما الذي سيفعلُه بكِ عندَ انفرادِكُما؟!! هلْ سيبرحُكِ ضرباً، أمْ سيهينُكِ بلا سببٍ تنفيساً عنْ خطاياهُ؟!!

وهكذا ظلَّتْ وتيرةُ التَّوترِ والخوفِ تتصاعدُ في نفسِها كبركانٍ يبحثُ عنْ بقعةٍ وهنةٍ للتنفيسِ عنْ مكنوناتِهِ، ولكنَّه قدْ باءَ بالفشلِ، كمَا فشلتْ عالية في البوحِ بمخاوفِها ليغشاها قهرٌ عظيمٌ ، فأمُّها ليستْ في حالٍ يسمحُ، وعمتُها لنْ تتقبلَ.

فعالية منذُ أنْ وُلِدتْ وهُناكَ تصدُّعٌ ضاربٌ حتَّى الأعماقِ يفصِلُها عنْ أبيها، وفي كلِّ يومٍ كانَ ذلكَ الصدعُ يزدادُ اتساعاً وعمقاً إلى أن باتَ أُخدوداً قدِ ابتلعَ اليومَ جُلَّ شعورِها بالأمانِ في صحبتِهِ.

_ ليتَ لي مكانٌ آخرُ أقصدُهُ غيرُ البيتِ.. يا ليتَ لي..

هكذا ناجتْ عالية نفسَها في جزعٍ وقلقٍ عميقيْنِ لَمَا تحمِلُه لها السويعاتُ القادمةُ حتى الصباحِ.

وبعدَ مرورِ ما ينيفُ عنِ الساعةِ أتى محمودُ حاملاً عينيْه الحمراويْن وحزنهِ الدفينِ، وبدونِ تبادلِ كلماتٍ تُذكرُ أخذَ عالية ورحَلَ ، وكانتْ أنيسةُ قدْ شرحتْ لهُ في الهاتفِ حالةَ فريدةَ كمَا فهِمتْ منَ الطبيبِ ،وأعلمتْه بضرورةِ

قضائِهما تلكَ الليلةِ في المشفى لتجهيزِها للعمليةِ في صباحِ الغدِ.. وبالطبْعِ كعادتِه في تلكَ المواقفِ العصيبةِ لمْ يُبدِ أيّةَ ردةِ فعلٍ، تاركاً الدفةَ في يدِ الأقوى مستجيباً لمَا كُلِّفَ بهِ في خنوعٍ.

طوالَ الطريقِ لمْ ينبس كلاهُما ببنت شفةٍ؛ فالصمتُ أطبقَ قبضتَهُ عليهِما ،وكأنَّهُ أصفادٌ قدْ سَلسلتْ ألسنتَهما ، وذلكَ حتى وصلا إلى البيتِ.

أولجَ محمودُ المِفتاحَ في البابِ، ودلفَ إلى الصالةِ، ثُمَّ إلى أريكتِهِ تتبعهُ عالية متوَجِّهةً إلى غرفتِها منْ فوْرِها..

أغلقتِ البابَ خَلفَها ارتعاداً وطمعاً في الخُلوةِ بنفسها، وفي تلكَ اللحظةِ وجدتْ الوقتَ مناسباً لتُطلِق العنانَ لعبراتِها التي ظلَّتْ حبيسةَ مقلتيْها طوالَ الطريقِ خوفاً منْ ردةِ فعلِ أبيها..

استسلمتْ لنوبةِ بكاءٍ حادٍّ جاهدتْ كثيراً حتى لا يصحبهُ صوتٌ يلحظُهُ أباها كمَا اعتادتْ، ولكنَّهُ خانَها في تلكَ المرةِ؛ فلمْ تستطعْ أنْ تُحكِمَ سيطرتَها على نحيبِها الذي أخذتْ تتعالى وتيرتُهُ لتصحبَهُ أنَّاتُ أوجاعٍ تمزِّقُ نياطَ القلوبِ تسلَّلتْ إلى آذانِ أبيها، والذي لمْ يمنعْهُ البابُ المغلقُ منَ الإنصاتِ إليْها..

وما هيَ سِوى لحظاتٍ وفاجأَها صوتُ مِزلاج البابِ يُفتحُ ليُغلقَ مرةً أخرى ، تساءلتْ عالية في نفسِها:هلْ خرجَ أبوها ،وتركَ لها البيتَ ؟! ألنْ يعاودَ

الرجوعَ ؟! هيَ لمْ تقضِ ليلةً واحدةً بعيداً عنْ أحضانِ أمِّها نبعِ الأمانِ والسكينةِ، وفي تلكَ الليلةِ ينسحبُ أبوها أيضاً ليتركَها تصارعُ وحدتها ومخاوفها ؟!

لوهلةٍ شعرتْ أنَّها بحاجةٍ إليْهِ، وأنَّها على الرغمِ منْ خوفِها الدائمِ منهُ إلا أنَّها بعدَ تركِه لها منفردةً انتابها شعورٌ ما كانتْ تتوقعُهُ، وهوَ تضاعفُ الخوفِ في نفسِها ، فانتبهتْ إلى أنهُ بالفعلِ كانَ يمدُّها ولوْ بقدرٍ قليلٍ منَ الأمانِ والاطمئنانِ..

تمنتْ في نفسِها أن يعودَ إلى البيتِ؛ فهيَ بالطبْعِ حزينةٌ لفراقِ أمِّها لأولِ مرةٍ منذُ أنْ وُلِدتْ، ولكنَّها أيضاً خائفةٌ- وإنِ اجتمعَ الخوفُ معَ سائرِ المشاعرِ الأخرى، فانَّ للخوفِ السيادةَ والكلمةَ العالية ،فما ذاكَ الشعورُ القادرُ على مزاحمةِ أثرِهِ في النفسِ؟! ولذلكَ تناستِ الحزنَ والألمَ، وتملَّكَها الخوفُ الذي عبَّرَتْ عنهُ رجفةُ جسدِها الغضِّ أصدقَ تعبيرٍ.

نهضتْ متثاقلةً، وفتحتْ بابَ غرفتِها لتتأكدَ منْ خروجِ أبيها، فوجدتْ أريكتَهُ خاويةً من جسدِه المسجيِّ فوقَها دائماً.

توجهتْ صوبَ بابِ الشقةِ، وأوْصدتْهُ بالمِفتاحِ ،ومِنْ ثَّمَ مزلاجِ الأمانِ، ثمَّ عادتْ متراخيةَ الأطرافِ نحوَ فراشِها، آملةً أنْ تكونَ بتلكَ الإجراءاتِ قدْ منحت نفسَها شعوراً بسيطاً منَ الأمانِ يساعدُها على قضاءِ أحلكِ لياليها.

تنبهتْ عالية إلى أنَّها لمْ تستبدلْ ثيابَها منذُ أنْ عادتْ إلى البيتِ، و خمارُها- كذلكَ- لم تنزعْهُ عنْ رأسِها بعدُ ؛ ولذلكَ توجَّهتْ صوبَ خزانتِها ،وفتحتْها لتنتقيَ ثوباً فضفاضاً، ورديَّ اللونِ قدْ ألقتْ بهِ على الفراشِ، وطفقتْ تنتزعُ ثيابَها مستفتحةً بخمارِها الذي باتَ في الفترةِ الأخيرة يشعرُها وكأَنَّهُ خيطٌ منْ حديدٍ يطبقُ على أنفاسِها بكبرِ حجمِهِ وألوانِه الباهتةِ.

ارتدتْ رداءَ النومِ، وتهيأتْ لتقضِيَ ليلتَها فوقَ فراشِها في انتظارِ بُزوغ أولِ شعاعِ ضوءٍ..

ولكنَّها عندَ مرورِها بمكتبةِ جدِّها خطرتْ إليْها خاطرةٌ ، لماذا لا تختار كتاباً يحملُ عُنواناً مثيراً يساعدُها على تزجيةِ الوقتِ ويُلهيها عنْ شعورِها بالوحدةِ والخوفِ ؟!! وقدْ كانَ.

لأولِ مرةٍ تمتدُّ يداها على أرففِ المكتبةِ لغرضٍ بخلافِ بعثرةِ الغبارِ ، مرَّرتْ أناملَها تتفحَّصُ العناوينَ مردِّدةً إيّاها بصوتٍ هامسٍ، منتظرةً أن يجذِبَ آذانَها أحدُهم ليقعَ الاختيارُ عليهِ.

البيانُ والتبيينُ والبخلاءُ للجاحظِ ، تفسيرُ القرآنِ لابنِ كثيرٍ، تهافتُ الفلاسفةِ للإمامِ الغزالي ، تهافتُ التهافتِ لابنِ رُشدٍ ، أناشيدُ الإثمِ والبراءةِ ، حوارٌ معَ صديقي الملحدِ لمصطفى محمود.

لمْ تكملْ عالية بحثَها، حيثُ أنَّ اختيارَها وقعَ بكلِّ أريحيةٍ على مصطفى محمود، وخاصَّةً على كتابِ "حوارٌ مع صديقي الملحدِ". وذلكَ لأنَّ مُصطفي

محمود حديثُ العهدِ بها ،إلى جانبِ أنَّ ذاكرتَها تحملُ له قدرًا يسمحُ بتتبعِ كتاباتِه ، فهيَ بالطبعِ عاصرتْ برنامجَهُ الرائعَ "العلمُ والإيمانُ" بالطبعِ كانتْ صغيرةً لا تعي الكثيرَ منَ الحقائقِ العلميةِ والإيمانيةِ المذهلةِ التي يعرضُها، ولكنّها كانتْ دائمًا ما تُبْهرُ بشرحِهِ المستفيضِ لحياةِ الحيواناتِ، ولطالَما كانَ يستهويها هذا الأمرُ ، هذا بالطبعِ إلى جانبِ وقعْ اسمِ "حوارٌ مع صديقي الملحدِ " على نفسِها، فهيَ ظنّتْ أنّها ستجدُ فيهِ أجوبةً لتساؤلاتٍ عديدةٍ تدورُ في رأسِها الصغيرِ لا تجرؤُ على البوحِ بها.

تناولتْهُ بينَ راحتيْها شاعرةً في تلكَ اللحظةِ وكأنَّه كنزُها الثمينُ.. توجّهتْ صوبَ أريكتِها ،وأدارتْ قرصَ المذياعِ،فما أصعبُ الليالي التي تجتمعُ فيها الوحدةُ مع الخوفِ ،ويأتي الصمتُ طوعًا ليصحبَهما. تهادتْ نغماتُهُ الرتيبةُ المعتادةُ في تلكَ الأوقاتِ منَ الليالي إلى آذانِها إلى أنْ أطلَّ عليها عبدُ الحليم بصوتِهِ الحالمِ....

حبيبها... لست وحدك حبيبها..

حبيبها... لست وحدك حبيبها..

وكانتْ تلك النوعيةُ من أغاني العندليبِ تستخلصُ منْها مُوسيقاها فقطْ دونَ أنْ تعبأَ كثيرًا بالكلماتِ، فبعدَ عشقِها لقصيدةِ "الأطلالِ"، "وهذهِ ليلتي" باتَ يصعبُ عليْها قبولُ قصائدِ العندليب، ولكنَّها كانتْ بالطبعِ تستعذبُ

الأغنياتِ الأقلَّ ثقلًا ،مثلَ:" أهواك وبلاش عتاب " وسواهُما. أمَّا القصائدُ فليتركْها للست. فما لَها منْ منافسٍ في رأيِها.

استلْقتْ على الفراشِ بعدَ أنْ ضبطتْ منبهَها على تمامِ السابعةِ ،ثمَّ طفِقتْ في قراءةِ كتابِها الأولِ للمبدعِ:مُصطفى محمود، وبالطبعِ كانتْ بدايةً موفقةً..

وما هيَ إلا دقائقُ قليلةٌ مرّتْ عليها بصحبتِهِ حتَّى غاصتْ تمامًا في أفكارِهِ ، فمتى طرحَ الملحدُ تساؤلًا تجدُ أنَّها تتبناهُ وكأنّهُ نابعٌ من فكرِها وعقيدتِها، ولكنْ ما أنْ تطالعَ إجابةَ الفيلسوفِ العظيمِ " مُصطفي محمود" حتّى تجدَ نفسَها اطمأنتْ لها بكلِّ جوارحِها واستكانتْ نفسُها ،وهكذا سرقتْها القراءةُ فمرَّ الوقتُ دونَ أنْ تشعرَ حتَّى تنبهتْ إلى كونِها قطعتْ شوطًا ليسَ بالهينِ في الكتابِ، وبأنَّ عينيْها ينبضانِ ،وكأنّها أوشكَا على الانفجارِ ، وفي ذلكَ الحينِ تذكرتْ والدتَها، وتذكرتْ كونَها على حقٍّ في منعِها منَ القراءةِ الحرةِ. فهيَ بالفعلِ عالمٌ ساحرٌ متى استعذبَ أحدُهمْ حلاوتَهُ لنْ ينسلخَ عنهُ مهمَا حاولَ.

وبالطبعِ هذا سيصرفُهُ عنْ مذاكرةِ المناهجِ التي تمتازُ بالملِ ،وتصيبُ طلابَها بضيقِ الأفقِ والكفِّ عنِ البحثِ والتدبرِ على عكسِ القراءةِ الحرةِ.

ابتسمتْ لخاطرتِها ابتسامةً مريرةً تحملُ بينَ طياتِها الخوفَ من الغدِ بعدْ أنِ اطمأنَّ قلبُها إلى اليومِ، حيثُ باتَ الفجرُ وشيكًا بعدَ أنْ بشّرَ به صياحُ ديكٍ آتٍ من مكانٍ ما،وتغيرتْ نغماتُ المذياعِ لتبعثَ بتواشيحِ الفجرِ..

استكانتْ حركاتُها، وجذبتْ طرفَ الملاءةِ ،واضعةً كتابَها على وسادتِها ،وكأنّهُ أخوها الذي قضى ليلتَهُ يؤنسُها ،ومنْ ثمّ أمدّ بجسدِهِ جوارِها؛ لتنعمَ بالاطمئنانِ،فاستقبلتِ النعاسَ بنفسٍ هادئةٍ، وبعقلٍ استنفذَ جمَّ طاقتِهِ في تدبرِ ما طالعَهُ فخرَّ أسيرًا طواعيةً لقبضةِ النومِ العميقِ.

رنَّ جرسُ منبهِها الصارمِ؛ لينتزعَها منْ سُباتٍ بدا وكأنّهُ الموتُ. فهبّتْ كَالملسوعةِ ممّا دفعَ دقاتِ قلبِها للتسارعِ في محاولةٍ لضخِّ الدماءِ بصورةٍ طبيعيةٍ لحاقًا بحركتِها المفاجأةِ ، حاولتِ النهوضَ ،ولكنَّها رأتْ أضواءً تتراقصُ أمامَ أعينِها، واعترتْها حالةٌ من الدوارِ غيرُ مسبوقةٍ ، ألقتْ بنفسِها مرةً أُخرى على طرفِ الفراشِ ساعيةً لإعادةِ السيطرةِ على دقاتِ قلبهَا ،واستعادةِ توازنِها الذي أختلَّ حتَّى كادتْ أنْ تسقطَ.. وبعدَ لحظاتٍ شعرتْ أنّها أفضلُ ،وبأنّ في استطاعتِها النهوضَ. فتحاملتْ متوجهةً صوبَ دورةِ المياهِ استعدادًا لأخذِ حمامٍ ينعشُ حواسَّها ،ويساعدُ على ضخِّ الدماءِ في أوصالِها التي تجاهدُ لجرِّها جرًّا.. أخذتْ حمامًا دافئًا، ثمّ طفقتْ في ارتداءِ ثيابها استعدادًا للانصرافِ. وهُنا وجدتْ أنَّ هُناك منْ يعبثُ بمفتاحٍ في البابِ محاولًا الفتحَ، ففطنتْ إلى أنَّ أباها قدْ عادَ.. توجهتْ مسرعةً صوبَ البابِ ،وفتحتْ مزلاجَ الأمانِ ؛ليتمكنَ منَ الدخولِ، ثمّ عادتْ مسرعةً إلى غرفتِها تجنبًا لرويتِهِ..

فما أنْ دلفَ حتَّى كانتْ هيَ بغرفتِها ترتدي خمارَها استعدادًا للخروجِ..

لاحظَ محمودَ الضوءِ المتوهجِ المنبعثِ منَ الغرفةِ ،فطرقَ البابَ بلطفٍ ، وقالَ:

_ عالية! هلْ أنتِ مستيقظةٌ ؟!!

جاءهُ صوتُ عالية مرتعشًا.

_ نعم يا أبي.. سآتي حالًا.

أنهتْ على عجلٍ ما كانتْ تفعلُهُ ،وعقلُها يحدثُها: ماذا عساهُ يريدُ منكِ يا عالية ؟!! ومنذُ متى يحدثُكِ بذلكَ اللطفِ ؟!! تُرى هلْ حدثَ مكروهٌ لأمِّك، وجاءَ لإخبارِكِ بأمرِهِ ؟!! بالتأكيدِ لا.. فما الذي قدْ يصيبُ أمِّي ،وهيَ تُعاني فقطْ كسرًا في عظمةِ الساعدِ. وهذا على ما أظنُّ لا يستدعي مضاعفاتٍ سواهُ، أوْ حتَّى على الأقلِّ في السويعاتِ القليلةِ الماضيةِ ، إذًا ماذا هُناكَ ؟!!!

خرجتْ من غرفتِها ،فوجدتْهُ جالسًا على الأريكةِ متخذًا منْ قبضتيْهِ متكأً لرأسِهِ في انتظارِها، وما أنْ فتحَ البابَ حتَّى طالعَها بلطفٍ متسائلًا:

_ إلى أينَ أنتِ ذاهبةٌ بتلكَ الثيابِ ؟!! أليسَ هذا موعدَ المدرسةِ ؟!!

_ نعمْ يا أبي! هوَ موعدُ المدرسةِ، ولكنَّني لنْ أذهبَ اليومَ.. فموعدُ عمليةِ أمِّي في الثامنةِ صباحًا، وبالطبعِ لنْ أتركَها بمفردِها وهيَ في تلكَ الحالةِ...

_ الحقُّ معكِ، يجبُ أنْ تذهبي ؛لرؤيتِها وطمأنتِها قبلَ دخولِها إلى غرفةِ العملياتِ ، فهيَ لا يعنيها في تلكَ الحياةِ سواكِ.

قالَ جملتَهُ الأخيرةَ ،وترقرقتْ في عينيْه عبراتٌ أثارتْ دهشةَ عالية، فمنذُ متَى وأبوها قادرٌ على التأثرِ حدَّ البكاءِ ؟!! فطالَما كانتْ تراهُ يمتلكُ قلبًا أشدَّ قسوةً منْ جلمودِ صخرٍ،لا تعرفُ الرحمةُ سبيلًا إليْهِ.

طرقتْ عالية أرضًا ،ولمْ تسعْها الكلماتُ.

مرَّتْ لحظاتٌ ثقيلةٌ حتَّى بادرَ محمودُ بالقولِ ،وعلى وجهِهِ ابتسامةٌ تستجدي الرضا:

_ انتظري للحظاتٍ فقدْ أحضرتُ لكِ بعضَ الشطائرِ.

قالَها ،وأخرجَ لفافةً كانَ قدْ أحضرَها معهُ، تفوحُ منْها رائحةً شهيةً..

_ تناولي إفطارَك أولًا قبلَ الذهابِ..

همَّتْ عالية بالرفضِ ،ولكنَّها تراجعتْ بعدَ أنِ استشعرتْ كمْ ستكونُ فظةً إنْ رفضتْ تلكَ اللمحةَ الطيبةَ نادرةَ الحدوثِ، فأقبلتْ لتتناولَ اللفافةَ منْ يديْهِ قائلةً وعلى وجهِها ابتسامةٌ رقيقةٌ:

_ أشكرُك يا أبي.

_ اجلسي الآنَ؛ لتتناولي طعامَكِ ،ثمّ اذهبي..

قالَها مشيرًا إلى أريكتِهِ بعدَ أنْ أفسحَ لها المكانَ، فجلستْ ،وأخرجتْ طعامَها ،وطفقتْ في تناولِهِ طارقةً أرضًا ،ولكنَّها كانتْ تشعرُ بحاسَّتِها السادسةِ أنَّ عينيْهِ معلقتانِ بها..

وما أنِ انتهتْ حتَّى همَّتْ بالوقوفِ ،ثمَّ قالتْ:

_ سأذهبُ الآنَ؛ كيْ لا أتأخرَ.

فأشارَ لها أنْ تفضّلي.

تناولتْ حقيبتَها ،وخرجتْ ورأسُها يعجُّ بالأفكارِ ؛لتتصارعَ الأسئلةُ يدفعُ بعضُها بعضًا في فضولٍ ودهشةٍ ..:

منذُ متى وأبي رقيقُ القلبِ ؟!! وما هذا التغيرُ المفاجئُ الذي طرأَ عليهِ ؟!! هلْ تفجَّرتْ مشاعرُ الأبوةِ بداخلِهِ فجأةً ؟!! أهوَ يحبُّني مثلَ سائرِ الآباءِ ؟!! أنا لمْ أشعرْ بذلكَ العطفِ والحنانِ من جانبِهِ مسبقًا قطُّ،وكأَنَّهُ إنسانٌ آخرُ؟!! تُرى هلْ سيظلُّ كذلكَ بعدَ عودةِ أمي إلى البيتِ ؛لنحيى في سعادةِ أمٍّ أَنَّهُ سيعاودُ إلى الفظاظةِ وغلظةِ القلبِ ؟!!

استقلّتِ الحافلةَ لتنقلَها إلى المشفى، وطوالَ طريقِها كانتْ تلوكُ تلكَ الأفكارَ المستبشرةَ، والتي بعثتْ في نفسِها سعادةً كافيةً ؛لتحيى عليْها أيامًا قادمةً وكفيلةً أنْ تُنسيَها إصابةَ أمِّها وخوفَها عليها منْ إجراءِ العمليةِ الجراحيةِ..

***

طالعتْها أمُّها ضجرةً ،ثمّ قالتْ:

_ لماذَا تأخرتِ يا عالية ما تبقى سِوى عشرِ دقائقَ علَى دخولي إلى غرفةِ العملياتِ..

_ آسفةٌ يا أمي، ولكنّني كنتُ قلقةً طوالَ الليلِ حتَّى غفوتِ ،ولمْ أشعرْ بالوقتِ..

أجابتْها عالية بتلكَ الكلماتِ المقتضبةِ ،وتحاشتْ ذكرَ ما كانَ من أبيها، لا تعلمُ لَمَا أخفتْ ما حدثَ ،ولكنَّ قلبَها حدّثَها بأنّهُ ليسَ بالوقتِ المناسبِ..

استعدت فريدةُ للتحركِ نحوَ غرفةِ العملياتِ ،وقلبُها يرتجفُ خوفًا، فهذهِ أولُ مرةٍ تمرُّ بموقفٍ مشابهٍ. ولكنّها بالطبعِ أخفتِ اضطرابَها عنْ أعينِ عالية ،لتظلَّ مخيلتُها تحملُ لها صورةَ الأمِّ القويةِ، شديدةِ البأسِ على أنَّ نفسَها تُندي ضعفًا.

أدمعتْ عالية خوفًا ورأفةً بأمِّها، ولكنَّ عمتَها أنيسةُ كانتْ بجوارِها تواسيها حتَّى انقضتْ سويعاتُ العمليةِ ،والتي مرَّتْ وكأنَّها دهرٌ..

خرجتْ فريدةُ منْ غرفةِ العملياتِ ،وهي تئنُّ، على الرغمِ منْ أنَّ وعيَها ظلَّ متخليًا عنْها ،ولكنَّ إدراكَ الألمِ لا يحتاجُ إلى وعيٍ للشعورِ به.

لحقتْها عالية وأنيسةُ مسرعتيْنِ ،وعيناهُما معلقتانِ بها يرجونَ إجابتَها على ندائِها، ولكنَّ الممرضةَ طمأنتْها بأنّها ستكونُ بخيرٍ ما أنْ تستفيقَ منَ المخدرِ ،فلا داعيَ للقلقِ..

انتظرَا حتَّى خرجَ الطبيبُ الذي أجرى العمليةَ للاستفسارِ عنْ حالتِها، وما أنْ خرجَ حتَّى هرعَا إليْهِ فطمأنَهما قائلًا:

_ لا تقلقَا ؛ لقدْ تمَّ تثبيتُ العظامِ بنجاحٍ بواسطةِ شرائحَ ومساميرَ..

قاطعتْهُ أنيسةُ قائلةً:

_ هلْ باستطاعتِها العودةُ اليومَ إلى البيتِ ؟!!

_ بالطبعِ لا، أمامَها عدةُ أيامٍ تحتَ الملاحظةِ.

أنهَى الطبيبُ جملتَهُ ،وأطلقَ لقدميْهِ العنانَ ؛ليفرَّ متحاشيًا المزيدَ منَ الأسئلةِ التي لا طائلَ منْ ورائِها.

عادتْ عالية وأنيسةُ إلى فريدةَ في الغرفةِ المخصصةِ لها ،وانتظرَا بجوارِها، حتَّى شرعتْ في استعادةِ وعيِها تدريجيًّا، وخلالَ تلكَ الأثناءِ حاولتْ أنيسةُ أنْ تستنبطَ منْ عالية ما كانَ بينَ فريدةَ ومحمودَ قائلةً:

_ استمعي يا عالية إليّ جيدًا ، أنا أعلمُ أنَّ أباكِ وراءَ ما حدثَ لأمِّك بشكلٍ ما، لا أعرفُ كيفَ!! وأنتمُ الثلاثةُ تعمدونَ إلى إخفاءِ الأمرِ..

ابتسمتْ عالية طارقةً أرضًا في وجلٍ،وقدِ احمرَّتْ وجنتاهَا خوفًا منْ أنْ تضطرَّها عمتُها للإفصاحِ عنْ شيءٍ أمرتْها أمُّها بكتمانِهِ ،ولنْ ترحبَ كثيرًا بإفشائِهِ،ولكنَّ أنيسةَ كانتْ أكثرَ حكمةً ووعيًا منْ ذلكَ.

لاحظتْ أنيسةُ ما اعترى عالية منْ توترٍ فحدجتْها ،وعلى وجهِهَا ابتسامةٌ تحملُ معني " لا تقلقي ؛ لنْ أدفعَكِ لقولِ ما تتجنبْنَ قولَهُ "وأردفتْ:

_ ولكنَّ هذا لا يعنيني. ما يعنيني شيءٌ واحدٌ، وهوَ أنتِ... مظهرُكِ يا عزيزتي ينبِئُ بكونِكِ تعانينَ كثيرًا بينَهُما، وبأنَّك لا تنعمينَ بحياةٍ سويةٍ، وهذا ما يؤلمُني.

_ فحيائُهمْ هيَ منِ اختيارِهمْ هُما الاثنانِ، ولشدِّ ما يحزُنُني عزيزتي! أنْ أراكِ تدفعينَ ثمنًا باهظًا لاختياراتهمْ تلكَ منْ حيويتِكِ وعفويتِكِ ،وأفضلِ سنواتِ عمرِكِ.

_ ليسَ في يدي الكثيرُ ممَّا يمكنُني تقديمُهُ، ولكنَّ بعضَ النصحِ منِ امرأةٍ عجوزٍ تكبرُ أمَّكِ بعدةِ سنواتٍ، ورأتْ منَ الدنيا الكثيرَ لنْ يضيرَ، أليسَ كذلك؟!!

فاتبعتْ قائلةً ،وعلى وجهِها ابتسامةٌ رقيقةٌ ساهمتْ منْ إظهارِ المزيدِ منَ التجاعيدِ، إلّا أنّها طرقتْ قلبَ عالية بلطفٍ ،وقربتْها منْها أشواطًا كاملةً:

_ اصنعي يا عالية عالَمَكِ الحالمَ الذي تتمنِّينَهُ، ولا تنتظري منْ أحدٍ منحَكِ السعادةِ ، فالسعادةُ نابعةٌ منْ داخلِكِ، مثلُها كمثلِ مياهِ بئرٍ تحتَ أقدامِ منْ يموتُ عطشًا، إنْ جاهدَ وكابدَ طارقًا ، وصلَّ، وارتوى، وأنقذَ حياتَهُ. أمَّا إنِ استسلمَ ،وقالَ هذا نصيبي، ماتَ عطشًا، ولا نزلَ المطرُ. ولذلكَ عليْكِ أنْ تفتشي عنْها بينَ جنباتِ نفسِكِ، وستجدينَها لا محالةَ ، وفي سبيلِ ذلكَ افعلي ما يحلُو لكِ، ما قدْ يجلبُ إلى قلبِكِ الصغيرِ السعادةَ ، طالَما لنْ تقدُمي على فعلٍ قدْ يكسرُ قلبَ أمِّك وأبيكِ، فالحياةُ ملكٌ لنا نطوِّعُها كيفَما نريدُ لنستخلصَ منْها سعادتَنا ، وإن شعرتِ يومًا أنّكِ في حاجةٍ إلى الإفصاحِ عمّا يختلجُ في صدرِكِ، فلا تتردَّدي في المجيءِ إليَّ. وأعدُكِ أنَّ سرَّكِ سيكونُ في بئرٍ.. اتفقنَا ؟

ابتسمتْ عالية ،وهزَّتْ رأسَها علامةً على الموافقةِ في امتنانٍ.

وما هيَ إلّا لحظاتٌ حتَّى طفِقتْ فريدةُ في استعادةِ وعيِها تدريجيًّا، بالطبعِ لمْ تكنْ قدْ تخلتْ عنْ أنّاتِها النابعةِ منَ الأعماقِ بعدُ، ولكنَّ هذا متوقعٌ ،ولن يضيرَ كثيرًا إنْ كانَ الأمرُ توقفَ عندَ ذلك الحدِّ..

بعدَ مُضيِّ سويعاتٍ قليلةٍ أتى إليهمْ طبيبٌ يظهرُ عليهِ أماراتُ العلمِ والبأسِ في السيطرةِ على الأمورِ، طويلُ القامةِ ، عريضُ المنكبينِ، حادُّ النظراتِ، مرتديًا معطفَهُ الأبيضَ الذي يُضفي عليْهِ وعمَّنْ سِواهُ مِنْ مرتديهِ هالةً منَ العزةِ والهيبةِ ،يتبعُهما بالضرورةِ شعورٌ خفيٌّ بضرورةِ الزهوِّ بحالهِمْ،بعضهمْ يتعمَّدُ لسترِهِ ،والبعضُ الآخرُ يراهُ حقًّا مكتسبًا كنتيجةٍ لنظرةِ المجتمعِ التي تبجلُ الطبيبَ تلقائيًّا.

_ هُناكَ أمرٌ ما يجبُ إعلامُكمْ به.

قالَها عاقدًا حاجبيْهِ كنايةً عنِ الجديةِ وخطورةِ الأمرِ، فانتبهَ ثلاثتُهم للحديثِ متوقعينَ كارثةً ما، فأتبعَ موجِّهًا حديثَه إلى فريدةَ:

_ أستاذةُ فريدةُ! بيدَ أنَّ العمليةَ الجراحيةَ أصعبُ ممَّا تصورْنا، لذلكَ سنضطرُّ إلى إجراءِ عمليةٍ استكماليةٍ ؛لنصلَ إلى أفضلِ النتائجِ. ولذلكَ فسيادتُكِ ستمكثينَ معنَا عدةَ أيامٍ أُخرَ..

وقبلَ أنْ يهمَّ أحدُهمْ بالحديثِ أكملَ حديثَهُ الذي كانَ يشعرُ وكأنَّهُ جاثمٌ فوقَ صدرِهِ ،ولنْ يهنأَ إلّا بلفظِهِ:

_ وهُناكَ شيءٌ آخرُ.

طرقَ للحظاتٍ أرضًا تاركَهمْ يعانونَ حرقةَ الأعصابِ ،ثمَّ أردفَ:

_ قدْ تُعانين سيدتي عجزًا جزئيًّا بعدَ إجراءِ العمليةِ الثانيةِ ؛فلنْ تعودَ ذراعُكِ إلى سابقِ عهدِها.

وعندَ انتهائِهِ منَ الحديثِ هبَّتْ أنيسةُ وعالية واقفتيْنِ للحظاتٍ غيرَ مصدقتينِ لَمَا يقولُ، وذلكَ حتَّى كسرتْ أنيسةُ حالةَ الذهولِ قائلةً بصوتٍ مرتجفٍ ،ولكنَّهُ حادٌّ:

_ ماذا تقولُ ؟؟ لماذَا سيكونُ هُناكَ نسبةُ عجزٍ ؟!!

فأجابَها الطبيبُ محاولًا امتصاصَ صدمتِها:

_ لقدْ قلتُ سيدتِي "قدْ" وهذا يعني أنَّ الأمرَ ليسَ بالأكيدِ. لذا أعدُكمْ ببذلِ قصارى جهْدِي لتفادي ذلكَ، ولكنَّ واجبي حتَّمَ عليّ إخبارَكمْ حتَّى لا يكونَ الأمرُ مفاجأً لكمْ.

أنهى حديثَهُ ،وانسحبَ تاركًا إيَّاهمْ غيرَ قادرينَ على استيعابِ ما أنبتتْهُ شفتاهُ

***

أولجتْ عالية المِفتاحَ في البابِ، ثمّ دلفتْ ،وعيناها لم تتخلَّ عنْ آثارِ العبراتِ بعدُ، وكانَ محمودُ مُتكِأً على أريكتِهِ يطالعُ حديثًا ما في التلفاز، فما أنْ رآها حتَّى هبَّ جالسًا، وقالَ بعدَ أنْ لاحظَ كدرَ وجهِها:

_ ماذا بكِ؟!! ما أخبارُ العمليةِ ؟!!

عمدتْ عالية إلى تجنبِ الحديثِ قدرَ المستطاعِ، فقالتْ في وجومٍ مقتضبةً:

_ ستظلُّ في المشفى لعدةِ أيامٍ، حيثُ أنَّها في حاجةٍ إلى إجراءِ عمليةٍ أُخرى قريبًا.

_ ولماذا كلُّ هذا التعقيدِ ؟! أليسَ الأمرُ مجردَ كسرٍ في الساعدِ ؟!

قالَها باستهانةٍ ،وكأنّهُ يمعنُ في استثارةِ غضبِها ،ممَّا أدَّى إلى فقدِها السيطرةِ على لجامِ أعصابِها ،فاندفعتْ صائحةً وكأنَّما فُتحَ في وجهِهِ بابٌ منَ الجحيمِ.

_ بتلكَ البساطةِ ؟!! مجردُ كسرٍ في عظمةِ الساعدِ ،فلمَا كلُّ هذا التعقيدِ ؟!! أحقًّا أنتَ إنسانٌ مثلُنا تشعرُ وتتأثرُ وتندمُ؟!! مؤكدٌ لا، فأنتَ منْ طينٍ آخرَ، لا يرى سِوى نفسِهِ ، لمْ تكلفْ خاطرَكَ وتأتي اليومَ للاطمئنانِ عليها. ولكنَّ هذا لنْ يضيرَها كثيرًا، فتواجدُكَ منْ عدمِه ،لنْ يقدمَ أوْ يؤخرَ. وهيَ لا تنتظرُهُ، ولكنَّكَ إنْ جئتَ لكنتَ علمتَ أنَّ ما أقدمتْ يداكَ على فعلِهِ قدْ يتسببُ لها في نسبةِ عجزٍ ستحيى بها طوالَ عمرِها.وفي أيّةِ يدٍ؟! في يدِها اليُمنى. كيفَ ستكفي حياتِها ؟!! كيفَ ستُعلمُ طلابَها ؟! ما أردتُّهُ أنتَ سيكونُ، ستمكثُ أمِّي في البيتِ، فمنْ ذا الذي يوظِّفُ معلمةً عاجزةً؟!وفي ذلكَ الوقتِ أتمنَّى أنْ تتحملَ أنتَ مسؤوليتَنا ومسؤوليةَ أفعالِكَ الطائشةِ.

_ أتمنَّى أنْ أراكَ تستحقُّ القوامةَ التي تتشدقُ بها.

وما أنْ أنهتْ عالية حديثَها حتَّى وجدتْ صفعةً قويةً أطاحتْ بجسدِها الضئيلِ ؛لتتهاوى على إثرِها على الأريكةِ غيرَ مستوعبةٍ لَما حدثَ.

لقدِ استثارتْ حنقَ وغضبَ أبيها بعدَ أنْ فقدتِ القدرةَ على التحكمِ بأعصابِها، فاستحقّتْ عقابَهُ عنْ جدارةٍ.

لطمَها وغادرَ البيتَ الذي لمْ يشعرْ يومًا أنّهُ ينتمي إليْهِ ،روحُه تنزفُ إثرَ طعناتِ خناجرِ كلماتِها.

خرجَ بلا واجهةٍ، بلا هدفٍ، خرجَ ليتجنّبَ المزيدَ منَ النزفِ منَ المواجهةِ كمَا اعتادَ، ولكنّها في تلك المرةِ أتتْ منْ آخرِ إنسانٍ كانْ يتوقَّعُهُ...

ابنتِهِ.....

هبطَ محمودُ الدرجَ قفزًا حتَّى انتهَى إلى الشارعِ،فقابلَهُ بضجيجِهِ وأضوائِهِ ؛ليعلنَ عدمَ اكتراثِهِ لَمَا يختلجُ في صدرِهِ، فأشعرهُ بمزيدٍ منَ الوحدةِ والضياعِ، وكأنَّ العالمَ يضيقُ به على قدرِ رحابتِهِ،يلفظُهُ كجِينٍ فاسدٍ ،فأسرعَ الخُطَى نحوَ اللاشيء.

وفي ذلكَ الوقتِ كانتْ عالية لمْ تستوعبْ بعدُ ما حدثَ، فكانتْ لا تزالُ طريحةَ الأريكةِ التي احتوتْها بعدَ صفعةِ أبيها، والعبراتُ تنهمرُ حتَّى لتظنَّها نبعَ مياهٍ لا ينضبُ، وما أنْ لملمتْ شتاتَ نفسِها حتَّى نهضتْ متوجهةً إلى غرفتِها بعدَ أنْ أغلقتْ بابَ البيتِ الذي قدْ تركهُ أبوها مفتوحًا ،غيرَ مكترثٍ لوحدتِها .

استكانتْ فوقَ فراشِها الوثيرِ ،و جذبتْ طرفَ الملاءَةِ فوقَها طلبًا للدفءِ على الرغمِ منْ لطافةِ الطقسِ والأمانِ ،على الرغمِ منِ احتواءِ جدرانِ بيتِها ، وكأنَّ تلكَ الأنسجةَ الرقيقةَ قادرةٌ على منِحها ما فقدتْهُ منذُ لحظاتٍ.

غفتْ مرتعشةَ الأطرافِ، كسيرةَ الفؤادِ، دامعةَ العينينِ ؛لتجدَ من يجلسُ بجوارها ،ويربتُ على كتفِها في حنانٍ قائلًا:

_ لا تحزني يا عالية ،لستِ وحيدةً.. أنَا هُنا.. بجوارِك، ولنْ أخذلَكِ متى استدعيتِني.

انتفضتْ منْ متكئِها على إثرِ استشعارِها براحةِ أحدهمْ تلامسُ كتفَها، وكأنّ الأمرَ حقًّا حقيقيٌّ قائلةً في فزعٍ:

_ يا إلهي ! منْ هُنا ؟!!

بالطبعْ لمْ تجدْ منْ يجيبُ سؤالَها، أوْ منْ يُزيلُ روعَها، فتطوعتْ هيَ للقيامِ بهذا الدورِ ،فلمْ يعدْ لها اليومَ سِواها. فقالتْ محدثةً نفسَها بعدَ أنْ غشيَ القلقُ ملامحَها:

_ لقدْ كنتِ تحلُمينَ يا عالية! هذا مجردُ حُلمٍ.

ولكنَّ نفسَها جادلتْها في إصرارٍ قائلةً:

_ ولكنَّني شعرتُ بجسدِ أحدِهمْ يجلسُ بجواري، وبراحتِهِ التي تربتُ على كتفِي ، وقدْ بدا الأمرُ حقيقيًّا إلى حدٍّ غيرِ مقبولٍ ، فكيفَ يكونُ ذلكَ حلمٌ ؟!!

_ بالطبعِ هوَ حلمٌ ،وقدْ تكفلَ عقلُكِ باستثارةِ جمِّ حواسِّكِ أثناءَ نومِكِ ؛ليمنحَكِ ما تتمنينَهُ إبَّانَ يقظتِكِ. لا تُبالغي يا عالية! فما تمتلكينَ سِوى عقلِكِ، والذي تعبثينَ بثوابتِهِ وعقائدِهِ الراسخةِ الآنَ ،أتريدينَ فقدَهُ هوَ الآخرُ ؛لتمضيَ هائمةً على وجهِكِ بعدَ أنْ فقدتِّ كلِّ شيءٍ؟!!

أنهتْ حديثَها النفسيَّ بعدَ أنْ جففتْ بقايا عبراتِها، والتي ألهبتْ وجنتيْها ،وصاحتْ في حيرةٍ ممزوجةٍ بحنقٍ متسائلةً:

_ أينَ أنتَ ؟!! أنا أشعرُ بوجودِكَ ، أشعرُ أنَّ هُناكَ أحدًا ما حولي ؟أينَ أنتَ ؟ أنا لا أهابُكَ ،ولنْ أفزعَ منكَ، أظهرْ لي نفسَكَ أرجوكَ! فإنَّ عقلي أوشكَ على الجنونِ..

تلفظتْ عالية بتلكَ الكلماتِ بصوتٍ جهوريٍّ، وبلهجةٍ تحملُ الكثيرَ منَ التحدي والإقدامِ ،ولكنَّها لمْ تتلقَّ أيّةَ إجابةٍ.

جابتِ الشقةَ تبحثُ عنْ مطمئنِها، ولكنَّ بحثَها بالطبعِ باءَ بالفشلِ،فعادتْ إلى غرفتِها بخُفيْ حنينٍ حتَّى ومضتْ في ذهنِها فكرةٌ سُرعانَ ما شرعتْ في تنفيذِها.

هبَّتْ عالية منْ مجلسِها ،وعادتْ لتجوبَ البيتَ مرةً أُخرى، ولكنْ في تلكَ المرةِ بهدفِ إطفاءِ كافةِ المصابيحِ.

جلستْ عالية على طرفِ الفراشِ ليلًا بعدَ أنْ أطفأتْ أضواءَ البيتِ بالكاملِ، راجيةً أنْ يعمَّ ظلامٌ دامسٌ تسعى إليه ،وصمتٌ بهيمٌ تنشدُه، ولكنَّ الضوءَ عاندَ رغبتَها؛ ليتخللَ متسللاً عبرَ ثغراتِ الشُّرفةِ التي أُحكمَ إغلاقُها في محاولةٍ فاشلةٍ لكبحِ لجامِهِ، فارِضًا نفسَه كضيفٍ غيرِ مرغوبٍ فيهِ؛ ليسمحَ لها ببعضِ الرؤيةِ غيرِ الواضحةِ.

وبالطبْعِ لم يأتِ منفرداً، ولكنَّ أصواتَ ليلِ الربيعِ الصحوِ المحملةَ بنسماتِهِ الرقيقةِ بصحْبَتِهِ.

ظلتْ عالية للحظاتٍ صامتةً تُحملقُ في غرفتِها التِي استولى عليْها السكونُ ،وذلكَ إلِي أنِ استجمعتْ شجاعتَها،وتملّكت رباطَ جأشِها، وقالتْ بصوتٍ مرتجفِ النبراتِ:

_ إنْ كنتَ حقًّا موجودًا معي وترعَاني على حدِّ قولِك، فأظهِرْ لِي نفسَك؛ فأنا أتمنى رؤيتَك رأيَ العينِ.

قالتْ جملتَها، ثمَّ تبعتْها بصمتٍ وترقبٍ للحظاتٍ،ولكنَّ شيئاً لم يحدثْ ممَّا كانتْ تنتظرُه بشدةٍ ،علِي الرغمِ من كونِها تهابهُ كذلكَ.

أعادتْ جملتَها مرةً أُخرى ،ولكنَّها في تلكِ المرَّةِ شعُرتْ بمدى سخافةِ ما تفعلُه؛ ولذلكَ جانبَها الخوفُ والرجفةُ ،فخرجتْ بصوتٍ واثقٍ غيرِ متردِّدٍ:

_ إنْ كنتَ حقًّا موجودًا معي وترعاني فأظهِرْ لِي نفسَكَ.

صمتتْ مرةً أخرى منتظرةً، ولكنَّها في تلكَ المرةِ لمْ تنتظرْ طويلاً؛ فقدِ انبثقَ في الغرفةِ ضوءٌ ساطعٌ يخطفُ الأبصارَ.

ارتجفتْ عالية بدونِ حوْلٍ مِنْها ،وعادتْ إلى الخلفِ ؛لتلتصِقَ بالحائطِ المسندِ إليهِ مخدعُها، متقوقعةً في جِلستِها، مُرتَعِدَةً،وقدِ اتسعتْ عينُها رُعباً ،على الرَغمِ منْ أنَّها قدْ ظلَّتْ شاخصةً نحوَ الضوءِ الساطعِ ،تحملُ خشيةَ جنينٍ يستقبلُ دنياهُ لحظةَ ميلادِهِ.

وناجَتْ نفسَها راجفةً:

_ أيكونُ هذا الموتُ قد جاءَ ليدركَني ؟!

فهيَ دائمًا ما كانتْ تستمعُ إلي أحاديثِ الكبارِ وتوقعاتِهم للحظةِ خروجِ الرَّوحِ منَ الجسدِ، ولطالمَا قدْ وصفوهُ بأنَّ المُتوفَّى غالبًا مَا يرى ضوءًا ساطعًا قبلَ أن تفارقَ جسدُه الروحَ.

تملكتْها ظنونُها، فاشتَعلتْ جوارحُها بعواطفَ مضطربةٍ ممزوجةٍ بالخوفِ والحزنِ والشفقةِ؛ ممَّا أهبَ روحَها ، وأثلجَ أناملَها المرتجفةَ،وتسارعتْ دقاتُ قلبِها حتَّى كاد أن يفرَّ هاربًا من بينِ أضلعِها، تاركًا إيَّاها تُعاني قدرَها بلا قلبٍ، وشرعتْ تَنْعى ربيعَ عمرِها الذي شارفَ على المُضِيِّ قبلَ أن يدنوَ، وأحلامَها التي وئِدت قبلَ أن تُولدَ.

وتذكرتْ أمَّها،وكيفَ ستستقبلُ خبرَ وفاتِها؟! هلْ ستتقبلُهُ لتمضيَ حياتِها بدونِها، أمْ سترفضُ الحياةَ لتلحقَ بِها في أسرعِ وقتٍ ؛كي لا تذرَها وحيدةً في العالمِ الآخَرِ؟!

وتساءلتْ في جزعٍ:

_ هلْ سأشعرُ بالوحدةِ في العالمِ الآخَرِ، أمْ أنَّ ربي سيترفَّقُ بي لصغرِ عُمري ،ويُهديني صحبةً من الملائكةِ تحنُو عليّ ،وتعوضُني فقدَ أمِّي.

وأكدتْ ذلكَ لنفسِها مفكرةً:

_ نعمْ بالتأكيدِ هذَا سيحدثُ؛ فأنَا لمْ أرتكِبْ خطيئةً واحدةً في حياتِي القصيرةِ ،حتمًا ربِّي سيترفقُ بي.

وفي تلكَ اللحظةِ غلبتْها العبراتُ، فانهمرتْ علي وجنتيْها يُلهبانِها خوفًا وحزنًا في سكونٍ.

ثمَّ تمالكتْ نفسَها ،وناجتْ ربَّها بصوتٍ مرتجفٍ رانيةً إلى سمائِهِ عبرَ ثغراتِ الشُّرفةِ:

_ يا ربِّ! أنا غيرُ مستعدةٍ للموتِ الآنَ.

_ غيرُ مستعدةٍ .. غيرُ مستعدةٍ..

وهُنا أتاها صوتٌ رخيمٌ قادمٌ منْ جِهةِ الضوءِ قائلاً:

_ ترفَّقِي بنفسِك يا عالية، فإنَّ أجلَك لمْ يأتِ بعدُ.

لم تتحملْ عالية تلك الصدمةَ ،فخانَها وعيُها ،وتخلَّى عنْها،لترتطمَ رأسُها بالفراشِ فاقدةً الوعيَ.

استغرقتْ لحظاتٍ حتَّى عادَ إليْها وعيُها، وقد كانَ هُناكَ في انتظارِها.

تمالكتْ أعصابَها بكثيرٍ منَ العسرِ ،وبوجهٍ بدا عليهُ تعبيرٌ منَ الرعبِ ،وعدمُ التصديقِ تساءلتْ عالية بصوتٍ مترددةٍ نبراتُهُ خوفًا وجزعًا بعدْ أنْ تكورتْ على نفسِها مرتعشةَ الأوصالِ ، وعيناها شاخصتانِ إلى الكيانِ الماثلِ أمامَها ،والذي انبثقَ منَ الضوءِ.

_ منْ أنتَ؟! وكيفَ ولجتَ إلى البيتِ؟! وماذا تريدُ منِّي؟هلْ أنتَ ملكُ الموتِ ؟! هلْ حانَ أجلي؟!

فأتاهَا الصوتُ الرخيمُ مرةً أُخرى متحدِّثًا:.

_ حاولي أنْ تُهدِّئي منْ روْعِكِ قليلًا ، أخشى أنْ يصيبَ قلبَكِ الصغيرَ مكروهٌ، أعلمُ أنَّ المفاجأةَ أكبرُ من أن يستوعبَها عقلُكِ الصغيرُ، ولكنَّك استدعيتِني ولذَلك لبيْتُ..

هكذا أجابَها القادمُ منَ الضياءِ بنبرةٍ حملتْ في طيّاتِها المزيجَ من الرأفةِ والحنانِ ،ثمّ أتبعَ قائلًا:

_ ألنْ تبحثي عنْ أخٍ ؟!! أنا سأكونُ ذلك الأخَ ، فلا تفزعي.

جفَّفتْ عالية عبراتِها بيدٍ مرتعشةٍ ؛لتتحْ لعينِها المزيدَ منَ الرؤيةِ الواضحةِ ،ثمّ قالتْ:

_ ولكنَّكَ مجردُ وهمٍ، أليسَ كذلكَ ؟!!

وتمتمتْ وكأنَّما تحدثُ نفسَها ،معتصرةً رأسَها بينَ راحتيْها:

_ لقدْ فقدتُّ عقلي تمامًا.

فجاءَها الردُّ كما لمْ تتوقعْ قائلًا بنبرةٍ واثقةٍ:

_ لا أنا لستُ وهمًا ، أنا حقيقةٌ وأنتِ تعلمينَ.

هبَّتْ على روحِها نسماتُ الفضولِ ،ممَّا أرجأَ خوفَها قليلًا وتساءلتْ:

_ ولكنْ كيفَ ؟! أأنتَ إنسانٌ مثلُنا ؟!! وإنْ كنتَ كذلكَ، فكيفَ خرجتَ منَ الحائطِ ؟ منْ أينَ أتيتَ ؟!! وأينَ كنتَ قبلَ أنْ تأتيَ ؟!! أكنتَ هُنا طوالَ الوقتِ ؟!! أكنتَ تراني وكأنَّكَ تحيى معي دونَ أنْ أشعرَ ؟!!ولكن كيف لك هذا؟!!

_ لا. أنا لستُ إنسانًا مثلَكمْ ،وقدْ أتيتُ عبرَ بوابةٍ تصلُ بينَ عالمَيْنا، حيثُ أنَّني منْ عالمٍ آخرَ يتصلُ بعالمِكمْ عبرَ بواباتٍ تجهلونَها أنتمْ، ونعلمُها نحنُ، ولا تُفتحُ إلَّا إنِ اجتمعتْ رغبتُنا مع دعوةٍ واضحةِ اللهجةِ منْ أحدكمْ .

أعادتْ عالية سؤالَها عنْ ماهيَّتِهِ بصورةٍ أُخرى قائلةً.

_ هلْ أنتَ منَ الجنِّ ؟؟

_ لا.

_ إذًا منْ أنتَ ؟!

_ لقدْ أجبتُك مسبقًا. تستطيعينَ أنْ تعدِّيني أخاكِ. وهذا ما أسعى لتقديمِهِ إليكِ ،ولكنَّ ماهيتي الحقيقيةَ لنْ أستطيعَ البوحَ بها. أرجُو منكِ أنْ تعذريني..

التصقتْ عالية بالحائطِ وكأنَّها تسْعى للعبورِ منْ خلالِهِ بعدَ أنْ عادَها خوفُها منْ جديدٍ ، لا تعلمُ أيجبُ أن تفزعَ وترتعدَ فتدبرُ، أمْ تتحلَّى بالثباتِ والشجاعةِ فتقدمُ ؟!

مؤكدٌ أيُّ إنسانٍ يمرُّ بتلك التجربةِ سيتوقفُ قلبُهُ هلعًا، ولكنّها كانتْ تشعرُ بذلكَ التواجدِ والحضورِ من قبلُ في يقظتِها، وتراهُ في أحلامِها، ولكنَّها عندمَا كانتْ تستفيقُ كانتْ تُقنعُ نفسَها بأنَّ ذلكَ الحضورَ ما هوَ إلا وهمٌ اختلَقهُ عقلُها ؛ليمنحَها شعورًا بالصحبةِ. ولكنَّ اليومَ الوهمَ أمسى واقعًا ،والحلمُ أمسى حقيقةً، حقيقةً تراها بأعينِها ،وتسمعُها بآذانِها.

كانَ عقلُها على الرغمِ منَ الخوفِ يعملُ بسرعةٍ تقاربُ سرعةَ الضوءِ، يسعى لتقديمِ تفسيراتٍ منطقيةٍ لَمَا يحدثُ، ولكنَّهُ بالطبعِ أعلنَ فشلَهُ بعدَ دقائقَ معدوداتٍ،تاركًا إيّاها وحيدةً في متاهةٍ عبثيةٍ مترامية الأطرافِ ،وهُنا وجدتْ نفسَها محيرةً ما بين أمرينِ، إمَّا أنْ تستسلمَ للهلعِ، وتضيءَ المصابيحِ هربًا من ذلك الحضورِ، وإمّا أنْ تتمادى فيما أقدمتْ عليْهِ بملءِ إرادتِها الحرةِ حينَ استدعتْهُ..

ولكنَّ عقلَها عادَ ليساندَها مرةً أُخرى مقدمًا إليْها تذكرةً قدْ تساعدُها في اتخاذِ قرارِها، إنْ أرادَ إيذاءَها فلما تمهَّلَ! وقدْ كانتْ وهنةَ القوى والعزيمةَ منذُ لحظاتٍ.

اتخذتْ قرارَها الذي وجدتْ روحَها أميلَ إليهِ دون ترددٍ..ابتلعتْ ريقَها بصوتٍ مسموعٍ، وكأنّها تسعى لابتلاعِ الموقفِ قائلةً:

_ لقدِ استدعيتُكَ لشعوري بتواجدِكَ حولي وبخاصةٍ أثناءَ شعوري بالحزنِ والضجرِ، ولذلكَ أنا ممتنةٌ لك كثيرًا.. ولكنَ اسمح لي بالتساؤلِ:لماذا كنتَ حولي حينَ أحتاجُ إليكَ ، أهذَا ما يحدثُ معَ الجميعِ ؟!!

ابتسمَ في لطفٍ ،ثمّ قالَ:

_ بالطبعِ لا ، فأنا اعتدتُّ الحضورَ إلى تلكَ البُقعةِ في السابقِ ؛لأتواصلَ مع جدِّك قبلَ أنْ توافيهِ المنيةُ..

لاحتْ شبحُ ابتسامةٍ تحملُ آثارَ فهمٍ على ثغرِها،فقدْ شعرتْ وكأنَّها عثرتْ أخيرًا على الحلقةِ المفقودةِ،ثمَّ قالتْ:

_ أفهمُ منْ ذلكَ أنّك كنتَ على اتصالٍ بجدِّي رحمهُ اللهُ؟..

_ أصبتِ، ولقدْ كان نعمَ الرفيق..ولذلكَ فإنَّ روْحي تألفُ المكانَ ،وعبراتِك النابعةَ منْ أحزانِكِ المستمرةِ جعلتْني أعودُ إليهِ مخترقًا جدارَ أحلامِكِ، منتظرًا دعوتَكِ كما اعتادَ جدُّكِ.

_ ما كانتْ طبيعةُ علاقتِك به ؟

_ لقدْ كنَّا رفقاءَ. وهذا ما يكونُ عندما يدعونَا أحدُكمْ ونستجيبُ لدعوتِهِ، فتنشأُ بيننا رفقةٌ تدومُ حتَّى الموتِ.. وهذهِ العلاقةُ التي ستجمعني بكِ إنْ أردتِّ الاستمرارَ.

صمتتْ عالية قليلًا ،ثمَّ قالتْ:

_ هلْ أستطيعُ إضاءةَ المصابيحِ لأتبينكِ بصورةٍ أوضحَ؟!!

_ لا. وهذهِ أولى الملاحظاتِ التي يجبُ أن تنتبهي إليْها.. أنا لا أظهرُ في أضوائكمُ الصناعيةِ ، فهيَ تؤذيني، وعندما تستدعينني سآتي منبثقًا منَ هذا الضوءِ البكرِ الذي ترينَهُ خلفي، وإنْ أضأتِ المصابيحَ فسأختفي تلقائيًّا، ثمَّ إنّني لنْ أظهرَ إلّا عندمَا تكونينَ وحيدةً كاليوم..

_ إذًا كيفَ لي التحققُ من كينونتِك؟ وبمنْ أدعوكَ؟

_ يسمحُ لك بالاقترابِ حدَّ رؤيتي بصورةٍ أوضحَ، ولكنْ ليسَ مسموحًا لك بملامسةِ حدودي الفيزيائية.. أمَّا بخصوصِ بماذا تدعونني، فبإمكانِك أن تدعونني "الرفيقَ".

همَّتْ عالية بتركِ حصنها المتمثلِ في فراشِها متوجهةً صوبَ الضوءِ ،وما استقدمَهُ معهُ منْ أخٍ أنبتتْهُ لها الحياةُ، تتحسَّسُ الخُطَى ،يدفعُها فضولُها الذي حدَّثَها عقلُها بكونِهِ قدْ يقتلُها في أيّةِ لحظةٍ.. اقتربتْ واقتربتْ كهرةٍ مذعورةٍ إلى أنْ تبيَّنتْ ملامحَ القادمِ منَ الضياءِ، وكانَ كالبدرِ في بهائهِ....

يمتلَّكُ وجهًا صبوحًا كضوء النهارِ البكرِ، تبرزُ فيه عينانِ ثاقبتانِ بلونِ الليلِ البهيمِ، يعلوهما حاجبانِ نُحتا ليبدوانِ كهلاليْنِ تولَّدَ بينهما أنفٌ شامخٌ يدنوهُ ثغرٌ ورديٌّ دقيقٌ، ويحملُ ذلكَ الرأسُ البهيُّ جسدًا ممشوقًا، متناسقًا، كما لوْ كانَ أحدَ أجسادِ الآلهةِ اليونانيينَ كمَا كانتْ تبدو في أعينِ ناحتيهمْ في العصورِ البائدةِ.. يرتدي بنطلونًا بنيَّ اللونِ وسترةً لامعةً تحملُ ذاتَ اللونِ.. تفحصتْهُ جيدًا ولمْ تغفلْ أيّةَ تفصيلةٍ ، وإن كانتْ صغيرةً محاولةً استنباطَ كنهِهِ:

_ هلْ أختلفُ عنكمْ كثيرًا ؟!!

قالَها باسمَ الثغرِ كاشفًا عنْ جواهرِهِ المرصعةِ..

فأجابتْ عالية ووجهُها ما زالَ محتفظًا بتحفظِهِ وإنْ رانَ عليهِ الدهشةُ قائلةً:

_ أنتَ حقًّا مثلُنا تمامًا إلَّا أنَّ وجهَك يشعُّ نورًا وكأنَّهُ البدرُ، عساكَ منْ تكون؟!!

ابتسمَ ،وأتبعَ بهدوءٍ ولكنْ بثقةٍ:
سأكونُ عقلَك المتقدَ وضميركَ الواعي ، ولكنَّ هذا بالطبعِ سيكونُ سرَّنا الدفينَ..

****

في صباحِ اليومِ التالي كانتْ عالية في طريقِها إلى المشفى ؛لترى والدتَها، ولكنَّها كانتْ قدِ اكتسبتْ قدرًا وفيرًا منَ التفاؤلِ والحماسةِ. وعندمَا دلفتْ إلى غرفةِ فريدةَ ،كانتْ تعلو وجهَها ابتسامةٌ تسللتْ رغمًا عنْها فانعكستْ على وجهِ فريدةَ هي الأخرى ؛لتشرقَ لمرآها مستفهمةً:

_ وجهُكِ مشرقٌ اليومَ ،هلْ نمتِ جيدًا أمسِ ؟!!
_ نعمْ يا أمي ،لا تشغلي بالَكَ كثيرًا بي، يكفيكِ ما تعانيهِ، واطمئنِّي ،فأنا أتدبرُ أمري..
_ هلْ تناولتِ عشاءَكِ أمسِ ؟!!
_ نعمْ، تناولتُهُ، واستذكرتُ دروسي، وكلُّ شيءٍ بخيرٍ، لا ينقصني سواكِ.
صمتتْ فريدةُ حينًا ،ثمَّ تساءلتْ في توجسٍ:
_ وأبوكَ.. كيفَ كانَ معكِ ، هلْ ضايقَك في شيءٍ ؟!!
_ لا أبدًا يا أمي، حتَّى أنَّهُ تركَ البيتَ أمسِ ،وذهبَ، فقضيتُ ليلتي وحدي.
_ ولماذا ذهبَ ؟؟!! عالية !أهناكَ شيءٌ تخفينهُ عنِّي ؟!!

_ بالطبعِ لا يا أُمي. كلُّ شيءٍ سيكونُ بخيرٍ، أعدُكِ..ولكنْ أينَ عمَّتي؟!!

ألقتْ عالية سؤالَها ،وتلفتتْ حولَها باحثةً عنْ أنيسةَ في الأرجاءِ في محاولةٍ لإنهاءِ استجوابِ والدتِها فأجابتْها فريدةُ:

_ لقدْ ذهبتْ إلى بيتها لتعدَّ بعضَ الطعامِ لعمِّك، وتراعي شؤونَ بيتِها قليلًا، فلَها عدةُ أيامٍ لمْ تتركْني،وزوجُها مشكورٌ لمْ يعترضْ..

_ نعمْ ،بالطبعِ يا أُمي، فهوَ إنسانٌ خلوقٌ لمْ نرَ منهُ سِوى الخيرِ.إذًا سأقضي أنا معكِ تلكَ الليلةَ..

_ بالطبعِ لا لنْ أسمحَ لكِ.. أنا الآنَ بخيرٍ، وأستطيعُ تدبرَ أمري، ولا أحتاجُ أحدًا لقضاءِ الليل معي. ستعودينَ إلى البيتِ، وستذهبينَ إلى دروسِك ،ولنْ تقصِّرينَ في شيءٍ.. فلنْ تسمحي بأنْ يضيعَ جهدَك طوالَ العامِ هباءً قُبيلَ الامتحاناتِ.. ولقدْ هاتفتُ الأستاذَ علاء ؛ليحلَّ محلِّي في الدروسِ الخصوصيةِ لحينِ استعادتي عافيتي، فما ذنبُ الطلبةِ فيمَا أُعانيهِ ،ولقدْ رحَّب كثيرًا، ولذلكَ ستنتقلينَ أنتِ الأُخرى إلى مجموعتِهِ، وأولُ الحصصِ ستكونُ اليومَ في تمامِ الخامسةِ..

ثم صمتتْ حينًا وأتبعتْ واجمةً:

_ عالية! طوالَ سنواتِ عمرِكِ كنتُ أعدُّكِ لتلكَ الأيامِ، لا تخذليني يا عالية لابتعادي عنكِ ، ما أُعانيهِ الآنَ لنْ يؤْلمني كألمي حينَ تخفقينَ في تحقيقِ آمالي

فيكِ ، لمْ يكسرْني شيءٌ طوالَ حياتي ،ولكنْ يجبُ عليْكِ أنْ تعلمي أنَّ فشلَكِ – إنْ حدثَ –سيكسرُني ويهدمُ مستقبلَنا سويًّا..

أومأتْ عالية برأسِها كنايةً عنِ الفهمِ ،لمْ تنبسْ ببنتِ شفةٍ ؛لتواريَ شعورًا بالامتعاضِ نبتَ بينَ جنباتِ نفسِها.. فلقدْ كانَ على طرفِ لسانِها إعلانُ رفضِها للمستقبلِ الذي خطَّطَتْهُ والدتُها دونَ أخذِ رأيها ،ولكنَّها بالطبعِ ابتلعتِ الاعتراضَ، فليسَ هذا وقتًا مناسبًا لمثلِ تلكَ الأحاديثِ..

وما أنْ سادَ الصمتُ حتَّى كسرتْهُ فريدةُ قائلةً:

_ خالُكِ وزوجتُهُ شارفَا على القدومِ ، وبالطبعِ يعلمُ عنِ الحادثِ ما تعلمُهُ عمتُكِ..

ثمَّ أتبعتْ ضاغطةً على حروفِ كلماتِها مؤكدةً:

_ لقدِ انزلقتُ ،وكُسرتْ ذراعي لا غيرَ،أرجُو ألا ينزلقَ لسانُكِ، وتتفوهي بما لا يليقَ أمامَهما..

_ لا تقلقي يا أُمِّي، فلنْ أتدخلَ في الحديثِ منَ الأصلِ..

_ هذَا أفضلُ لكليْنا..

وبالفعلِ أثناءَ تناولِ عالية لإفطارِها ،والذي كانتْ أنيسةُ قدْ تركتْهُ في كيمود فريدةَ ،وقبلَ ذهابِها أتتْ عائلةُ خالِها بالكاملِ، فشملتْ الخالَ وزوجتَهُ وابنتَاهما المدللتانِ بسمةَ وسمرَ. هبَّتْ عالية مصافحةً خالَها بودٍّ بعدَ أنِ انفرجتْ أساريرُها ،فاحتضَنَها وربتَ على رأسِها في حنانٍ قائلًا:

_ كيفَ حالُكِ يا عزيزتي ؟ ألَا تفتقدينَ خالَكِ فتسألينَ عنْ أحوالِهِ ؟

ابتسمتْ عالية خجلًا، ثمَّ قالتْ:

_ بالطبعِ يا خالي، ولكنْ كما ترى.

قالتْ جملتَها مشيرةً إلى أمِّها الراقدةِ على الفراشِ، فهزَّ رأسَهُ متفهمًا ،ولكنَّهُ أتبعَ عاتبًا في رفقٍ:

_ أرى يا عالية، ولكنَّني عاتبٌ عليكِ ، لماذَا لمْ تتصلي لتخبريني فورَ وقوعِ الحادثِ ؟!! هلْ يجوزُ أنْ أعلمَ بعدَ عدةِ أيامٍ منْ عمَّتِك ؟!! أهناكَ أقربُ في نظرِك إليْكما في مثلِ تلكَ الظروفِ منِّي ؟!

_ بالطبعِ لا، الحقُّ معكَ ، ولكنِ اعذرني، فعندمَا وقعَ الحادثُ كانتْ عمّتي أنيسةُ تحادثُ أبي على الهاتفِ، ولذلكَ علمتْ بالحادثِ فورَ حدوثِهِ ،وتطوعتْ هيَ بالقيامِ بكلِّ شيءٍ.

_ لا عليْكِ يا عزيزتي، فلستِ وحدَك الملامةَ.

قالَها مشيحًا بنظرِهِ إلى فريدةَ في لومٍ، فما كانَ منْها إلَّا أنْ تجاهلتْهُ ،ووجَّهتْ حديثَها إلى زوجتِهِ مرحبةً:

_ سعدتُّ بحضورِكِ يا نجلاءُ.

_ منذُ زمنٍ لمْ نتقابلْ ،وكنتُ أتمنَّى أنْ أراكِ في ظروفٍ أفضل منْ تلكَ..

قالتْها أثناءَ جلوسِها على طرفِ الفراشِ المقابلِ لفراشِ فريدةَ ،ثمَّ أشارتْ لابنتيْها للجلوسِ بجوارِها،وكانتْ بسمةُ تكبرُ عالية بستِ سنواتٍ ،

وتخرجتْ في كليةِ الآدابِ ،وسمرُ بأربعِ سنواتٍ، وتدرسُ في كليةِ التربيةِ الرياضيةِ ،أمّا بالنسبةِ لمعاييرِ الحسنِ فلمْ تكنْ إحداهُما في منزلةٍ تعلو على منزلةِ عالية كثيرًا،فثلاثتُهمْ تقريبًا تحملُ ذاتَ قسماتِ الوجهِ ،ولونَ البشرةِ الذي يميلُ للسمرةِ والجسدِ الدقيقِ،ولكنَّهما لديْهما امتيازاتٌ أخرى جعلتْهما يبدوانِ في عينِ عالية أكثرَ جاذبيةً وحسنًا، وتلكَ الامتيازاتُ جاءتْ كنتيجةٍ للتدليلِ المفرطِ منْ جانبِ أبويْهما إلى جانبِ القدرِ الوفيرِ منَ الحريةِ التي ينعمانِ بها، وتشملُ تلكَ الحريةُ حريةَ اختيارِ الثيابِ التي تظهرُ مفاتنَهنَّ، وبالطبعِ لمْ يستترْ شعرُهما أسفلَ قيدِ الحجابِ، فتُركَ حاسرًا على كتفيْهما في دلالٍ ، أضفْ إلى ذلكَ مساحيقُ التجميلِ التي أضفَتْ على ملامحِهمَا سحرًا منْ نوعٍ خاصٍّ تفتقرُ إليْهِ عالية ولا تجرؤُ على تمنِّيه سرًّا..

وقدْ كانَ لقاؤُهمْ عزيزًا. فلا يتقابلُ العائلتانِ إلَّا أثناءَ المناسباتِ والأعيادِ تقريبًا، ولذلكَ ظلَّتْ عالية ترمقُهما في فضولٍ متعجبةً منْ تحررِ خالِها الذي سمحَ لُهما بارتداءِ تلكَ الثيابِ، ولكنَّها أيضًا تمنتْ لوْ أنَّها تتمتعُ بذلكَ القدرِ منَ الحريةِ، بالطبعِ هيَ لنْ تجسرَ على ارتداءِ ثيابٍ كتلكَ، أوْ أنْ تضعَ ذلك الكمَّ منَ مساحيقِ التجميلِ، فحياؤُها سيمنعُها، ولكنَّها كانتْ لتختارَ ما يناسبُها دونَ قيدٍ، ما لا يجرحُ عينَ أحدِهم لرؤيتِها، أو يجذبُ حنقَ أبويْها..

كانتْ هذهِ الأفكارُ تجولُ بخاطرِها أثناءَ تبادلِ الحديثِ بين أمِّها وخالِها، وما تناولهُ منْ شرحِها لهُ عن كيفيةِ سقوطِها ،وكيفَ حدثَ الأمرُ بسرعةٍ لم يكنْ

باستطاعتِها تداركُها. وبالطبعِ ما كانَ منهُ إلّا أنْ يربتَ على كتفِها مواسيًا بأسًى حقيقيٍّ، وهُنا رأتْ عالية في عينِ خالِها عطفًا وحنانًا تجاهَ أختِهِ فريدةَ لا يقدَّرُ بثمنٍ، فصرفَ ذهنَها ذلكَ المشهدُ إلى تساؤلٍ ما لهُ منْ جوابٍ في جعبتِها، وهوَ:لماذا تعمدُ أمُّها إلى إقصاءِ أخٍ حنونٍ كهذا عنْ مشاكلِها؟!.. فمنْ لها سواهُ؟!.. هوَ يجبُ أنْ يكونَ حصنَها المنيعَ منْ قسوةِ زوجِها وسوءِ معاملتِهِ لها، فلماذَا تتطوعُّ بإخفاءِ أحزانِها عنهُ، وهو الذي في مقدورِهِ مدُّ يدِ العونِ لها وحمايتُها ؟!

وهكذَا قضتْ عالية الدقائقَ التي شهدتْ مُكثَ خالِها وعائلتِهِ ،تُناجي نفسَها تارةً وتتفحصُ الفتاتينِ تارةً أُخرى حتَّى أعلنواْ الرحيلَ..

ودَّعتهمْ عالية على وعدٍ بالتواصلِ الدائمِ بعدَ أنْ حثَّها خالُها على الاهتمامِ بدراستِها قائلًا بلطفٍ:

_ لا تدعي هذا الحادثَ العارضَ يقفُ في طريقِ نجاحِكِ وتفوقِكِ، فلنْ نتنازلَ عنْ طبيبةٍ ماهرةٍ مستقبليةٍ مثلِكِ في عائلتِنا.

فابتسمتْ موافقةً ،وطرقتِ الأرضَ بنظرِها خجلًا منْ إطرائِهِ الضمنيِّ ولمْ تعلِّقْ.

انصرفواْ ،وجلستْ عالية على طرفِ فراشِ أمِّها ،ثمَّ قالتْ:

_ لماذا يا أُمي ؟!! لماذَا تُخفينَ آلامَكِ عنْ أقربِ الناسِ إليْك؟!! لقدْ رأيتُ في عينِ خالي عطفًا وحنانًا تجاهَكِ لمْ أرَهُ طوالَ حياتي في عينِ أبي ، فلماذَا لا

تستعينينَ به في حلِّ مشاكلِكِ ؟! لماذَا تتعمدينَ إقصاءَ الجميعِ عنَّا ؟!! لماذَا أنتِ مصممةٌ على إبقائِنا نُعاني الوحدةَ وقلةَ الحيلةِ ؟!!

صمتتْ فريدةُ ،لا تجدُ ما يمكنُها قولُهُ. وحينَها شعرتْ أنَّ عالية كبرتْ، ووعتْ، ولمْ تعدْ تتقبَّلُ الحججَ الواهيةَ التي كانتْ تبثُّها في عقلِها سابقًا، فلنْ يقنعْها الآنَ سوى الحقيقةِ، تلكَ الحقيقةُ التي تساوي عمرَ فريدةَ ومستقبلَ عالية مجتمعيْنِ.

***

عادتْ عالية إلى البيتِ بعدَ تلقِّيها حصةَ الكيمياءِ على يدِ الأستاذِ علاءَ، وقدْ كانتْ متعجلةً تغلبُها الحماسةُ، فقدْ أعدَّتْ نفسَها لموعدِ آخرَ مع أخيها الذي لا تعرفُ له اسمًا حتَّى الآنَ، ولكنَّها اليومَ ستمنحُهُ واحدًا، وستعرفُ أشياءَ أخرى ستمنحُها دعمًا نفسيًّا وقدرةً على تقبلِ واقعِها المؤلمِ..

ولكنْ عندمَا فتحتِ البابَ وجدتْ أباهَا قدْ عادَ، لمْ تكنْ تتوقعُ تلكَ المفاجأةَ، فقدْ ظنَّتْ أنَّهُ لنْ يعودَ بعدَ مواجهتِها لهُ وهجومِها الحادِّ الذي قذفتْهُ به دونَ رأفةٍ ، ولكنَّهُ عادَ.

تعلقتْ عيناها به للحظاتٍ فبادلَها النظراتِ ،ولكنَّها عجزتْ عنِ استنباطِ ما تحملُهُ نظراتُهُ منْ معانٍ، فتداركتِ الموقفَ سريعًا وجذبتْ مِفتاحَها منَ البابِ في وجلٍ ،ثمَّ دلفتْ إلى غرفتِها منْ فورِها دونَ أنْ تلقيَ السلامَ.

أغلقتِ البابَ خلفَها في هدوءٍ محاولةً تجنُّبَ إثارةِ حفيظتِهِ ،ثمّ جلستْ على طرفِ فراشِها ،وصدرُها يعلو ويهبطُ انفعالًا وضجرًا.

استبدلتْ ثيابَها ،ثمَّ فتحتْ بابَ حصنِها متوجهةً صوبَ الحمّامِ.. فتابعَها أبوها بنظراتِهِ التي تحملُ معانٍ لمْ تتبينْ مغزاها حتَّى الآن، ولكنَّها تجاهلتْها ،وعندَ عودتها استوقفَها قائلًا:

_ هلْ تناولتِ غداءَكِ يا عالية ؟

اندهشتْ كثيرًا لسؤالِهِ، فهيَ لمْ تكنْ تتوقعُ أنْ يعنيَهُ كثيرًا إنْ كانتْ تناولتْ غذاءَهَا أمْ أنّها تتضورُ جوعًا، حتّى أنَّها ظنتهُ يتمنى أنْ تُمحى منْ على ظهرِ البسيطةِ بعدَ هجومِها الحادِّ عليهِ بالأمسِ، وتحطيمِها لحاجزِ الاحترامِ الواجبِ توافرِهِ بينَ أيّةِ فتاةٍ وأبيها..

فأجابتْهُ في وجلٍ متحاشيةً النظرَ في عينيْهِ بعدَ أنِ استمهلتْ في خطواتِها قائلةً:

_ نعمْ.لقدْ تناولتُهُ قُبيلَ الدرسِ، أتريدُ منِّي أنْ أعدَّ لك شيئًا لتناولِهِ؟

_ لا.. شكرًا.

وعلى إثرِ تلكَ العباراتِ المقتضبةِ عادتْ عالية إلى غرفتِها تتنفسُ الصعداءَ، لمْ تكنْ تتوقعُ تلكَ اللفتةَ الطيبةَ منَ الاهتمامِ ،ولكنَّها بالطبعِ لمْ تمنعْها منَ الشعورِ بالضيقِ والضجرِ ، فقدْ كانتْ تُمنِّي نفسَها بالمزيدِ منَ الحديثِ الشيقِ مع رفيقِها،ولكنَّ فرصتَها زالتْ بتواجدِ أبيها في البيتِ وارتفاعِ صوتِ التلفازِ ،

وتنفيذًا لأوامرِ والدتِها قضتْ ليلتَها في استذكارِ دروسِها ،والاستعدادِ ليومِ غدٍ،وهوَ موعدُ العمليةِ الجراحيةِ الثانيةِ لأُمِّها..

وما أنِ انتهتْ حتّى صلَّتِ العشاءَ ،ودعتْ ربَّها أنْ يمنَّ بشفائهِ على أمِّها المسكينةِ، وأنْ تخرجَ منْ غرفةِ العملياتِ غدًا سالمةً معافةً..

***

_ ساعديني يا عالية في تدثيرِ أمكِ جيِّدًا، فعندَ الإفاقةِ منَ المخدرِ ستشعرُ بالبرودةِ..

قالتْهَا أنيسةُ أثناءَ محاولتِها لجلبِ التدفئةِ اللازمةِ لفريدةَ عقبَ خروجِها منْ غرفةِ العملياتِ ،والتي لمْ تكنْ قدِ استعادتْ كاملَ وعيِهَا بعدُ، ولكنَّ ذلكَ لم يمنعْها منْ إصدارِ أناتِ ألمٍ جاءتْ بصورةٍ متقطعةٍ أربكتْ عالية ،وأشعرتْها بأنَّ هناكَ خطبًا ما غيرَ صحيحٍ مما دفعَها لمصارحةِ عمتِها بقلقِهَا قائلةً:

_ ولكنْ لماذَا تتألمُ يا عمتي هكذَا ؟ لماذَا لم يعطوهَا عقارًا ما يساعدُها علَى تخطِّي الألمِ ؟!

طمأنتْهَا أنيسةُ قائلةً:

_ لا تقلقِي يا عزيزتِي؛ بالتأكيدِ سيقومونَ بما يلزمُ.

وفي تلكَ اللحظةِ أتَى الطبيبُ الذي أجرى العمليةَ ،وقالَ بوجهٍ بشوشٍ:

_ حمدًا للهِ على سلامةِ السيدةِ فريدةَ..أنتمْ لا تعْلمونَ كمْ أجهدتْنا العمليةُ؛ ليعودَ ذراعُها إلى حالتِها الطبيعةِ.

دفعَ حديثُهُ عالية إلى سؤالِهِ ،وقدَ لاحَ شبحُ ابتسامةِ رضا على ثغرِها:

_ أفهمُ منْ ذلكَ أنَّ أمي لنْ تُعانيَ منْ نسبةِ عجزٍ كما كنتمْ تعتقدونَ ؟

_ لنْ أستطيعَ الجزمَ بأنَّها ستعودُ إلى حالتِها الطبيعيةِ بنسبةِ مائةٍ بالمائةِ الآنَ، ولكنْ لا تنزعجِي؛ فالعلاجُ الطبيعي الذي ستخضعُ لهُ بعدَ فكِّ الجبيرةِ سيجعلُها تتجاوزُ نسبةَ العجزِ الضئيلةِ المتبقيةِ بسلامٍ.

قطبتْ عالية جبينَها في استياءٍ فلاحقَها الطبيبُ مازحًا.

_ يا بُنيَّتي! أيَّةُ حالةٍ كحالةِ والدتِك كانتْ لا بُدَّ وأن تخضعَ للعلاجِ الطبيعِّي ؛لتعودَ كما كانتْ سابقًا،فلا تستائِي هكذَا، سيتطلبُ الأمرُ بعضَ الوقتِ ،ولكنَّهُ سُرعانَ ما سيمرُّ علَى خيرٍ، ونحنُ الآنَ أفضلُ كثيرًا منْ ذي قبلِ.

أومأتْ عالية برأسِها كنايةً عنِ الرِّضَا ،ثمَّ قالتْ:

_ الحمدُ للهِ.

***

عادتْ عالية إلى البيتِ بعدَ أنِ اطمأنتْ على والدتِها، وسمحَ لها الأطباءُ بتناولِ غدائِها، وقدْ كانتِ الشمسُ قدْ مالتْ إلى الغروبِ ،واصطبغتِ السماءُ بلونِ الشفقِ، ولكنَّ الغسقَ لمْ يكنْ قدْ عمَّ بعدُ.

لمْ يكنْ أبوها قدْ عادَ فوجدتْ أنَّها فرصةٌ مناسبةٌ لاستدعاءِ رفيقها. ولكنَّها تمهلتْ قبيلَ خلعِها لثيابِها ،وتساءلتْ متحيرةً:

_ هلْ يجوزُ لهُ رؤيةُ شعري ؟!!

ففي المرةِ السابقةِ كانَ الأمرُ مباغتًا، ولم تكنْ عالية تعوِّلُ كثيرًا علَى أنَّهُ حقيقةٌ ملموسةٌ، فلمْ تكترِثُ كثيرًا لهيئتِها، أمَّا اليوم فهيَ تعلمُ جيِّدًا أنها متى استدعتْهُ سيحضرُ.

عمَّ الظلامُ ، واستدعتْ عالية رفيقَها بكاملِ ثيابِها بعدَ أن رأتْ أنَّ منَ الأفضلِ الالتزام بالحيطةِ والحذرِ.

أتى القادمُ في تلكَ المرةِ كما في المرةِ السابقةِ خارِجًا منَ الضياءِ قائلًا بثغرِه الباسمِ:

_ كيفَ حالُكَ يا عالية اليومَ ؟!

هزَّتْ كتفيْها في مرحٍ يشوبهُ التوترُ، وقالتْ:

_ أفضلُ كثيرًا اليومَ.. أمي في سبيلِها إلى الشفاءِ..الطبيبُ طمأنَني..

_ مباركٌ لَها الشفاءُ.. ولكنَّكِ لماذَا تتسربلينَ بتلكَ الثيابِ منْ رأسِكِ إلى إخمصِ قدمِكِ ؟!!

_ هذا أمرٌ أثارَ حيرتي كثيرًا قبلَ أن أستدعيَك.. فاسمحْ لي بطرحِ تساؤلٍ يدورُ برأسِي..

قاطعَها قائلًا:

_ أعلمُهُ ، وأعلُم كمْ يحيرُكِ ويعكِّرُ صفوَكِ ، وسأجيبُكِ عنهُ ببساطةٍ.

صمتَ قليلًا ،ثمَّ تابعَ عاقدًا أصابعَهُ متسائلًا:

_ نحنُ يا عالية لا نتبعُ ذاتَ جنسِكمْ، باستطاعتِنا أن نراكُمْ كلَّما أردْنا ، أثناءَ يقظتِكمْ، وإبَّانَ نومِكمْ، وأنتمْ لا تشعرونَ ، ولا ننظرُ لأجسادِكمْ، فلا تعنينَا كثيرًا، وإنَّما إلى قلوبِكمْ، وأرواحِكمْ بنقائِها وأثقالِها ، والآن.. هلْ أُطفأتْ نيرانُ حيرتِكِ ؟!!

ابتسمتْ عالية بعدَ أنْ تنفستِ الصعداءَ ؛فقدْ كانَ أمرُ رؤيتِهِ لها متَى أرادَ خفية يؤرِّقُها كثيرًا، ولكنَّها الآنَ تفهمتْ أنَّ الأمورَ الإنسانيةَ لا تمثلُ لجنسهِ شيئًا، فدلفتْ الأريحيةُ إلى قلبِها البريءِ.

أزالتْ عالية الحجابَ عنْ رأسِها الصغيرِ، واعتدلتْ في جِلستَها ؛لتنلِ المزيدَ منَ الراحةِ والاسترخاءِ ،ثمَّ قالتْ:

_ أتعلمُ ؟! لقدْ عادَ أبي إلى البيتِ أمسِ وحدَّثني بلطفٍ ،وهذا لم أكنْ أتوقعُهُ منْ جانبِهِ، فلقدْ قسوتُ عليْهِ كثيرًا حتَّى إنَّني كنتُ أظنهُ لن يسامحَني أبدَ الدهرِ ،لا أعلمُ منْ أينَ أتيتُ بتلكَ القسوةِ والحدَّةِ التي عاملتُهُ بها، ولنْ أخفيك سرًّا، لقدْ آلمني ضميري كثيرًا،وشعرتُ بندمٍ عظيمٍ عندمَا تركَ البيتَ وذهبَ، فأنَا خيرُ عليمٍ بأنْ لا مكانَ باستطاعتِهِ استقبالِهِ، بالتأكيدِ قضى ليلتَهُ في أحدِ المساجدِ.

_ أنا سعيدٌ يا عالية بشعورِكِ هذا ؛ فكلُّ البشرِ مذنبونَ،وخيرُهمُ النادمونَ.

فقالتْ مازِحةً:

_ جيِّدٌ، طمأنْتِني ؛فأنا لم أفقدْ إنسانيَتي بعدُ ؛لأتحولَ إلى مصاصِ دماءٍ.

فابتسمَ بدوْرِهِ قائلًا:

_ أمامَك الكثيرُ لتعيشِهِ، ولكنَّ أهمَّ ما أنصحُكِ بِهِ هوَ التمسكُ بإنسانيتِك ؛فهيَ أنفسُ ما تملكينَ.

_ لقدْ آلمني أبي كثيرًا، وتسبَّبَ في الأذى العظيمِ الذي ألحقَهُ بأمي، ولكنَّني ما زلتُ محتفظةً باحترامِهِ، وأشدُّ ما أحزنِني أنَّني بمواجهَتِي أحدثتُ زلزالًا بقاعدةِ هذا البناءِ الشامِخِ ، كنتُ أتمنَّى لوْ كانَ بإمكاني الذهابُ إليهِ والاعتذارُ منهُ، ولكنْ لطالَما كانَ هناكَ حاجزٌ يحول بيني وبينهُ ،أنا لا أتذكرُ أنهُ يومًا احتضنَني أو قبَّلَني، وكأنَّهُ غريبٌ عنِّي وليسَ أبي، لا أعرفُ لِمَا أحيانًا كنتُ أرى نظراتِ الحبِّ والعطفِ في عينيْهِ، وأحيانًا أُخرى كنتُ لا أرى سِوى الغضبِ والحنقِ دونَ سببٍ واضحٍ؛ لذَا التزمتُ الابتعادَ عنهُ قدرَ الإمكانِ ، وانفصلتُ عنهُ أنا أيضًا كمَا انفصلتْ أمِّي سابقًا، فمَا عادَ يربطُني بِهِ سِوى اسمِه الذي يتبعُ اسمِي، كما ما عادَ يربطُ أمي بِهِ سوى قسيمةِ زواجٍ باليةٍ تطالعُهَا منْ وقتٍ لآخرَ دامعةَ العينيْنِ، ولكنَّ حالَها أفضلُ منْ حالي؛ فهيَ احتفظتْ بذكرياتٍ سعيدةٍ بصحبتِهِ قبلَ أنْ يمزِّقَ رباطَ حبِّهِمَا، أمَّا أنا فلمْ تحتفظُ ذاكرتِي بذكرى سعيدةٍ واحدةٍ تجمعُنا.

صمتتْ عالية لبرهةٍ ،ثمَّ تابعتْ وعلى ثغرِها ابتسامةٌ تحملُ الكثيرَ منَ المرارةِ والأسى:

_ أتعلمُ ؟!! كثيرًا ما تمنيتُ لوْ أنهُ بعيدٌ عنْ حياتِنا ، لوْ أنَّ أمي انفصلتْ عنهُ فعالية وتركتْهُ يذهبُ إلى حالِ سبيلِهِ ،فما النفعُ العائدُ على كليْنَا منْ تواجدِهِ في حياتِنَا ، ولكنَّني سُرعان ما أشعرُ بالذنبِ، وأُناجي نفسِي بأنْ يجبَ عليَّ ألا أقسوَ عليهِ هكذَا ،فأنا لا أعلمُ أيَّةَ حياةٍ عاشَها، وأيّةَ معاناةٍ كابدَها أوصلتْهُ لطبيعتِهِ القاسيةِ تلكَ.. ولكنْ، وسطَ كلِّ هذا الصراعِ الدائرِ داخلَ حنايا نفسِي هوَ لم يبادرْ بخطوةٍ واحدةٍ لتبديدِهِ ،لم يسعَ لاحتضانِي وكأَنَّني لا أعنِي لهُ شيئًا.،حتَّى أنَّني شككتُ في كونِهِ حقًا أبي.

_ أتفهَّمُ شعورِكِ جيدًا ،ولكنْ حاولِي أنْ تلتمسي لهُ عذرًا؛ فـأنتِ لا تعلمينَ بما يختلجُ في نفسِهِ ، ولكنْ ما أنا عليمٌ بهِ ، ولا تساورُني في أمرِهِ الظنونُ هوَ كونِهِ يحبُّكِ عنْ حقٍّ.

_ صدقني كثيرًا ما أحدثُ نفسي بذلكَ ، ولكنَّهُ لمْ يعطِني إشارةً واحدةً دالةً على حبِّهِ لِي، أوْ حتَّى اهتمامِهِ ، إنَّما جمُّ ما أشعرُ به هوَ سعيُهُ الدائمُ لتقييدِ حريتي، ومحاولاتِهِ الدائمةِ لتضييقِ الخناقِ على عنقِي، ولا أعرفُ لَمَا كلُّ هذا التعقيدِ ؟!! ألزمَني برتداءِ خمارِ الرأسِ منذُ كنتُ في الابتدائيةِ، فأضحيتُ أضحوكةً لقريناتي في المدرسةِ ، طفلةٌ ترتدي خمارًا ، وفي ذلكَ التوقيتِ لمْ تكنْ ظاهرةُ ارتداءِ الحجابِ قدِ انتشرتْ بعدُ ، فلمْ تكنْ أحاديثُ الداعيةِ عمرو خالد ترددتْ أصداؤُها كثيرًا، فكانتْ طلَّتِي وسطَ الفتياتِ تثيرُ التعجبَ ، ومنْ ثمَّ التساؤلَ ؛لينظرَ ليَ الجميعُ بسْتهجانٍ ، أتكونُ طفلةٌ في عمرِ البراعمِ

متسربلةً بردائِها منْ هامتِها إلى إخمصِ قدمِها هكذَا ؟! ولماذَا؟! أيُّ عيبٍ تسترُه؟!

_ اعتدتُّ نظراتِ الفضولِ منَ الجميعِ ،بدايةً منْ صديقاتِي اللاتِي قدْ تقدمُ إحداهنَّ على التساؤلِ فلا أملكُ لها جوابًا حتَّى أساتذتِي في المدرسةِ.

_ حُرمتُ منَ الانضمامِ إلى أيِّ نشاطٍ اجتماعيٍّ في مدرستي، فلمْ أذكرْ يومًا أنهُ وافقَ على التحاقي برحلةٍ مدرسيةٍ، ولذلكَ كتبَ عليَّ الانطواءَ والعزلةَ رغمًا عنِّي، فكنتُ فقط محطَّ فضولِ الآخرينَ لا صداقتَهِمْ أوْ ودَّهُمْ. فقضيتُ أعوامي الدراسيةَ وحيدةً دونَ أصدقاءٍ إلى أنْ رزقني اللهُ صداقةَ حسناءَ وأنا في المرحلةِ الإعداديةِ، لكنْ بالطبعِ ليسْ مسموحٌ لي بالاستفاضةِ في الحديثِ معَها عنْ حياتي الخاصةِ.

_ وبالطبعِ لمْ يكنْ مسموحًا لي بالاعتراضِ أو التذمُّرِ وكأَنَّني دميةٌ ترسِمُ لها سُبلَها بلا أدنى حدٍّ لمراعاةِ واقعِها الطفوليِّ، فهلْ تتخيلُ قدرَ معاناتي وهشاشتي النفسيةِ الناتجةِ عنْ حياةٍ مثل التِي كابدتُّها؟!.

أنهتْ عالية جملتَها وقدْ ترقرقتِ العبراتُ في عينيْها ،ثمَّ ما لبثتْ أنِ انهمرتْ كشلالٍ جارفٍ؛ لتحجب عنها الرؤيةَ سامحةً لها بالغوصِ في بئرِ ماضيها القريبِ الحافِلِ بالآلام.

وفي تلكَ اللحظاتِ كانَ رفيقُها يطالعُها بمزيجٍ منَ الشفقةِ والعطفِ، ولكنَّهُ تجنَّبَ مقاطعتَهَا، فقدْ كانتْ بحاجةٍ إلى أنْ تغسلَ روْحَها؛ لتطهرَ منَ الأحقادِ

التي ضمرتْها طوالَ السنواتِ الماضيةِ لأبيها كنتيجةٍ لسوءِ معاملتِهِ ؛ فلقدْ كانَ خيرَ عليمٍ بكونِ عالية لمْ تصارِحْ أحدًا بما يعتملُ في نفسِها طوالَ حياتِها حتَّى والدتِها ، فما كانتْ تجسرُ بالبوْحِ أمامَها بضيقِهَا منْ حياتِها وضجرِها منْ أبيها إلى هذا الحدِّ ؛ ولذلكَ فهيَ فرصتُها الأولى، و ربَّما تكونُ الأخيرةَ.

***

حمدًا لله على سلامتِكِ يا أمي، أنتِ لا تعلمينَ كيفَ كانتْ حياتي بدونِكِ.

قالتْها عالية أثناءَ إقدامِها على تقديمِ يدِ المساعدةِ لأمِّها لتمنحَها المزيدَ منَ الاسترخاءِ فوقَ فراشِها عقبَ عودتِها منَ المشفى، وقدْ ترقرقتِ العبراتُ في مقلتيْها تأثُّرًا.

طالعتْها فريدةُ بمزيجٍ منَ الحبِّ والحنانِ، وتلمَّستْ بيدِها اليُسْرَى وجهَها في عطفٍ قائلةً:

_ أعلمُ يا عزيزتي أعلمُ ، ولكنِّي أعدُكِ أنِّي لنْ أتركَكِ مرةً أُخرى وحيدةً ما حييتُ.

ابتسمتْ عالية ،وقبَّلتْ يدَ أمها بمزيجٍ منَ الحبِّ والامتنانِ لعودتِها إليْها سالمةً ، فتدخلتْ أنيسةُ في الحديثِ لتقاطعَها قائلةً في مرحٍ:

_ اتركي أمَّكِ يا عالية لتستريحَ قليلًا في فراشِها، فمؤكدٌ قدِ اشتاقتْ إليهِ كثيرًا، وأعدِّي نفسَك للذهابِ إلى الدرسِ ، فالساعةُ قدْ شارفتْ على الخامسةِ.

ـ ولكنَّني لنْ أذهبَ اليومَ؛ فأنَا مشتاقةٌ للحديثِ معَ أمي كثيرًا.

ربتتْ فريدةُ بيدِها اليُسرى على يدِ عالية وقالتْ:

ـ اذهبي يا عزيزتي لدرسِكِ، فمَا بقيَ سِوى أيامٍ معدوداتٍ على امتحاناتِكِ، ولنْ نضيعَ تعبَ السنواتِ الماضيةِ هباءً، ولا تقلقي عندمَا تعودينَ سنتحدثُ كثيرًا ونتسامرُ كثيرًا، فما عدتُّ منشغلةً بشيْءٍ سِواكِ، وسأهتمُّ بكِ وبدراستِكِ حتَّى انقضاءِ الامتحاناتِ،فقدْ جاءَ ذلكَ الحادثُ في مصلحتِنا لأُوليكِ ما تحتاجينَهُ منِ اهتمامٍ ورعايةٍ ،وبالطبعِ لنْ يلومَني أحدٌ لا مديرُ المدرسةِ ولا أولياءُ أمورِ الطلابِ.

ابتسمتْ عالية ،وأومأتْ برأسِها موافقةً في استسلامٍ للأوامرِ التي داومتْ على طاعتِها ،قبَّلتْ رأسَ والدتِها وحيَّتْ عمتَها، وتوجَّهتْ صوبَ غرفتِها؛ لتعدَّ نفسَها إلى الخروجِ.

تابعتْها نظراتُ فريدةَ وأنيسةَ حتَّى انصرفتْ ،ثمَّ توجهتْ أنيسةُ بالحديثِ إلى فريدةَ قائلةً:

ـ باركَ اللهُ لكِ فيها ، فهيَ نعمَ الفتاةُ، وقدْ كانَ القلقُ يقتلُها عليْكِ طوالَ أيامِ مرضِكِ.

تنهدتْ فريدةُ، وقالتْ في شرودٍ، وعينَاها تطالعانِ الفراغَ:

_ أعلمُ فليسَ لها أنيسٌ سِوايَ ، لقدْ حرمتُها منَ الأخوةِ منْ أجلِ العملِ، وانظري كيفَ انتهى بيَ الحالُ ؟! لا أعلمُ إنْ كنتُ سأستطيعُ مزاولةَ عمِلي بعدَ اليومِ أمْ أنَّني فقدتُّ قدرتِي إلى الأبدِ.

ربتتْ أنيسةُ علَى كتفِ فريدةَ ،وقالتْ في رفقٍ لتشدَّ منْ أزرِهَا:

_ لَمَا تقولينَ ذلكَ؟! الطبيبُ أكَّدَ تحسنَ حالِ ذراعِكِ وعودتِه إلى حالتِهِ الطبيعيةِ بممارسةِ العلاجِ الطبيعيِّ بعدَ فكِّ الجبيرةِ ،ستكونينَ بخيرٍ يا عزيزتي " تفاءلواْ بالخيرِ تجدوهُ".

زفرتْ فريدةُ، وهزَّتٍ رأسَها في أسى، ثمَّ قالتْ بمرارةٍ تقطرتْ منْ صوتِها:

_ لا أعلمُ لَمَا أشعرُ أنَّ الغدَ يحملُ لي ما لا أُطيقُهُ.

ثمَّ ابتسمتْ مبددةً أجواءَ الأسى التي خيَّمتْ فوقَها ،وقالتْ رانيةً إلى أنيسةَ في امتنانٍ:

_ ولكنَّني حقًّا لا أعرفُ كيفَ أشكركِ على وقوفِكِ بجانبِي طوالَ الفترةِ الماضيةِ ، فلوْ أنْ أختِي في مصرَ ما كانتْ فعلتْ ما فعلتِ.

_ ماذا تقولينَ يا فريدةُ ! نحنُ أقربُ منَ الأخوةِ.

ثمَّ استطردتْ ضاحكةً ،وقالتْ ساعيةً لإعادةِ الابتسامِ إلى ثغرِ فريدةَ:

_ أنسيتِ منْ كانتْ كاتمةَ أسرارِكِ وأسرارِ محمودَ أيامَ الهوى والوَلهِ؟!!

فابتسمتْ فريدةُ رغمًا عنْ سخريتِها منَ الماضي الذي كانَ في حينِها سعيدًا، وباتَ اليومَ أليمًا ،ثمَّ قالتْ في وجومٍ مقتضبةً:

_ لا لمْ أنسَ.

_ سأتركُكِ الآن لتنالي قسطًا منَ الراحةِ وأعودُ إلى البيتِ لأُعدَّ لكمُ الغداءَ.

قالتْها أنيسةُ وهمَّتْ بالوقوفِ استعدادًا للذهابِ، فاستمهلتْها فريدةُ قائلةً:

_ أرجوكِ لا تزعجي نفسَكِ أكثرَ منْ ذلكَ، يكفيكِ ما عانيتِهِ في الأيامِ الماضيةِ.

فاستدارتْ أنيسةُ ،ورمتْ فريدةُ بنظرةٍ لائمةً ،ثمَّ قالتْ:

_ ألمْ تقولي إنَّنَا أقربُ منَ الأخوةِ ؟!

***

وما إنْ وصلتْ عالية إلى منزلِ حسناءَ الذي سيشهدُ حصةَ الكيمياءِ خلالَ الساعتيْنِ القادمتيْنِ حتَّى تسألَ زملاءَها وزميلاتِها عنْ حالِ معلمتِهم فريدةَ في قلقٍ حقيقيٍّ، فهيَ لم تكنْ لهمْ يومًا معلمةٌ فقطْ بلْ كانواْ يُكِنُّونَ لها الكثيرَ منَ الاحترامِ والتبجيلِ المشوبيْنِ بالحبِّ.

طمأنتْهمْ عالية على حالِ أمِّها وأعلمتْهم بخروجِها منَ المشفى اليومَ وعودتها إلى البيتِ، فهللواْ فرحًا وباركواْ لَهَا عودةَ أمِّها سالمةً ، وعلى إثرِ صوتِهمُ المرتفعِ بالابتهاجِ والفرحِ أتتْ والدةُ حسناءَ ،وعلمتْ بأمرِ تعافي فريدةَ ، فهنأتْ عالية وأبلغتْها سلامَها لأمِّها إلى أنْ تتصلَ بها ؛لتهنئَها على عودتِها سالمةً.

وما هيَ إلا لحظاتٌ منَ البشرِ والابتهاجِ حتَّى أتى الأستاذُ علاء المكلفُ منْ قبلِ فريدةَ بتولِّي أمر طلابِها ،فعلمَ هوَ الآخرُ الخبرَ فهنأَ عالية وقدِ اعتلى وجهَهُ الابتسامُ.

أنهتْ عالية درسَها الذي استمرَّ قرابةَ الساعتيْنِ ،يعلو مُحياها البِشرُ والابتهاجُ تُمنِّي نفسَها بأيامٍ سعيدةٍ في أحضانِ أمِّها التي كثيرًا ما حُرِمتْ منْها، ولكنَّ القدرَ كانَ قدْ خبأَ لها ما لم تتوقعْهُ.

***

عادَ محمودُ إلى البيتِ قُبيلَ السابعةِ،وكانتِ الشمسُ قدْ مالتْ إلى الغروبِ فاصطبغتِ السماءُ بلونِ الشفقِ، ولكنَّ الظلامَ لمْ يكنْ قدْ خيَّمَ بعدُ.

دلفَ في هدوءٍ دونَ اكتراثٍ لإشاعةِ الضوءِ في الصالةِ ،معتمدًا على بقايا ضوءِ الغروبِ القادمِ منْ شُرفةِ غرفةِ عالية الفارغةِ منْها..

وقدْ كانَ البيتُ يشملهُ سكونٌ عميقٌ ينمُّ عنْ فراغِهِ منْ قاطنِيهِ. خلعَ نعلَهُ وارتمى فوقَ أريكتِه للحظاتٍ مانحًا جسدَهُ قسطًا ضئيلًا منَ الراحةِ، ثمَّ ما لبثَ أنْ نهضَ متوجهًا صوبَ الحمامِ. أخذَ حمامًا باردًا أزالَ به آثارَ الأتربةِ التي أهدتْها لهُ رياحُ الخماسين في يومٍ منْ أيامِ الربيعِ الحافلةِ بالرياحِ المحملةِ بالأتربةِ بجانبِ الأجواءِ الخانقةِ.

ومَا إنْ أنهى حمَّامهُ حتَّى طالعَ وجهَهُ في المرآةِ فوجدَ الشيْبَ قدْ أتمَّ مهمتَهُ بنجاحٍ ساحقٍ محتلًا جمَّ مملكتِهِ.. شعرُه الذي كانَ قديمًا كستنائيًّا لامعاً يختالُ

بِهِ،ولكنْ واحسرتاهُ!! فما تبقَّى منْ آثارِ البارحةِ شيءٌ، لقدْ ولَّى زمانُهُ حاملًا كلَّ المميزاتِ والعيوبِ، فما تبقَّى منهُ سِوى صورةٍ ضبابيةٍ لإنسانٍ كانَ يحيا قديمًا، ولكنَّهُ اليومَ أمسى ظلًّا لا يحملُ روحًا، فاقدًا الرغبةَ في استعادةِ ما كانَ، وحتَّى إنْ أرادَ، فلنْ يظفرَ بشيْءٍ، فالزمنُ لا يمنحُ الفرصةَ مرتينِ،فإنْ مرَّ العمرُ دونَ أنْ تسجلَ اسمَكَ على جدرانِ الحياةِ فاعلمْ أنَّ الغدَ لنْ يعدُكَ سِوى بالمزيدِ منَ التجاهلِ.

"لمْ يبقَ أمامكَ سِوى انتظارِ الموتِ"..

هكذا ناجى نفسَهُ أمامَ مرآتِهِ يائِسًا بائسًا، لا ينتظرُ منَ الحياةِ سِوى أنْ تمنحَهُ نهايةً كريمةً..

دلفَ إلى غرفةِ النومِ التي لا تمدُّه بهَا أيّة صلةٍ سِوى أنَّها تحوي ثيابَهُ.

أضاءَ المصباحَ وهنا وقعتْ عينُهُ على الفراشِ فوجدَ جسدَ فريدةَ ملقًى فوقَهُ في استسلامٍ..

صارتْ في جسدِهِ قشعريرةٌ، وماجتْ بينَ جوارِحِهِ عواطفُ مختلطةٌ فامتزجَ الاشتياقُ بالحبِّ والحنانِ ليغلِفواْ قلبَهُ الذي اكتشفَ لتوِّهِ كونِه ما زالَ محتفِظًا بعواطفِهِ حبيسةِ صدرِهِ ،حتَّى وإنْ أغفلَها عقلُهُ وعقلَها لسانُه، وللحظاتٍ تناسى خلافاتِهِمَا. هرعَ نحوَها متلهفًا فرحًا بعودتِها التي جاءتْ دونَ علمٍ منْ جانِبِهِ.

جلسَ بجوارِها على طرفِ الفراشِ محملقًا إلى ذراعِها التي أحاطتْها الجبيرةُ نادِمًا على ما اقترفتْهُ يداهُ ،فترقرقتْ في عينِهِ عبراتُ الندمِ ؛لتمتزجَ بعبراتِ الفرحِ والبِشرِ لعودتِها ،ثمَّ وقعتْ عينُهُ على أناملِها التي لمْ تشملْها الجبيرةُ بقسوتِها ؛لتظلَّ غضةً رقيقةً كعهدِهِ بهَا، تنبضُ بالحياةِ.

لمْ يستطعْ أن يمنعَ نفسَهُ من أن يتلمَّسَ أناملَها بأناملِهِ بلطفٍ مستشعرًا دفءَ جسدِها الذي حُرمَ منهُ منذُ سنواتٍ عجافٍ.

شعرتْ فريدةُ بيدِهِ فظنَّتْهُ عالية قدْ عادتْ منْ درسِها، فتساءلتْ مغمضةً عينيْها ؛لتتحاشى الضوءَ مزدردةً ريقَها:

_ هلْ عدتِّ يا عالية !!

ابتلعَ محمودُ ريقَهُ ،ولا يعرفُ منْ أينَ يبدأُ ،ثمَّ قالَ:

_ أنا محمودُ يا فريدةُ.

جذبتْ يدَها لينتفضَ جسدُها فزعًا وكأنَّ حيَّةً قدْ تلمستْ أناملَها، فهبَّتْ جالسةً ،وقدْ تأجَّجَ غضبُها ،ثمَّ قالتْ ضاغطةً علَى نواجذِها، والشررُ يتطايرُ منْ عينيها:

_ منْ سمحَ لكَ أنْ تلمسَ يديَ التي أعجزتْها؟!!!

أُربكَ محمودُ كثيرًا، وجذبَ يديْهِ بعيدًا عنْها في خجلٍ ،ثمَّ قالَ بعدَ لحظاتٍ منْ مرواغةِ الكلماتِ للسانِهِ:

_ فريدةُ أرجوكِ سامحيني ؛ فأنَا لمْ أتعمدْ إلحاقَ كلِّ هذا الضررِ بكِ.

رمقتْهُ باشمئزازٍ ونفورٍ لا يَخفيانِ ،ثمَّ قالتْ بصوتٍ يحملُ في طياتِهِ الكثيرَ منَ الانفعالاتِ التي تعتملُ بينَ جوارحِها:

_ أسامحُك ؟!! على أيِّ شيْءٍ أسامحُك؟!! أتستطيعُ أنْ تعدِّدَ لي أخطاءَك التي تريدني أنْ أسامحَك عليْها ؟!

ثمَّ ضحكِتْ مستهزئةً، ورنتْ بعينيْها بعيدًا ، واستطردتْ بعدَ أنِ اغرورقتْ مقلتيْها بالعبراتِ:

_ وهلْ تتذكَّرُ حقًّا كمْ منْ مرةٍ أخطأتَ في حقِّي ؟!! كمْ منْ مرةٍ آلمتَني وكسرتَني ؟!! أتظنُّ أنَّ هذا الكسرَ هوَ الوحيدُ الذي سببْتَهُ لي ؟!!

حاوَّلَ الحديثَ، ولكنَّها قاطعتْهُ مشيرةً إلى ذراعِها المكسورِ قائلةً..

_ إنْ كنتَ تظنُّ أنَّ هذا الكسرَ فقطْ هوَ ما أُعانيهِ فأنتَ خاطئٌ.. لقدْ كسرتَ منْ قبلُ ما هوَ أهمُّ مِنْ ذراعِي..

***

ودَّعتْ عالية أصدقاءَهَا علَى وعدٍ بلقائِهنَّ غدًا في درسِ اللغةِ العربيةِ.

هبطتِ الدرَجَ على عجلٍ متأهبةً للعودةِ إلى أمِّها التي انتظرتْ تفرغَها لها طويلًا، وأخيرًا حانتِ الفرصةُ؛ لتنعمَ بها وحدَها دونَ أنْ يشاركَها أحدٌ.

***

قالتْ فريدةُ جملتَها الأخيرةَ، وانتصرتْ عليْها عبراتُها التي جاهدتْ لتجعلَها حبيسةَ أهدابِها ،ولكنَّهمْ تحرروا أخيرًا ليعلنوا وهنَها الذي لطالَما حاولتْ سترَه وراءَ تجهمِها وحدةِ لهجتِها..

رانَ الصمتُ للحظاتٍ بعدَ أن طرقتْ فريدةُ بعينيْها أرضًا؛ سعيًا لتمالكِ أعصابِها، والسيطرةِ على ضرباتِ قلبِها التي أخذتْ في التسارعِ حتى أوْشكتْ على سماعِها ،وفي تلكَ اللحظاتِ كانَ محمودُ يشملُ كيانَهُ السكونُ ، عاجزًا جسدُهُ عنِ الإتيانِ بفعلٍ ، عاقلًا لسانَهُ عنِ اللفظِ.

أكملتْ فريدةُ بعدَ أنْ هدأتْ عاصفةُ تنهيداتِها ،وجفَّتْ منابعُ أدمعِها قائلةً:

_ لقدْ كسرتَ كرامتي وكبريائي قديمًا ، كسرتَ قلبي ،كسرتَ روْحي ونفسِي،فهلْ نسيتَ كلَّ ذلكَ ؟!!نسيتَ مخططَكَ لإضعافي وإيقاعي في شباكِ الخطيئةِ لتنتصرَ، ويا ليْتكَ أتيتْ بملْءِ إرادتِكَ لتصلحَ خطأَكَ ،ولكنَّكَ ركنتَ إلى مذلَّتِي وإهانتي برفضِك إيَّايَ ورجائي لكَ كلَّ يومٍ؛ كيْ لا يُفضَحُ أمرِي.

_ فريدةُ أنتِ تعلمينَ أنَّ ما وقعْنَا فيهِ كانَ بدافعٍ منْ عشقِنَا.

_ عنْ أيِّ عشقٍ تتحدثُ ؟!! وأينَ ذهبَ حبُّك وعشقُكَ هذا عندما أتيتُكَ باكيةً راجيةً أنْ تتزوجَني قبلَ أنْ يُفضحَ أمرُ حملِي بطفلتِك ؟!! فهلْ تطايرَ في الهواءِ بعدَ أنْ نِلتَ مُبتغاكَ ؟!!

_ بالطبعِ لا. ولكنَّ ظروفي وقتَها ما كانتْ تسمحُ بإتمامِ الزواجِ، وأنتِ تعلمينَ كمْ كانتْ ظروفي صعبةً في ذلك الوقتِ.

***

وما إنِ انتهتْ عالية إلى الطرقاتِ حتَّى أسرعتِ الخُطى ؛فأذانُ المغربِ كانَ قدْ أُعلن نداؤُهُ، وما هيَ إلا لحظاتٌ وسيطبقُ الظلامُ قبضتَهُ على الموجوداتِ.. نعمْ أضواءُ مصابيحِ الحانوتِ لنْ تدعَهُ ينتصرُ، ولكنَّها بالطبعِ عاجزةٌ عنْ كساءِ الدُّنيَا برداءِ الأمانِ ،وعالية تعوَّدتْ أنْ تخشى الليلَ، فهوَ غالبًا ما يأتيهَا بما لا تتمنَّاهُ، وأيضًا هيَ في حاجةٍ إلى استثمارِ كلِّ لحظةٍ في أحضانِ أمِّها.

***

أجابتْ فريدةُ محمودَ في امتعاضٍ مؤكدةً بصوتٍ مجروحٍ، وكأنَّما تجترُّ ذاكراتِهَا:

_ حقًّا أعلمُ ،ولكنَّني يسرتُ لكَ كلَّ الأمورِ ،وزلَّلْتُ لكَ كلَّ العقباتِ ، هذا إنْ كانتْ هناكَ عقباتٌ عنْ حقٍّ. فحجتُكَ بعدمِ قدرتِكَ على توفيرِ منزلٍ مناسبٍ واهيةٌ، فمنزلُ عائلتي كانَ خاليًا منْ سِوايَ منذُ تزوجتْ أختي ،وهاجرتْ خارجَ مصرَ، وتزوجَ أخِي.

_ ولكنَّني بالطبعِ كنتُ أعلمُ سببَ رفضِكَ وافتعالِكَ لأزماتٍ ما لَهَا منْ وجودٍ، ولكنَّني دائمًا وأبدًا آثرتُ الصمتَ حتَّى لا أجرحَكَ وأُدمي قلبَكَ، ففي الوقتِ الذي كنتَ تنصبُ لي شباكَ المذلَّةِ والهوانِ، كنتُ أنَا أتجنَّبُ إثارةَ أحاديثَ قدْ تؤلمُكَ.

انتفضَ محمودُ منْ مجلسِهِ ،وهبَّ واقفًا ،ثمَّ قالَ بلهجةٍ خرجتْ حادَّةً بعدَ أنْ أثارتْ حفيظتَهُ ،وأخرجتِ العنيدَ الذي يسكنُ جوارحَهُ:

_ ولماذَا تُضمرينَ ما يؤلمُني في صدرِكِ يا فريدةُ ؟!! ائْتِ بما عندَكِ.

قابلتْ فريدةُ لهجتَهُ الحادةَ بنبرةٍ متحديةٍ مستعدةٍ للمبارزةِ القادمةِ التي دائمًا وأبدًا ما تنتصرُ فيهَا قائلةً:

_ إنْ كنتَ تريدُ المواجهةَ ونبشَ المستورِ بعدَ كلِّ تلكَ السنواتِ المنقضيةِ فمرحبًا بكَ.

***

ارتقتْ عالية الطوابقَ الثلاثَ مهرولةً ، أولجتِ المِفتاحَ في البابِ، ودلفتْ ،ولكنْ ما إنْ همَّتْ بإغلاقِ البابِ خلفَها حتَّى تطرَّقَ إلى أسماعِها صوتُ أمِّها قادمًا منْ غرفةِ النومِ ، فعلِمتْ حينها كونَها على خلافٍ معَ أحدٍ ما، وبالطبعِ هيَ ليستْ بحاجةٍ إلى الكثيرِ منَ الذكاءِ؛ لتتوقعَ أنَّ أباها هوَ الطرفُ المضادُّ في الخلافِ..

أغلقتِ البابَ في هدوءٍ متجنبةً إحداثَ جلبةٍ، وتقدمتْ بخُطى حثيثةٍ نحوَ الردهةِ عامدةً إلى استراقِ السمعِ.

***

استطردتْ فريدةُ بعدَ أنِ اعتدلتْ في جِلستِها:

_ لقد تَّعمَّدتَّ إذلالي وكسرَ أنفِي ؛ولذلِكَ رسمتَ مخططًا يحققُ لكَ أمانيكَ ،ونفذتَهُ ،وأنا لسذَاجتي وحبِّي لكَ وقعتُ في الفخِّ غافلةً ، عندَما تودَّدتَّ إليَّ

راسمًا على مُحياكَ الحبَّ والولهَ ،وقلبُك يبعدُهُ عنِ الحبِّ والعشقِ بحرٌ منَ الحقدِ والغلِّ اللذيْنِ ترعرعَا في تربةِ قلبِكَ الخصبةِ وسقيتَهُمَا لسنواتٍ.

_ لسنواتٍ داومتُ على تذكيرِ نفسِكَ برفضِي لكَ واختيارِي لاستكمالِ دراستِي علَى الزواجِ منكَ، واهمًا أَنَّني رغبتُ في التعالي والرفعةِ على شخصِكَ، ولمْ تفكرْ لوهةٍ أَنَّني أردتُّكما معًا، أردتُّ أنْ أحققَ حلمَ والدتي ووالدِي وأكملَ تعليمِي، وأيضًا أردتُّ الاحتفاظَ بكَ بذاتِ القدرِ؛ ولذلكَ عمدتُّ إلى رفضِ كلِّ منْ تقدَّمَ لِخطبتي حتَّى تخطيتُ العِقدَ الرابعِ منَ العمرِ في انتظارِ أنْ تنسى أوهامَكَ ،وتقدمَ على طلبِ الزواجِ منِّي، ولكنَّني كنتُ واهمةً؛ فأنتَ كنتَ تحيا في تيهِكَ الذي انتهى إلى تصويرِي لكَ في صورةِ فريسةٍ يجبُ عليْكَ أنْ تطبقَ شباكَكَ عليْها ؛لتحقِقَ انتقامَك، وواتتْكَ الفرصةُ على طبقٍ منْ ذهبٍ عندَما طلبتْ منِّي أنيسةُ إعطاءَ ابنتِها درسًا، وعدتُّ مرةً أُخرى للولوجِ إلى بيتِكم بعدَ سنواتٍ طوالٍ، وعادتْ علاقَتي الطيبةُ بأنيسةَ.

_ وحينَها بدا لكَ أنَّ الفريسةَ قدْ أوشكتْ على الوقوعِ في الفخِّ، فنصبتَ لي شباكَ الهوى والعشقِ حتَّى حقَّقتَ انتقامَك، وأخضعتَني لكَ بالمكرِ والحيلةِ ، وعندمَا أتيتُكَ باكيةً حينَ علِمْتُ بحملي في عالية لتتزوجَني رمتْني بنظرةٍ لنْ أنساها ما حييتُ.

_ نظرةُ تشفٍّ منْ منتصرٍ إلى غريمِهِ، نظرةُ منْ حقَّقَ انتقامَهُ وأشفى غليلَهُ.

قاطعَها محمودُ قائلًا بلهجةٍ تحملُ الكثيرَ منَ الدهشةِ:

_ ماذا تقولينَ يا فريدةُ ؟!! أنتِ مخطئٌ....

ولكنَّها لمْ تلبثْ أنْ قاطعتْهُ، ملوِّحةً بكلتَي راحتيْهَا في إشارةٍ تدعُو إلى الصمتِ ،قائلةً بنبرةٍ أخذتْ في التصاعدِ بعدَ أنْ هبَّتْ واقفةً؛ لتُعلِيَ منْ وتيرةِ التحدِّي راغبةً في الندِيَّةِ:

_ لا تقاطعْني أرجوكَ ! دعْني أخرجُ ما أُضمرُه في قلبِي منْ قهرٍ لسنواتٍ مضتْ.

فما وجدَ محمودُ بدًّا،فانتابَهُ الصمتُ وعمَّهُ السكونُ منتظرًا لأنْ تخرجَ فريدةُ ما في جوْفِها منْ أوجاعَ قدْ ضمرتْها روحُها، وكنَّتْها نفسُها ،وغفِلَ هوَ عنْها.

فأكملتْ بعدَ أنْ هدّأتْ حدتَها نوعًا ما، وعادتْ إلى السردِ في ألمٍ متحاشيةً النظرَ في عينيْهِ رانيةً نحوَ اللا شيْءَ:

_ وإجابتُكَ يومَها عكستْ ما في نفسِكَ منْ رغبةٍ في إذلالي وإهانتي وسحقِ كرامتِي وكبريائِي ،فلنْ أنسى عندَمَا أجبتَني بكلِّ هدوءٍ وأريحيةٍ قائلًا بصوتِ الواثقِ منْ موقفِهِ والغيرِ مكترثٍ للعواقبِ " ولكنَّني غيرُ مستعدٍّ للزواجِ الآنَ ".

_ كلماتُك تلكَ زلزلتْ كياني، وأدمتْ قلبي، وعلمتُ حينَها أنَّني مقبلةٌ على صراعاتٍ ستقطرُ كرامتي فيها دمًا،وأنَّكَ ما عدتَّ محمودُ الذي أحببْتُهُ وتمنيتُهُ طوالَ عمري، وتصورتُكَ في صورةِ مسخٍ دميمٍ أسرني ،ولنْ أنالَ حريَّتي منهُ ما حييتُ.

_ لشهورٍ رفضتَني، وكررْتَ رفضَكَ حتَّى بلغَ حمِلي الشهرَ الثالثَ، وما عادَ أمامي سِوى خياريْنِ ،إمَّا أنْ أقدِّمَ لك المزيدَ منَ التوسلِ والتضرعِ ؛لترحمَ ضعفي وقلةَ حيلتِي ،وإمَّا أنْ أُجهضَ طفلي خوفًا منَ الفضيحةِ، وأحيَى وحيدةً في غياهبِ الندمِ والألمِ لما فقدتُّه بما تبقَّى لي من عمرٍ..

_ وقدْ جئْتُكَ في تلكَ المرةِ وقلبي ينزِفُ دمًا، متضرعةً بكلِّ ما أُتيتُ من صبرٍ،وحينَها فقطْ شملنِي عطفُكَ وتنازلتَ وقبلتَ الزواجَ منِّي بعدَ أنِ استنزفتَ جمَّ ما كانَ يُكنُّهُ قلبي لكَ منْ عشقٍ وهوى، وأمسى الزواجُ بالنسبةِ لي لا يمثلُ سِوى صفقةٍ ربحتُ منْها ابنتي الوحيدةَ عالية، وفائدتُك في حياتي تمثلتْ في إنقاذِي منَ الفضيحةِ، وإعطائِي الفرصةِ الأخيرةِ ليكونَ لي طفلٌ أعيشُ لأجلِهِ.

وفي تلكَ اللحظةِ لمْ تكنْ عالية في حاجةٍ إلى سماعِ المزيدِ منَ الكلِمِ، فالسرُّ الذي سعتْ كثيرًا لكشفِ غطائِهِ أتاهَا على طبقٍ منْ ذهبٍ؛ ليدفعَ عنْها حيرتَها وعدمَ فهمِها لواقعِ أسرتِها الغامضِ ،ولماضيها الذي غابَ عنْها الكثيرُ من حقائقِهِ المؤلمةِ لكلِّ فردٍ منهمْ.

دلفتْ عالية تجرُّ قدميْها جرًّا إلى غرفةِ نومِ والديْها ،وعلى وجهِهَا إماراتُ من باتَ عليمًا بسرِّهِمَا المكنونِ.

عيناهَا شاخصتان، حمراوانِ، ينزفانِ دمعًا بلا توقفٍ، وكأنَّهما يمتلكانِ إرادتَهما الخاصةَ ، ووجنتاها مَّتقدتانِ كموقدٍ مشتعلٍ ضجرًا سُكِبَ فوقَهُ كيروسين

عبراتِها ؛لتسْهِمَ في المزيدِ منَ الاشتعالِ، ولكنَّ كلَّ هذا عجزَ عنْ الإنباءِ بما اعتُمِلَ بينَ جوارِحَها مِنْ صدمةٍ مزَّقتْ نياطَ قلبِها وأدمتْ روحَها..

وما إنْ رأتْها فريدةُ حتَّى اضطربتْ ،واستبدَّ بكيانِها الذعرُ متوقعةً أنَّ عالية قدْ تكونُ سمعتْ كلَّ شيْءٍ، فارتجفتْ نبراتُ صوتِها وهيَ تسألُ في توجسٍ:

_ عالية!.... متَى عدتِّ ؟!!

فما كانَ منْ محمودَ إلا أنِ التفتَ رانيًا نحوَ البابِ تعمهُ الصدمةُ ،فوجدَ عالية تطالعُهُمَا بمزيجٍ منَ الاشمئزازِ والضجرِ، ولكنَّها لم تنبسْ ببنتِ شفةٍ متجاهلةً سؤالَ أمِّها، وكأنَّ نفسَها تأبى منحَها الاحترامَ الكافي لتهتمَّ بالإجابةِ عنهُما.

أعادتْ فريدةُ سؤالَها بصيغةٍ مختلفةٍ بعدَ أنْ جاهدتْ للسيطرةِ على نبراتِ صوتِها ؛لتكتسيَ بنبرةِ الواثقِ منْ نفسِهِ- كمَا اعتادتْ عالية منْها- قائلةً:

_ عالية !لماذا لا تجيبينَ ؟!! أنا سألتُكِ متَى عدتِّ منَ الدرسِ؟!!

رمقتْ عالية والدتَها بنظرةٍ مُزريَةٍ انعكستْ على فمِها الذي تبسَّمَ في استخفافٍ للحظاتٍ، مما زعزعَ ثقةَ فريدةَ في نفسِها وأربكَها ،فانعكسَ على عينيْها ،والتي حملتْ نظرةً يملؤُها الترقبُ والقلقُ ،فأجابتْ عالية في وجومٍ:

_ لسنواتٍ طوالٍ وأنا أتساءلُ عنْ سرِّ رباطكُمَا الغامضِ. اثنانِ لا يطيقُ أحدُهما الآخرَ، ولكنَّهما يعيشانِ تحتَ سقفٍ واحدٍ يجمعُهما رباطٌ خفيٌّ سعيتُ مرارًا لكشفِ كنْهِهِ ،ولكنَّني فشلتُ وفشلَ عقلي في طرحِ تصورٍ قريبٍ منَ الحقيقةِ ولوْ بدرجةٍ ضئيلةٍ.

_ فمعَ كلِّ هذا الالتزامِ والتدينِ يصعبُ التنبُّؤُ أنْ حامليْها قدْ يقعانِ في خطيئةٍ كالزِّنا ،لا والأدهى أنْ أكونَ ناتجًا لتلكَ العلاقةِ الآثمةِ ؛لأحملَ عارَكُما وخزيَكُما طوالَ عمري ؛ولأكونَ ابنةَ حرامٍ.

أكملتْ عالية بعينيْنِ ينهمرُ منهُما شلالًا منَ العبراتِ أثناءَ خطوِها داخلَ الغرفةِ بخطواتٍ رتيبةٍ دوَتْ أصداؤُها وسطَ أجواءِ السكونِ التي خيَّمتْ فوقَ فريدةَ ومحمودَ؛ لتزلزلَ كيانَهما ،وكأنَّها خطواتُ الرخِّ فوقَ أجسادِ المعاقبينَ.

همَّتْ فريدةُ بالقولِ مفسرةً على استحياءٍ، فَما كانتْ تنتظرُ لحظةً كالتي تمرُّ بها ،أوْ حتَّى تتوقعُها في خيالِها.

_ عالية ! أنتِ لا تفهمينَ شيئًا.....

قاطعتْهَا عالية بحدةٍ قائلةً:

_ طوالَ عمري أنتِ تتكلمينَ وأنا أُنصتُ.. أنتِ تعلمينَ وأنَا أتعلَّمُ.. أنتِ تأمرينَ وأنا أنفذُ.. طوالَ عمري وأنتِ مستترةٌ وراءَ حدةِ لهجتِكِ وتجهمِكِ الذي أحاطَكِ في عيني بهالةٍ ما كنتُ أتوقعُ للحظةٍ أنَّ بإمكانِها الانكسارَ منَ الاحترامِ والتبجيلِ.. لقدْ كنتِ في عينيَّ قديسةً ضحَّتْ بسعادتِها وعمرِها منْ أجلي.. قديسةً منْ أجلي أنا فقطْ ، قدِ ارتضتْ أنْ تحيى معَ إنسانٍ يسيءُ معاملتَها وينهرُها لتحافظَ على مظهرِي الاجتماعيِّ بينَ أترابي، فلا يقولونَ أنَّنِي أحيَا وسطَ أسرةٍ مفككةٍ ،وليقدِّمَني أبي ليلةَ زفافي إلى منِ اختارَهُ ليَ القدرُ..

ولقدْ حفظتُ لكِ الجميلَ.. وكنتُ مثالًا للطفلةِ المطيعةِ لينةِ الرقبةِ.. أضعُ نصبَ عينيَّ طوالَ الوقتِ تضحياتِكِ منْ أجلِي.. أفكرُ ألفَ مرةٍ قبلَ أنْ أقدمَ على فعلٍ قدٍ يغضبُكِ أو حتَّى يعكِّرَ صفوَ علاقتِنَا.. أسعَى لأنْ أردَّ لكَ جميلَكِ بأنْ أكونَ فتاةً يتمنَّاها الكثيرونَ ،ويحسدُك عليْها زملاؤُكِ وعائلتُكِ.

ثمَّ أتبعتْ عالية أثناءَ التفافِها حولَ فريدةَ ومحمودَ في مشهدٍ تمثيليٍّ تناوبتْ على تقمُّصِ دورِ فريدةَ فيهِ تارةً لتعودَ إلى دوْرِهَا مرةً أُخرى.

_ اهتمِّي يا عالية بدراستِكِ ولا شيءَ سِواها ! سمعًا وطاعةً يا أمِّي !! ارتدي يا عالية الخمارَ وأنتِ ما زلتِ طفلةً وأقرانُكِ يلهونَ في الطرقاتِ ،فأبوكِ يأمرُكِ بذلكَ! سمعًا وطاعةً يا أمي !! لا تتفوَّهي بما يدورُ في بيتِنا؛ فالبيوتُ أسرارٌ ومنْ إساءةِ الأدبِ أنْ تُعلمي أحدًا بأسرارِنَا..سمعًا وطاعةً يا أمي !!أريدُكِ أنْ تحصلي على أعلى الدرجاتِ ؛لتلتحقِي بكليةِ الطبِّ، فهذَا ما أتمنَّاهُ لكِ.. سمعًا وطاعةً يا أمي !!

_ هذا خطأٌ يا عالية لا تقدُمي على فعْلِهِ ، هذا الصوابُ يا عالية وهوَ ما يجبُ عليكِ فعلُهُ ، لن أسمحَ لكِ بالتجاوزِ ، يجِبُ أنْ تكوني فتاةً مثاليَّةً ،تراعي ربَّها وضميرَها.. نحنُ أسرةٌ ملتزمةٌ دينيًّا؛ لذا لا يوجدُ مساحةٌ للخطإِ.

ثمَّ ابتسمتْ عالية ساخرةً ؛ لتذكِّرَها كلَّ تعليماتِ أمِّها التي التزمتْ بهَا أيَّما التزامٍ طارقةً بعينيْها أرضًا ،ثمَّ رفعتْ رأسَها لترمقَ فريدةَ في تحدٍّ قائلةً:

_ وبعدَ كلِّ ذلكَ أينَ أنتُما منَ الالتزامِ الذي فرضتماهُ على طفلةٍ في عمرِ الزهورِ ، ألديْكُما إجابةٌ تطفئُ نيرانَ حيْرتي؟! ألديْكما تفسيرٌ لمَا جعلتمَاني أكابدُهُ طوالَ عمري منْ قهرٍ ؟! ولكنَّني بالطبعِ لنْ أنتظرَ منكما إجابةً؛ فأنا الآنَ بتُّ عليمةً بكلِّ شيْءٍ.. لقدْ جعلتمَانِي أدفعُ ثمنَ جُرمِكُما، أنتُما أخطأتُمَا وأنا عُوقبتُ.. فيا لكُما منْ قاضييْنِ عادلييْنِ..

وقالتْ عالية جملتَها الأخيرةَ ضاحِكةً في سخريةٍ مشوبةٍ بألمٍ بدا على نبراتِ صوتِها:

_ عالية كيفَ تحدثينَني بذلكَ الأسلوبِ؟!

قالتْها فريدةُ متظاهرةً بالتماسكِ في محاولةٍ لردعِ عالية وكبحِ لجامِها بعدَ أنِ استشعرتْ جذوَةَ التمردِ التي طفِقتْ في الإنباتِ بينَ جوارحِها ،ولكنَّ عالية بقوةٍ وتحدٍّ أخمدتْ رغبةَ أمِّها وأطاحتْ بها، فقدِ انتابتْها حالةٌ منَ الضحكِ المفتعلِ للحظاتٍ ساخرةً ،ثمَّ أتبعتْ بعدَ أنْ هدأتْ نوعًا ما:

_ إلى الآن تصرينَ يا أمِّي على ارتداءِ ذلكَ القناعِ البالي؟ أرجوكِ انزعيهِ، فلمْ يعُدْ يليقُ بكِ، ولمْ يعدْ قادرًا على إقناعِي لأخرَّ لكِ ساجدةً.

ثمَّ أتبعتْ متسائلةً:

_ أتعلمينَ يا أمِّي ما عاقبةُ الزانِي والزانيةِ ؟!! مؤكدٌ تعلمانِ جيدًا، فمَنْ أنا لأعلمَكما أمورَ دينكُما ، عقابُكما الرجمُ، ولكنَّني أنا منْ رُجمتُ، فكلٌّ منْكما عاقبَ نفسَهُ وعاقبَ الآخرَ في شخصيَ الضعيفِ.. نعمْ منحتني الكثيرَ

،ولكنَّكِ لمْ تنسي قطُّ أنَّني كنتُ السببَ وراءَ خنوعِكَ وليِّ رقبتِكِ أمامَ أبي ، ولذلكَ انتظرتِ منِّي الكثيرَ والكثيرَ، ووضعتِ على عاتقي ما لا أُطيقُهُ ،لأعوِّضَكِ عنْ تضحياتِكِ وأكفرَ عنْ ذنبِكِ.

_ عمدتِّ إلى عزلي عنِ الناسِ، وغلفتني بشرنقةٍ من ظاهري وباطني، لتحفظينِي منَ الخطإِ الذي اقترفتْهِ، ولتمنعي عنِّي مسلكَ العاشقينَ، فمنْ قدْ تهواني نفسُهُ وأنا فتاةٌ نحيلةٌ لا أتمتَّعُ بقدرٍ وافرٍ منَ الحسنِ ،مسربلةً بثيابِها وكأنَّها تواري سوْءَةَ ما لا تعلمُ- هيَ ذاتُها- كنهَهَا، ولكنّني اليومَ علمتُ أيَّ سوءةٍ كنتُ أُخفي. أيّ جرمٍ كنتُ أسترُ.. أيَّ وجعٍ كنتُ أطيبُ..وأنا غافلةٌ..غافلةٌ أنَّني ابنةُ حرامٍ.

_ فيا لي من حمقاء!!!

ثمَّ تحولتْ عالية بعينيْها نحوَ محمودَ موجهةً حديثَها لهُ قائلةً:..

_ وأنتَ أيضًا يا أبي لمْ تنسَ أنَّني سببٌ في كونِكَ قضيتَ عمرِكَ معَ امرأةٍ تعلمُ جيِّدًا سموَّها فوقكَ وتعاليها عليكَ منْ أجلِ سترِ سرِّكُما ، فكلٌّ منْكما كانَ يخشى الانفصالَ مخافةَ أنْ يفضحَهُ الآخرُ.. ولذلِكَ كنتُ في عينِك ذنبَك الذي تجسَّدَ في صورةِ حيةٍ ،ليذكِّرَك بضعفِكَ وخطيئَتِكَ فعمدتُّ إلى الانتقامِ منْ شخصيَ الضعيفِ.

_ واليومَ أنا حقًّا عاجزةٌ عنْ تصورِ شكلِ حياتِي القادمةِ بصحبتِكُما بعدمَا تهاوى حائطُ الاحترامِ والتقديرِ.

وهنا تغيرتْ لهجةُ عالية، لتحتلَّ نبراتِ صوتِها قوةٌ وبأسٌ نابعانِ منْ جُرحِها الغائرِ،لتتحولَ إلى لهجةٍ تحملُ الكثيرَ منَ التحدي ،ملوحةً بسبَّابَتِها في وجهِهما بعدَ أنْ شعرتْ وكأنَّ هناكَ قوًى خفيةً تلبستْ روْحهَا ؛لتعيدَ خُلُقَها أقوى وأعزّ منْ ذي قبلِ قائلةً:

_ ولكنْ لا ، فإلى الآن وكفى.. لنْ أسمحَ لكُما بالتدخلِ في حياتي مرةً أُخري.. لنْ أسمحَ لأحدٍ منكمُا أنْ يُمليَ عليّ ما يجبُ عليّ فعلُهُ.. أنا الآنَ حرةٌ.. إرادتِي بيدِي.. مصيري أنا وحدي منْ يقررُهُ، وأنتُما لنْ تكونا لي سِوى غريبيْنِ لا يجمعُني بهمَا سِوى سقفِ هذا البيتِ ، وأنصحُكما أنْ تنسيا تمامًا أنَّني ابنتُكُمَا ، فمِنَ اليومِ أنا شخصٌ آخرُ كما بتُّما أنتُما في عينيّ أناسًا آخرينَ.

أنهتْ عالية جملتَها وانسحبتْ مُسرعةً منْ أمامِهما ،متجهةً صوبَ غرفتِهَا.

فما كانَ منْ فريدةَ إلا أنْ تهاوتْ لتخرَّ جالسةً على طرفِ فراشِها كمدينةٍ محتلةٍ تحطمتْ أسوارُها توًّا ؛ فقدِ احتلَّ الوهنُ روحَها، وانهارتْ نفسُها، فسقتْ عبراتُها وجنتيْها راجيةً أنْ يعودَ الزمانُ دقائقَ إلى الوراءِ؛ ليسمحَ لها باستعادةِ ابنتِها التي شعرتْ أنَّها فقدتْها وإلى الأبدِ،فقدْ أيقنتْ فريدةُ أنَّ عالية منذُ لحظاتٍ سلكتْ مسلكَ التمردِ والعصيانِ ، ولنْ يرجعَها منْهُ كائنٌ منْ كانَ، لقد دَّبَّ الصدعُ بينَهُما ،ولنْ تصلحَهُ الأيامُ، على العكسِ فالأيامُ ستعملُ على اتساعِهِ ليمْسى أُخدودًا، فعالية تمرُّ بمرحلةِ المراهقةِ التي بطبيعتِها تدفعُ الأبناءَ إلى التمردِ والعصيانِ، ولكنَّ عالية كانتْ أبعدَ ما يكونُ عنْ ذلكَ ؛بسببِ حبِّها

لأمِّها وشدةِ تعلقِها بها، أمَّا الآنَ فلنْ يمنعَها شيْءٌ، وإنَّما ستعمدُ إلى الإتيانِ بما منْ شأنِهِ جرحَ أمَّها وأباها انتقامًا منْهُما، وتعويضًا عنْ سنواتِ عمرِها التي أهدرتْها في الطاعةِ العمياءِ. كلُّ تلكَ الأفكارِ جالتْ في خاطرِ فريدةَ، فشعرتْ وكأنَّ الدُّنيا تنهارُ فوقَ رأسِها ، لقدْ خسِرتْ كلَّ شيْءٍ، سنواتِ عمرِها واحترامَ ابنتِها ، وقدْ تكونُ خسِرتْ ابنتِها ذاتَها، فالآنَ أمستْ جاهلةً تمامًا بما قدْ تقدمُ عالية على فعلِهِ تحقيقًا لمَا ذكرتْهُ عالية نفسُها منذُ لحظاتٍ ؛ فلقدْ أمستْ شخصًا آخرَ"..

تحولتْ فريدةُ ببصرِها نحوَ محمودَ قائلةً في أسًى:

_ لقدْ.. لقدْ فقدْنا عالية يا محمودُ.. فقدناهَا ولنْ تعودَ عالية ربيبتي مرةً أُخرى.

زفرَ محمودُ في يأسٍ ،ثمَّ قالَ:

_ ما كنتُ أتوقعُ أنْ يأتيَ يومٌ وتعلمُ فيهِ الحقيقةَ.

ثمَّ تحولتْ لهجتُهُ إلى اللومِ والهجومِ قائلًا ملوحًا في وجهِ فريدةَ بسبابتِهِ:

ولكنَّكِ المُلامةُ؛ فأنتِ منْ نبشَ ماضينا الذي سعيْنا طوالَ السنواتِ الماضيةِ لدفنِهِ ، لسنواتٍ ونحنُ نتجنَّبُ الحديثَ عنهُ وكأنَّه لمْ يكنْ قطُّ ،وكأنَّنَا أناسٌ آخرونَ لا يجمعُهُما ماضٍ مشينٌ كهذَا، وها أنتِ تأتينَ اليومَ لتُحييَ جرحًا قدِ اندملَ ، فما الذي عادَ على كليْنا سِوى المزيدِ منَ الخسائرِ.

_ اصمتْ.. ما عدتُّ أستطيعُ سماعَ صوتِكَ بعدَ الآن. دائمًا أنا المخطئةُ، دائمًا أنا الملامةُ ،أنتَ ملاكٌ بريءٌ لا تخطِئُ ولا تتجاوزُ.

_ بدلًا منْ أن نجدَ سبيلًا سويًّا لاستعادةِ ابنتِنا التي أضعناهَا بسببِ أخطائِنا وأنانيَّتِنا،يلقِي كلٌّ منَّا بالإثمِ على الآخرِ..متى ستتحملُ المسؤوليَّةَ؟! متى ستشعرُ أنَّ عليكَ واجبًا مطالبًا بتأديتِهِ ؟!! متى ؟! متى؟!

أنهتْ فريدةُ حديثَها الذي خرجَ بغلٍّ حقيقيٍّ وكأنَّه طلقاتٌ ناريةٌ خارجةٌ منْ بندقيةٍ عامرةٍ، وهبَّتْ واقفةً لتطلقَ لقدميْها العنانَ خارجةً من غرفتِها ،تاركةً محمودَ يبحثُ في معجمِهِ عنْ كلماتٍ تجابهُ حدتَها، ولكنَّهُ فشلَ كالعادةِ.

توجَّهتْ فريدةُ صوبَ غرفةِ عالية فوجدتْها موصَدةً منَ الداخلِ ، فأخذتْ تطرقُ البابَ بلطفٍ داعيةً عالية:

_ عالية! أرجوكِ افتحي البابَ يا عزيزتي ،ودعينَا نتناقشُ في هدوءٍ، فأيُّ شيْءٍ نستطيعُ تجاوزَهُ سويًّا ،عالية أرجوكِ أعطِ لي فرصةً ؛لأشرحَ لكِ ما غابَ عنكِ؛ لتتضحَ الرؤيةُ أمامَ عينيْكِ..عالية!.. عالية....

***

ولكنَّ عالية لمْ تجبْ ،ولنْ تجيبَ ، فقدْ كانتْ غارقةً في بحرِ عباراتِها.

حقًّا لقدْ أنهتْ حديثَها منذُ لحظاتٍ ،وقدِ اكتستْ لهجتُها قوةً وتحدٍّ غيرَ خافيتيْنِ ،لكنَّها ما زالتْ محتفظةً بينَ جنباتِ نفسِها علي وهنِها وضعفِها، وهذهِ القوةُ التي تلبسَتْ روحَها ما هيَ إلا وليدةُ الموقفِ لا غيرَ ،وسُرعان ما تخلتْ

عنْها، لتتساقطَ عزيمتُها، وتخورَ قواها ،كبالون جذبتْ سدادتهُ ،ولتعودَ إلي طبيعتِها الحالمةِ بعالمٍ يظللُهُ العدلُ ،ويكسوهُ السلامُ..

ولكنْ أنَّى لها ذلكَ؟!!!

***

في تلكَ اللحظةِ تنبهتْ فريدةُ أنَّ هُناكَ منْ يطرقُ البابَ. جفَّفتْ عبراتِها علَى عجلٍ، وحاولتْ أنْ تتمالكَ نفسَها ،ثمَّ فتحتِ البابَ، فكانتْ أنيسةُ الطارقةَ،وفي يدِها لفافةٌ تفوحُ منها رائحةُ غذاءٍ شهيٍّ،ولكنَّها سُرعانَ ما لاحظتْ ما أصابَ وجهَ فريدةَ، فقدْ بدا وكأنَّهُ محرابٌ مقدسٌ دهسَ بالأقدامِ توًّا.

انتابَ أنيسةَ الفزعُ حتَّى أنَّها -وقبلَ أنْ تخطوَ خطوةً واحدةً داخلَ البيتِ- تساءلتْ في جزعٍ:

_ فريدةُ! ماذا حدثَ ؟!! ماذَا أصابَك ؟!

لمْ تجبْ فريدةُ، وإنَّما دعتْهَا بإيماءةٍ منْ رأسِها وإشارةٍ منْ يدِها اليُسرى إلي الجلوس أولا..

دلفتْ أنيسةُ وجلستْ علَى الأريكةِ ،ولكنَّها لمْ تتخلَّ عنْ تساؤُلِها ؛لتعيدَهُ على فريدةَ مرَّةً أُخرى ،ولكنَّ فريدةَ لمْ تجبْ ،وتكفلتِ العبراتُ بالإجابةِ بدلًا منْها ،بينما كانتْ تجلسُ بجوارِها.

ربتتْ أنيسةُ على كتفِ فريدةَ في عطفٍ ممزوجٍ بالشفقةِ ،فَمَا كانَ منْ فريدةَ إلَّا أنِ ارتمتْ في صدرِها، وانفجرتْ في بكاءٍ يمزِّقُ نياطَ القلوبِ، فبدتْ وكأنَّها ترمي بأحمالِ أثقلتْها على عاتقِ أنيسةَ ،ولكنْ دونَ كلمةٍ تُذكرُ.

أخذتْ أنيسةُ تحاولُ جاهدةً أنْ تُهدِّأَ منْ روعِ فريدةَ، فاحتضنتْها مهدهدةً على ظهرِها في عطفٍ وحنانٍ حتى هدأتْ نوعًا ما ؛لتنسحبَ منْ حضنِها الدافئِ ،والذي ذكَّرها بحضنِ أمِّها ،وجففتْ عبراتِها ،ثمَّ قالتْ مجيبةً على تساؤلِ أنيسةَ:

_ لقدْ خسرتُ كلَّ شيْءٍ ، لقدْ ضاعَ عُمري هباءً.. قلبي يؤلُمني يا أنيسةُ، قلبي يؤلُمني.

قالتْ جملتَها ،وعادتْ إلى نحيبِها ،ولمْ تُضِفْ شيْئًا آخرَ.

تركتْها أنيسةُ وتحركتْ باحثةً عنْ محمودَ في أرجاءِ البيتِ حتى وجدتْهُ في غرفةِ النومِ ،منكسًا رأسَهُ وفي عينيهِ بقايا عبراتٍ.

فسألتْهُ كالملهوفةِ قائلةً:

_ ماذا حدثَ يا محمودُ ؟!!

فلمْ يجبْ ولمْ يعطِ حتى إشارةً تعني الانتباهَ إلى سؤالِها، فعادتْ لتقولَ صائحةً:

_ أحدٌ منْكما يجيبُني ،ماذا حدثَ ؟؟؟ هلْ أصابَ عالية مكروهٌ؟

لمْ يجبْ، ولكنَّهُ اكتفى بإقامةِ وجهِهِ في وجهِها ،ورمقَهَا للحظاتٍ عاجزًا عنْ إيجادِ كلماتٍ ،ثمَّ أوْمأَ برأسِهِ يمينًا ويسارًا ،ونكسَ رأسَهُ ثانيةً.

عادتْ إلى فريدةَ ،وقدْ كانتْ هدأتْ وتمالكتْ نفسَها قليلًا ،فلاحقتْها قائلةً:

_ لا تقلقي يا أنيسةُ؛ فعالية بخيرِ حالٍ، كلُّ ما في الأمرِ أنَّني ومحمودَ تشاجرْنَا قليلًا لا أكثرَ.

زفرتْ أنيسةُ في ارتياحٍ واضعةً راحتَها على صدرِها ،ثمَّ قالتْ:

_ كادَ قلبِي أنْ يتوقَّفَ هلَعًا.

ثمَّ جلستْ بجوارِ فريدةَ، وأتبعتْ:

_ وماذا في ذلكَ يا فريدةُ ؟!! منْ مِنَّا لا يتشاجرُ معَ شريكِ حياتِهِ! ولكنْ ليسَ هُناكَ ما يدعُو لنعظِّمَ أمورًا قدْ تبدو معَ القليلِ منِ التدقيق تافهَةً، ويمكنُ إصلاحُها في لحظةِ تفاهمٍ ، تعالي معي حتى أساعدَكِ ؛لتتوضأَ وتصليَ ركعتيْنِ طلبًا لإزالةِ الهمِّ والغمِّ عنْ روحِكِ إلى أنْ أُنهيَ إعدادَ الطعامِ على المائدةِ.

قالتْهَا أنيسةُ وهيَ تجذبُ فريدةَ ؛لتساعدَها على النهوضِ ،فاستجابتْ فريدةُ خاليةَ الوفاضِ.

وما إنْ أنهتْ فريدةُ صلاتَها ،وعادتْ إلى الصالةِ حتى وجدتْ أنيسةَ قدِ انتهتْ تقريبًا منْ إعدادِ الغداءِ على المائدةِ.

وعندمَا أقدمتْ فريدةُ نحوَها هشَّ وجهُ أنيسةَ وبشَّ ،ثمَّ قالتْ:

_ أرأيتِ وجهَكِ بعدَ الصلاةِ كيفَ عادَ إليْهِ نورُهُ؟! هيَّا لتتناولي غداءَكِ ،وادْعي محمودَ وعالية ليشاركوكِ، سأذهبُ أنا الآنَ حتى لا يسرقنَي الوقتُ ،ولكنْ عديني ألا مزيدَ منَ البكاءِ.

قالتْهَا أنيسةُ ملوحةً بسبابتِها في وجهِ فريدةَ محذرةً ،وعلى ثغرِها ابتسامةٌ لطيفةٌ، فما كانَ منْ فريدةَ إلَّا أنْ بادلتْها الابتسامَ ،وأومأتْ برأسِها كنايةً عنِ الموافقةِ.

وبالطبعِ ما أنْ غادرتْ أنيسةُ عائدةً إلى بيتِها حتى عادَ الوضعُ لَمَا آلَ إليْهِ ،فدلفتْ فريدةُ إلى غرفتِها؛ ليعودَ محمودُ إلى أريكتِهِ في الصالةِ تاركيْنِ الطعامَ ،لمْ يُمسَّ منهُ شيْءٌ.

***

خيَّمَ الليلُ بظلامِهِ وسكونِهِ على البيتِ ؛ليزيدَ منْ أحزانِ وكآبةِ قاطِنيهِ ، فعكسَ ببراعةِ إظلامَ روْحهمْ، ولذلكَ لمْ يسعَ أيٌّ منهمْ إلى إشاعةِ الأضواءِ ، فلنْ تستطيعَ الشمسُ ذاتُها بعدَ اليومِ إدخالَ الضياءِ إلى نفوسِهمْ.

قضَى الثلاثةُ ليلتَهمْ كلٌّ في محلِّهِ كمَا اعتادَ، ولكنَّ النعاسَ جفاهُمْ ،وعاندَ رغباتِهم، فأحيانًا يبحثُ البعضُ عنهُ بينَ أجفانِهِمْ هربًا منْ وجعٍ لا تداويهِ العقاقيرُ ،ولكنَّهُ أبيٌّ عنيدٌ ،لا يمنحُ ودَّهُ وعطفَهُ سِوي لقلةٍ يصطفيهمْ.

ولكنَّ عالية لمْ تكنْ تنتظرُ النعاسَ ،وإنَّما تنتظرُ أنْ يغفوَ والدَاها، وما أنْ شارفتِ الساعةُ علي الرابعةِ فجرًا حتَّى استقرَّ في نفسِها ضرورةُ غلبةِ النعاسِ عليهِمَا.

نهضتْ منْ فراشِها ،ثمَّ انتعلتْ خُفَّيْها في سكونٍ ،وحثتِ الخُطى نحوَ الحمامِ ، دلفتْ وأغلقتِ البابَ خلفَها مدعيةً قضاءَ حاجتِها.

أنهتْ ما ادَّعتْهُ ،ثمَّ مرَّت في طريقِ عودتِها علَى المطبخِ، فتحتِ المبردَ، وتناولتْ أحدَ العقاقيرِ الذي تستعينُ به فريدةُ أحيانًا على قضاءِ لياليها السوداءِ نومًا، وعادتْ إلى غرفتِها في هدوءٍ.

لمْ ينتبهْ إليْها أحدٌ، على الرغمِ منْ كونِ فريدةَ ما زالتْ مستيقظةً يضنيها الفكرُ، أمَّا محمودُ، فقدْ كانَ النعاسُ رحيمٌ بهِ،فأنعمَ عليْهِ،وخاطبَ ودَّهُ، فغابَ في سُباتٍ عميقٍ.

أغلقتْ عالية بابَ غرفتِها خلفَها بإحكامٍ ،وجلستْ على طرفِ فراشِها ،وطفِقتْ تطالعُ علبةَ العقارِ الذي هداهَا فكرَها للجوءِ إليْهِ ؛لينهيَ عذابَها ويخلصَها منْ حياتِها التي انطفأتْ أضواؤُها في عينيْها، وخيَّم عليْها ظلامٌ قاتمٌ لا أملَ لغدٍ فيهِ.

فلماذَا تحيى بعدَ اليومِ ؟ وبعدَما عرفتْ أنَّها عارٌ يجبُ أنْ يُمحى، وخزيٌ يجبُ أنْ يُسترَ.

كيفَ ستنظرُ في عينِ أبويْها بعدَ أنْ تضاءَلا في عينيْها؟

فلنْ يتنازلا عنْ سلطتِهِمَا عليْها رغمَ ما علمتْهُ عنْ تاريخِهِمَا المُخزِي، وهيَ لنْ تستجيبَ لأوامرِهِمَا ورغباتِهِمَا كذلِكَ.

فسيظلانِ في نظرِها حامليْنِ خطيئَتِهمَا دومًا وأبدًا؛ ولذلكَ فمنْ يكونَا لتطعْهمَا بعدَ اليومِ.

هذهِ الحياةُ ما عادتْ قابلةً للاحتمالِ ، هكذا ناجتْ عالية نفسَها فانتهتْ بقرارِ الانتحارِ هربًا منْ واقعٍ باتَ أليمًا بدرجةٍ تفوقُ احتمالَ فتاةٍ تعاني مراهقتَها.

وبعينيْنِ دامعتيْنِ وقلبٍ راجفٍ وعقلٍ مشوَّشٍ فتحتِ العلبةَ ،وأخرجتْ عدةَ أقراصٍ تتجاوزُ بها الحدَّ المسموحَ ، وهمَّتْ على رفعِهِمْ إلى فمِها ،وهُنا خطرتْ لَها خاطرةٌ جعلتْها تتراجعُ لثوانٍ دامعةَ العينيْنِ.

فلقدْ تذكرتْ رفيقَها، وكيفَ كانَ باستطاعتِهِ مساعدتُها لوْ كانتْ قادرةً على استدعائِهِ في ذلكَ التوقيتِ الحرجِ،ولكنْ للأسفِ لا يمكنُهُ الظهورُ إلَّا إذا تحققَّ شرطانِ ،أولُهما: وهوَ محققٌ بالفعلِ ،وهوَ عدمُ إشاعةِ أضواءٍ صناعيةٍ في البيتِ ، وثانيهِمَا هوَ العقبةُ التي تحولُ بينَها وبينَهُ، وهوَ خلوُّ البيتِ ممَّنْ سِواها.

فلمْ تجدْ بدًّا منْ أنْ تزدادَ عبراتُها في مقلتيْها ؛لتعكسَ ما يموجُ بينَ جنباتِ نفسِها منَ انهزامٍ وانكسارٍ وانعدامٍ للأملِ، حتَّى في الإفصحاءِ بمَا في جوفِها منْ شكوى تخرُّ لها الجبَابرةُ، وتثني منْها العزائمُ ؛ ليزدادَ سخطُها على أبويْها اللذيْنِ تفنَّنَا في عُزلتِها طوالَ حياتِها وإلى اليومِ يُشكلان مانعًا بينَها وبينَ رفيقِها ؛ليسرقا آخرَ أملٍ لَها في تلكَ الدُّنيَا.

رفعتْ عالية الأقراصَ إلى فمِها بيدٍ راجفةٍ وروحٍ محطمةٍ، ولكنَّ عبراتِها تدخَّلتْ ؛لتعلنَ عنْ وهنِها، ولتكشفَ حقيقةَ ضعفِها جليًّا أمامَ نظرِها، فأُثنتْ

قواها، وخارتْ عزيمتُها، وتساقطتِ الأقراصُ منْ بينِ أناملِها في رخاوةٍ ،متناثرةً على البساطِ كما تساقطتْ سنواتُ عمُرِها القليلةُ الماضيةُ.

بكتْ عالية ، ولكنْ في تلكَ المرةِ لا لسخطِها على أبويْها، وإنَّما رثاءً لقواهَا التي تخلتْ عنْها حينَ أرادتْ وضعَ حدٍّ لمعاناتِها.

_ أنتِ ضعيفةٌ، وهنةٌ يا عالية، لمْ تتحلي يومًا بالشجاعةِ. أنتِ أضعفُ منْ حلزون قابعٍ في قوقعتِهِ، كُتبَ عليكِ الشقاءُ، وما بيدِكِ حيلةٌ سوى انتظارِهِ ؛ليتمِّمَ مهمتَهُ ،ويسحقَ هامتَكِ بكفاءةٍ واقتدارٍ، تتظاهرينَ بالقوةِ أمامَ أبويْكِ ،ولكنَّكِ لستِ أهلًا لَها ، أنتِ أضعفُ منْ أنْ تضعي حدًّا لمعاناتِكِ.

هكذَا ناجتْ عالية نفسَها بصوتٍ لمْ يتخلَّ عنْ نحيبِهِ الذي لازمَها طوالَ ليلتِها، إلى أنْ أنعمَ عليْها النعاسُ بفيضِ كرمِهِ، وأحاطَها بشمولِ رحمتِهِ، فغفتْ بعدَ أنْ جفَّفتْ مدامعَها الحسراتُ، واستنزفتْ مقلتيْها العبراتُ، غيرَ منتظرةٍ لنهارٍ جديدٍ، ولكنَّهُ دائمًا ما يأتي بهيئةِ المتجاهلِ .

أشرقتِ الشمسُ لتعلنَ ميلادًا جديدًا ،لا آثارَ لجراحِ الأمسِ فيهِ، ولشدةِ ما أدهشَ عالية أنَّ نهارَها كانَ صحوًا، وكأنَّهُ يقدمُ لها دعوةً مدفوعةَ التكاليفِ لخوضِ تجربةِ حياةٍ بمنظورٍ جديدٍ.

نعمْ. لمْ يتخلَّ مُحياها عنْ آثارِ صراعِ ليلةِ أمسِ، فبدَا وكأنَّ غزوًا قدْ وطِئَهُ بأقدامِ خيولِهِ. وجهٌ شاحبٌ بلونِ السحبِ، وشفاهٌ متضخمةٌ بلونِ حباتِ الرمانِ، وعينان ذابلتانِ منكسرتانِ.

طالعتْ عالية وجهَها في المرآةِ فغلبَها الابتسامُ الساخرُ، فقدْ كانتِ المرةُ الأُولى التي يثيرُ إعجابَها انعكاسُها في المرآةِ، فحدثتْ نفسَها متهكمةً:

ـ ستكونينَ يا عالية في أبْهى حُلةٍ لك يومَ مماتِكِ ، وكأنَّ الموتَ يليقُ بكِ !!

استبدلتْ عالية ثيابَها ؛لترتديَ الزيَّ المدرسيَّ ،والذي ما تبقَّى أمامَها سِوى أيامٍ معدوداتٍ ،وتتحررُ منْ براثنِهِ لسماحِ إدارةِ المدرسةِ للطلابِ بالانقطاعِ عنِ الحضورِ استعدادًا للامتحانِ المصيريِّ.

وقبلَ أنْ تتركَ عالية غرفتَها انحنَتْ لتلملِمَ حباتِ العقارِ التي تناثرتْ ليلةَ أمسِ على البِساطِ ؛حتَّى لا تعثُرَ عليْهمْ أُمُّها ،وتعلمَ ما كانتْ تطوقُ إليهِ نفسُها.

أنجزتْ عالية مهمتَها على عجلٍ ،ثمَّ خبأتْ علبةَ العقارِ في خزانتِها مُحدِّثَةً نفسَها:

ـ لعلِّي أحتاجُ إليْها يومًا ما.

وعندمَا عزمتْ عالية على الخروجِ وجدتْ فريدةَ تنتظرُها في الصالةِ ؛للاطمئنانِ عليْها ،ولوْ بنظرةٍ صامتةٍ بعدَما فقدتِ القدرةَ والرغبةَ على مواجهتِها ليلةَ أمسِ، وقدْ كانتْ فريدةُ على يقينٍ منْ أنَّ عالية ستذهبُ إلى مدرستِها في ذلكَ اليومِ، لا لتشوُّقِها للدراسةِ ،وإنَّما هربًا منَ المكثِ في البيتِ بصحبتِهمَا- والديْها- وبالفعلِ كانتْ فريدةُ على حقٍّ، فقدْ كانَ لِمنْ أشدِ الأمورِ قسوةً أنْ لا تجدَ عالية مكانًا تذهبُ إليهِ في يومٍ كهذَا.

مكانٌ ترى فيهِ وجوهًا جديدةً راغبةً في الحياةِ، باحثةً عنِ مستقبلٍ مشرقٍ.

مكانٌ تذوبُ في تفاصيلِ مهامِهِ.

مكانٌ يُنظرُ إليْها نظرةَ إجلالٍ

مكانٌ يمنحُها أملًا في الغدِ.

وقدْ كانَ.

استقبلتْ حسناءُ عالية بابتسامةٍ صافيةٍ أضفَتْ على وجهِهَا إشراقةً أضاءتْ بنورِ السكينةِ ، سكينةٌ ضلَّتْ طريقَها إلى نفسِ عالية المتشابكةِ ، فَمَا وجدتْ عالية بدًّا منْ أنْ تبادلَها الابتسامَ ،ولكنَّ ابتسامتَها جاءتْ مجاملةً، خبيَ ضياؤُها معلنةً عجزَها في اقتحامِ حصنِ عبوسٍ مُحيًّا عالية.

_ أمُّكِ عادتْ بالأمسِ إلى البيتِ منَ المشفى ،واليومَ أراكِ عابسةً هكذَا؟!!

هكذَا تساءلتْ حسناءُ في استنكارٍ ،فأجابتْها عالية مدعيةً العمقَ ساخرةً:

_ هناكَ الكثيرُ منَ الشرورِ في هذا العالمِ تدعُو إلى العبوسِ يا عزيزتِي.

_ لا، والأدْهى أنكِ اكتسبتِ منَ الأمسِ إلى اليومِ عمقًا بدَا في نظرتِكِ للحياةِ.

اختتمتْ حسناءُ جملتَها ،ولمْ تستطعْ أنْ تتمالكَ نفسَها منَ الضحكِ، فانفجرتْ في ضحكٍ هستيريٍّ ،وتعلمُ جيِّدًا أنَّ عالية قدْ تستاءُ منهُ ، ولكنَّ عالية ضحكتْ بدورِها، وكأنَّ الضيقَ الذي يضمرُهُ صدرُها قدْ وجدَ مُتنفسًا ؛ليتسربَ تاركًا فسحةً ضئيلةً للحياةِ ، ثمَّ قالتْ:

_ أتعلمينَ يا حسناءُ، ما كنتُ أتوقعُ أنَّ أحدًا قادرٌ على جعْلي أبتسمُ بعدمَا مررتُ به ليلةَ أمسِ، ولكنَّك تأتينَ اليومَ وتدفعينَنَي للضحكِ منْ قلبي ، أدامَكِ اللهُ لي صديقةً وأختًا.

اكتستْ ملامحُ حسناءَ بالجديةِ ،ممَّا انعكسَ على نبراتِها حينَ قالتْ:

_ عالية، أنَا لا أعلمُ ما مررتِ به ليلةَ أمسِ ،ولكنَّني أرى في عينيْك حزنًا عميقًا.

قالتْها حسناءُ مقتحمةً دفاعاتِ عالية ،مهشمةً حصونَها، فمَا وجدَتْ عالية بدًّا أنْ خفضتْ عينيْها تحاشيًا ؛لأنْ ترى حسناءُ ترقرقَ العبراتِ التي تنذرُ بالهطولِ، فاستطردتْ حسناءُ قائلةً:

_ اعلمي جيدًا عزيزتي أنَّ لكلِّ شعورٍ بالحزنِ يطرقُ بابَكِ يوجدُ في تلكَ الدنيا ما يقاومُهُ منْ شعورٍ بالفرحِ والابتهاجِ؛ لذا انْفُضي ما بقلبِكِ منْ همومٍ، وأسقِطي عنْ كاهلِكِ الأحمالَ ، مستقبلةً كلَّ يوْمٍ منْ أيامِ عمرِكِ ،وكأنَّهُ يومٌ ميلادِكِ ، الذي سيختتمُ بوفاتِكِ ؛لتبدئي غدَك بحياةٍ جديدةٍ.

وهُنا لمْ تتمالكْ حسناءُ نفسَها ،رافضًا عقلُها تلكَ الجديةَ التي تلبستْ روحَها لدقائقَ معدوداتٍ، فعادتْ ؛لتسخرَ مجددًا قائلةً:

_ وكأنَّكِ ذبابةُ مايو لا تَحيي سِوى يومٍ واحدٍ.

نغزتْها عالية بمرفقِها ،ثمَّ قالتْ بعدَ أنْ غلبَها الابتسامُ :

_ ذبابةُ ؟!! أهذَا ما جادتْ عليْك بهِ قريحتُكِ منْ تشبيهٍ ؟! أحمدُ اللهَ أنَّكِ في القسمِ العلميِّ، وإلَّا لكنتِ لوثتِ الأدبَ بتشبيهاتِكِ المقززةِ.

بالطبعِ انفجرتْ حسناءُ في الضحكِ ،جاذِبةً يدَ عالية ليلحقَا بطابورِ الصباحِ.

لقدْ لقيَ حديثُ حسناءَ في نفسِ عالية متسعًا، وإنْ أثارَ سخريتَها، فناجتْ نفسَها قائلةً:

_ ولمَا لا ؟! لمَا لا أنسى ماضيَّ وماضي أسرتي المشينَ، وإنْ لمْ أنساهُ فبإمكاني تجاهلُهُ علَى الأقلِّ في الوقتِ الراهنِ. لا بُدَّ وأنْ أضحى أكثرَ عمليةً، يجبُ أنْ أتخلَّى عنْ ضعْفي ووهنِ نفسِي،لنْ أتخلى عنْ حياتِي منْ أجلِ خطإٍ لمْ أقترِفْهُ، وخاصَّةَ وأنَّ اللهَ أنعمَ عليَّ بصديقةٍ قادرةٍ على بثِّ البهجةِ والسرورِ في نفسي.

ورمتْ عالية صديقتَها حسناءَ التي كانتْ منهمكةً في إلقاءِ تحيةِ العلمِ بتفانٍ مطلقٍ - وكأنَّها على أرضِ المعركةِ تصارعُ العدوَّ-مندهشةً منْ قدرِ الطاقةِ الإيجابيةِ المنبعثةِ منْ نبراتِها، ممَّا دعا عالية للابتسامِ افتتانًا بحسناءَ التي عندمَا تقدمُ على فعلِ شيْءٍ تفعلُهُ بجمِّ حواسِّها ، وبكاملِ إيمانِها.

وفي تلكَ اللحظاتِ أسقطَ عقلُ عالية رفيقَها وكأنَّهُ لمْ يكنْ قطُّ ، أوْ لعلَّها عدَّتْهُ مرةً أُخرى صديقًا خياليًّا منَ الماضي ،الذي أخذتْ على نفسِها عهدًا بعدمِ النبشِ فيهِ مرةً أُخرى – وكأنَّها ذبابةُ مايو- فإنْ كانَ غيرَ قادرٍ على مساعدتِها في أسوءِ لحظاتِها التي مرَّتْ بها وحيدةً فلا بدَّ وأنْ يكونَ منعدمَ الوجودِ.

وهكذَا خُيِّلَ إلى عالية أنَّها تبدأُ حياةً جديدةً، وإنْ كانتْ قدْ استخلصتْ منْ سابقتِها عدةَ ثوابتٍ أهمِّها: أنْ لا طاعةَ لأبويْها عليْها بعدَ اليومِ.

أنهتْ عالية يومَها الدراسيَّ ،وعادتْ إلى البيتِ ، أولجتِ المِفتاحَ في البابِ ،ودلفتْ ،فوجدتْ أمَّها في استقبالِها ، لمْ تولِها عالية أدْنى اهتمامٍ ،قاطعةً الصالةَ إلى غرفتِها ، وما إنْ دلفتْ حتَّى أغلقتْ البابَ خلفَها في حزمٍ ،وكأنَّها إشارةٌ تعني بهَا " لا سبيلَ للمناقشةِ ،فلا تتبعيني" والتي كانتْ فريدةُ قدْ أعدَّتْ نفسَها لهَا بالفعلِ ،عاقدةً العزمَ على استدراجِ عالية عندَ عودتِها منَ المدرسةِ إلى حديثٍ لعلَّهُ يصلحُ ما أفسدتْهُ ليلةُ أمسِ، ولكنْ ما أنْ رأتْها ،وتلاقتِ الأعيُنُ حتَّى اكتشفتْ أنْ لا مجالَ هُنالكَ للمواجهةِ.

لقدْ تبدلتْ نظرةُ عالية إلى الأبدِ ، فخفِقَ قلبُ فريدةَ معلنًا: أنَّ عالية لمْ تعدْ تنتمي إليكِ بأيِّ صورةٍ كانتْ.

_ لمْ يعدْ هُناك مغزى منَ الحديثِ ، يكفيني دعائي للهِ أنْ يحفظَها منْ كلِّ سوءٍ.

هكذَا ناجتْ فريدةُ نفسَها حاملةً أوزارَهَا إلى المطبخِ ؛لإعدادِ الغداءِ لعالية،والتي بالفعلِ شرعتْ في إعدادِ نفسِها للدرسِ.

تناولتْ عالية غدائَها منفردةً بعدَ أنِ امتنعتْ فريدةُ عنِ الزادِ، ومَا أنِ انتهتْ حتَّى انصرفتْ في هدوءٍ.

***

توالتِ الأيامُ في رتابةٍ لا تخلو منَ الملل ، فتشابهتْ وكأنَّ كلَّ يومٍ استنساخٌ لأخيهِ، تذهبُ عالية إلى المدرسةِ ،ومنْ ثمَّ تعودُ لتتناولَ غدائَها منفردةً دونَ صحبةِ والدتِها كمَا اعتادتْ في السابقِ، وإنْ لم تتخلَّ الأخيرةُ عنْ مجالستِها إبَّان ذلكَ دونَ مشاركتِها، لعلَّ عالية تمطرُها ببشائرِ رحمتِها، وتلينُ آذانَها بنبراتِ صوتِها العذبِ ،والذي خفتتْ أصداؤُهُ في البيتِ منذُ الليلةِ المشئومة.

ولكنْ هيْهاتَ.

فعالية على قدرِ ضعفِها وهشاشةِ نفسيتِها رأتْ أنَّ والدتَها استحقتِ العقابَ، والذي تمثلُ في مجافاتِها إيَّاها. ومعَ مرورِ الأيامِ استعذبتْ عالية رؤيةَ نظرةِ الرجاءِ في عينِ فريدةَ، فشعرتْ وكأنَّها تقدمُ منْ خلالِها قربانًا منْ نوعٍ ما تكفرُ به عمَّا اقترفتْهُ قديمًا منْ آثامٍ.

_ ولكنَّكِ لستِ اللهَ يا عالية لتعاقبين !!

هكذَا كانتْ تحدِّثُها نفسُها من حينٍ لآخرَ ،ولكنَّها دائمًا ما كانتْ تزجرُها وتنهاها عنْ ضعفِهَا مُعلِّلةً:

_ ومنْ منهُما رحمني عندمَا عُقبتُ على جُرمٍ لمْ أشاركْ فيهِ قديمًا ،فلينالا عقابَهما بأنْ يريَا ابنتَهما الوحيدةَ لمْ تعدْ تُكنُّ لهُمَا أيَّ مودةٍ ولا احترامٍ.

أمَّا محمودُ فلمْ يكنْ يبالي كثيرًا كمَا هيَ عادتُهُ ، يقضي معظمَ نهارِهِ خارجًا ليعودَ ليلًا منتهيةً صلاحيتُهُ تقريبًا، فيرمي بجسدِهِ المتداعي على أريكتِهِ حتَّى الصباحِ ، وكذلكَ خلافاتِهِ معَ فريدةَ قضيت نحبها ، وكأنَّهما كانَا يتشاجرانِ ؛لأنَّهما لا

يجدانِ ما هوَ أكثرُ نفعًا ،يشغلُ فكرهُما ويزْجي وقتهُمَا ، ولكنْ عندمَا تحوَّلا منْ قطْبيْنِ في معادلةٍ يمزقُ بعضُهما بعضًا إلى قطبٍ واحدٍ في مواجهةِ فلذةِ كبدِهِمَا الملوحةِ بالعقابِ، والمنذرةِ بالويلِ ، عقدَا هدنةً أخيرًا،بعدَ أنْ بدتْ لُهما خلافتُهما باهتةً في مقابلِ ما يعانياهُ معَ عالية.

وعالية أيضًا لمْ تغفلَ ملاحظةَ أنَّ البيتَ صارَ أكثرَ هدوءًا منذُ ليلةِ كشفِ المستورِ ، فلمْ يعدْ يتردَّدُ فيهِ سِوى موجاتِ أثيرِ المذياعِ الذي حافظَ على ترنيماتِهِ ،غيرَ عابئٍ بمَا يدورُ في النفوسِ.

ولكمِ استدعى ذلكَ سخريتَها وأثارَ تهكُّمَها ، فلطالَما تمنَّتْ أنْ تنعمَ لياليَها بالهدوءُ والسكينةِ ،ولكنَّهما كانَا قديمًا بعيدَا المنالِ على أنَّهما اليومَ جاءَا طواعيةً ،ولكنْ بصحبتِهما الكآبةَ والانكسارَ.

انقضى ما تبقَّى منْ أيامٍ حملهَا شهرُ أبريل على عاتِقِهِ لتتساقطَ كأوراقِ شجرٍ صفراءَ ،لمْ يقرأْها أحدٌ أنَّ الربيعَ قدْ حلَّ، وكمَا شهدتْ تلكَ الأيامُ اتساعَ الفجوةِ بينَ عالية ووالديْها، شهدتْ أيضًا مولدَ الصداقةِ الحقةِ مع حسناء ، فانتمتْ إليْها بكاملِ جوارحِها..إنّها الرفيقةُ والصديقةُ وكاتمةُ أسرارِها.. نعمْ. لقدْ باحتْ عالية بمكنونِ صدرِها إلى حسناءَ، فبعدَ أنْ تمزقتْ شرنقةُ الاحترامِ ،وانزوتْ هالةُ القداسةِ التي كانتْ تحيطُ أمَّها ،وجدتْ عالية نفسَها غيرَ ملتزمةٍ تجاهَهَا بوعودٍ كانتْ قدْ قطعتْها على نفسِها سابقًا، فلمْ تعدْ مُطالَبةً بأنْ تعانيَ منفردةً هذا الضغطَ النفسيَّ ،ولديْها صديقةٌ تثقُ في وفائِها وإخلاصِها ،

ومنذُ ذلكَ الوقتِ أمستْ حسناءُ تمثلُ لعالية بئرًا بلا قاعٍ ،تستمعُ وتحتوي ،وكأنَّها أمٌّ حنونٌ ،ووقتَ المرحِ تقدِّمُ لعالية لحظاتٍ منَ البهجةِ والسرورِ تُنسيها آلامَها ووحدتَها الاختياريةَ، والتي باتتْ تعانيها في بيتِها ، حتَّى وبعدَ انقطاعِهِمْ عنِ الذهابِ إلى المدرسةِ ظلَّ الهاتفُ يشكِّلُ همزةَ الوصلِ بينهُمَا ،فكانتْ عالية تقريبًا لا تتحدَّثُ في بيتِها إلَّا عبرَ سماعتِهِ التي قرَّبتْ بينَهُما المسافاتِ.

وكانَ للهاتفِ فضلٌ غيرُ منكرٍ في طمأنَةِ فريدةَ على ابنتِها منْ خلالِ استراقِها السمعِ لأحاديثِها معَ حسناءَ منْ وقتٍ لآخرَ خلسةً.

وعلي عكسِ المتوقعِ لم تتهاون عالية في دراستِها ، والتي كانتْ فريدةُ تطمئنُّ على حسنِ سيرِها منْ أساتذتِها في غفلةٍ منْ عالية، ولحسناءَ أيضًا في ذلكَ فضلٌ غيرُ منكرٍ، فقدْ كانتِ المحركَ الرئيسَ ؛لتمضيَ عالية قدمًا في حياةٍ باهتةٍ ،وتكملُ سيرَها على صراطٍ ظلَّ مستقيمًا على رغمِ مغرياتِ الاعوجاجِ التي لمعتْ أمامَ عينيْهَا، والتِي قدْ يدفعُها إليْها الرغبةُ في التمردِ والعصيانِ ،هذا بالطبعِ إلى جانبِ نقاءِ سريرتِها التي تأبى الانزلاقَ في العدميةِ...رفيقُها !!

لمْ تنسَهُ عالية أبَدا ، فظلتْ منْ حينٍ لآخرَ تسعى لاستدعائِهِ، ولكنَّ الفرصةَ عاندتْ رغبتَها ، فدائمًا ما كانتْ فريدةُ تشاركُها البيتَ ؛لتشكِّلَ حائلًا أمامَ تحقيقِ الشرطِ الثاني لظهورِهِ،ومعَ مرورِ الأيامِ ترسَّخَ في ذهنِ عالية أنَّهُ مجردُ وهمٍ كانَ نتاجًا لوهنِ روحِها في تلكَ الفترةِ ، ومنْ ثمَّ أقنعتْ نفسَها بتقبُّلِ

حياتِها القائمةِ اليومَ على رفقةٍ حقيقيةٍ ،باستطاعتِها أنْ تلمسَها بأناملِها وأنْ ترَاها بأعينِها ، وخاصَّةَ وأنَّ الدافعَ الذي كانَ يحركُها لاتخاذِ رفيقٍ خياليٍّ لمْ يعدْ متحققًا، فاليومَ باستطاعتِها مشاركةُ أحداثِ يومِها معَ حسناءَ.

***

أتى مايو بنسماتِهِ الرقيقةِ العذبةِ ،والتي تدعوكَ لتناسي ما كانَ منْ شتاءٍ قاتمٍ أطبقَ على روحِكَ بقسوتِهِ المعتادةِ كنهايةِ عمرٍ؛ ليعدَكَ ببدايةٍ جديدةٍ، ملأَها الصحوُ والإشراقُ، معَ احتفاظِهِ ببقايا رطوبةٍ ما زالتْ أجواءُ الإسكندريةِ – المدينةُ المبتلةُ – متشبعةً بها ،وإنْ لمْ تخلو تلكَ الأجواءُ منْ رائحةِ التوترِ التي تفرزُها الامتحاناتُ المقبلةُ على الأبوابِ، والتي تحلُّ كضيفٍ ثقيلٍ غيرِ مرغوبٍ فيهِ ،ولكنَّهُ قضاءٌ لا حيلةَ لكَ سوى انتظارِهِ خاليَ الوفاضِ، يأتي ليفرضَ سطوتَهُ على أغلبِ البيوتِ المصريةِ في تلكَ الفترةِ منَ العام، وتتصاعدُ وتيرتُهُ في تلكَ التي تحتوي على قنبلةٍ موقوتةٍ تُدعى الثانويةَ العامةَ.

إنَّهُ اليومُ الثالث منْ مايو منْ عامِ أربعةٍ وألْفيْنِ. يومٌ عاديٌّ ، ما كانَ يلوحُ في الأفقِ ثمةَ نذيرٍ أو بشيرٍ.

دقَّ جرسُ الهاتفِ في الحاديةِ عشرَ وعشرِ دقائقَ صباحًا ،فهرعتْ عالية لتجيبَ متوقعةً بلْ ومنتظرةً أنْ تتلقى اللومَ على يدِ حسناءَ لتأخرِهَا:

_ السلامُ عليكمْ.

_ وعليكِ السلامُ يا عالية ، لماذَا ما زلتِ في البيتِ حتَّى الآنَ؟! أليسَ منَ المفترضِ أنْ تكوني في طريقِكِ إليَّ؟! هذا التباطؤُ سيؤخرُنا على الحصةِ الأُولي منَ المراجعةِ ، ولنْ نجدَ مكانًا شاغرًا للجلوسِ في الصفوفِ الأُولى. كمْ منْ مرةٍ يجبُ عليَّ تذكيرُكِ أنَّنا منَ اليومِ لمْ نعدْ نتلقَّى الدرسَ في مجموعةٍ صغيرةٍ في بيتي، ستجدينَ مقعدَكِ المفضلَ في انتظارِكِ، وإنَّما في مركزٍ كبيرٍ يسعُ جميعَ المجموعاتِ، والجلوسُ هنالكَ بأسبقيةِ الحضورِ كما أعلمَني أخي ،فلنْ تدللي عزيزتي لأنَّكِ المتفوقةُ كمَا كنتِ طوالَ العامِ.

_ أعلمُ أعلمُ ،ولكنَّكِ الآنَ بالفعلِ تساهمينَ مساهمةً فعالةً فيمَا تخشينَهُ ، فهلْ لكِ أنْ تدَعيني أُنهي لباسي لأوافيكِ ؟!

_ آسفةٌ يا سيدتِي ، لك هذَا.

وضعتْ عالية سماعةَ الهاتفِ ،وعادتْ إلي غرفتِها لتنهيَ ما كانتْ قدْ بدأتْهُ ، وما هيَ إلا دقائقُ معدوداتٌ وكانتْ أقدامُها تعانقُ الشارعَ.

_ أسرِعي يا عالية ؛لنلحقَ بالتّرامِ قبلَ أنْ ترحلَ.

قالتْها حسناءُ وهيَ تسرعُ الخُطى للّحَاقِ بآخرِ عربةٍ تقطرُها ترامُ الرملِ قبلَ أنْ تفوتَهَا ، ويضطرانِ لانتظارِ الترامِ القادمةِ والتي قدْ تعِدُهما بضياعِ أملِهما في الحصولِ على مقعدٍ مناسبٍ في الصفوفِ الأُولى.

_ انتظري يا حسناءُ ؛لنْ نستطيعَ اللحاقَ بها.

هكَذَا هتفتْ عالية، ولكنَّ حسناءَ ما كانَ عندَها متسعٌ لتلكَ الرفاهيةِ، فتجاهلتْ نداءَ عالية، وأسرعتْ لتضعَ قدمَها اليُمنى على سُلَّمِ العربةِ، والتي كانتْ بالفعلِ شرعتْ في التحركِ رويدًا كاستجابةٍ لا حيلةَ لَهَا فيهَا، حيثُ أنَّها مقطورةٌ لعربةٍ أمْ يقودُها سائقٌ لا يرى ما يحدثُ بالخلفِ.

تشبثتْ حسناءُ بيدِها اليُمنى في مِقبضِ الترامِ ،واليدُ الأُخرى بسطتْها ؛لتتشبثَ عالية بهَا، والتي كانتْ تهرولُ محاولةً اللحاقَ بها، ولكنْ – وفي أقلِّ منْ طرفةِ عينٍ – قررَ السائقُ غلقَ الأبوابِ والتحركَ بسرعةٍ مفاجئَةٍ.

ارتعشتْ يدُ وقدمُ حسناءَ اللذانِ كانَا يعدَاها بالحصولِ على مقعدٍ مناسبٍ تسعى إليْهِ اليومَ ،ومستقبلٍ مشرقٍ تنشدُهُ، كانَ ليحملَ لها الكثيرَ منْ الآمالِ والسعادةِ.

وقبلَ أنْ تمتدَّ يدُ عالية إليْهَا استسلمتْ حسناءُ لحركةِ العربةِ المفاجئَةِ ؛لتسقطَ أسفلَ عجلاتِها الحديديةِ.....

مشهدٌ لمْ يتجاوزِ اللحظاتِ، ولكنَّهُ كانَ كافيًا لإنهاءِ حياةِ إنسانٍ. ترقَّبتِ الأبصارُ، وتعالتِ الصرخاتُ، وهوتِ الطَّرقاتُ على جسدِ العربةِ الحديديِّ ؛لتنبيهِ السائقِ منَ المحيطينَ،ولكنَّ الأوانَ كانَ قدْ مضَى..

تناثرتِ الدماءُ مصحوبةً بالأشلاءِ لتفترشَ الأرضَ وسطَ ذهولِ ورعبِ الجميعِ.

فجأةً ما تبقَّى منَ الفتاةِ التي كانتْ تضجُّ بالحياةِ وتنبضُ بالأملِ سِوى ذراعٍ كانَ ممتدًّا منذُ لحظاتٍ لعالية، ودماءٍ أرادتْ أنْ تقرأَهَا الوداعَ الأخيرَ بتناثرِها على ثيابِها البيضاءِ.

للحظاتٍ خيَّمَ الصمتُ على جوارحِ عالية ،وتسربتْ إلى نفسِها عواطفٌ يصعبُ تصديقُ كونِها قدْ تجتمعُ في آنٍ واحدٍ وفي نفسٍ واحدةٍ.. الفزعُ، الخوفُ،الأسى،الألمُ،الحزنُ،الحسرةُ، وأضِفْ إليهمْ جميعًا كلَّ ما باستطاعتِكَ إضافتُهُ منْ مشاعرَ سلبيةٍ، ولكنْ ظلَّ سيدَها عدمُ التصديقِ.

للحظاتٍ ظلَّتْ خلالَهَمْ عالية مشدوهةً، عقلُها عاجزٌ عنْ تقديمِ عوْنٍ لها إلى أنْ غلفَهُ الضبابُ وسحبَها إلى القاعِ ؛لتسقطَ فاقدةً الوعيَ.

فتحتْ عالية عينيْهَا لتجدَ جسدَها ممددًا علَى كرسيِّ الانتظارِ في المحطةِ ،والناسُ محتشدةٌ حولَها يسعونَ لإفاقتِها منَ الإغماءِ مستخدمينَ شتَّى السُّبُلِ، منْ سكبِ المياهِ على وجهِها، وجعلِها تستنشقُ عطورَ نفاذةً ، حتَّى نجحواْ بالفعلِ ،واستجابتْ لمحاولاتِهمْ، وفي تلكَ اللحظةِ كانتِ الأسئلةُ مصوبةً نحوَها بلا رحمةٍ.

_ منْ أنتِ ؟ ما اسمُكِ ؟ ما هوَ عنوانُ الفتاةِ التي كانتْ بصحبتِكِ ؟ تحدَّثي، لِمَا أنتِ صامتةٌ هكذا؟ تحدَّثي؛ كيْ نستطيعَ أنْ نخبرَ أهلَها بما حدثَ.

بعينيْنِ ذائغتيْنِ ،ورأسٍ متأرجحٍ كانتْ عالية تتابعُ أسئلتَهمْ غيرَ قادرةٍ على الاستجابةِ لَها، إلى أنْ تدخَّلَ أحدُهمْ ،وفرَّقَ الجمعَ الغفيرَ بسلطةٍ ما لمْ تكنْ عالية تملكُ رفاهيةَ استنتاجِها في تلكَ اللحظاتِ ،ثمَّ قالَ موجِهًا حديثَهُ إليْهَا:

_ هدِّئِي منْ روْعِكِ يا بُنيتِي ،وخذي وقتَكِ ؛حتَّى تستوعبي ما حدثَ.

أغمضتْ عالية عينيْها في إعياءٍ ،وسالتْ دموعٌ حارقةٌ على وجنتيْها تشي بآلامِها.

حاولتِ التحدثَ ،ولكنَّ الكلماتِ هربتْ منْ شفتيْها، فخرجتْ في صورةِ همهماتٍ غيرِ مفهومةٍ ،جثَا منْ بدَا عليْهِ ضابطٌ أمامَها، ثمَّ قدمَ إليْها قنينةَ مياهٍ ،وساعدَها حتَّى تجرعتْ بعضًا منْها. للحظاتٍ انتظرَ حتى تمالكتْ عالية أعصابَها ،ثمَّ قالتْ محزونةً بصوتٍ متهدجٍ:

هذهِ صديقتِي" حسناءُ عبد الخالقِ مُحمد "

أخبرتْ عالية منْ بدَا عليْه ضابطٌ المعلوماتِ التي كانَ في حاجةٍ إليْها لمعرفةِ هُويةِ حسناءَ وعنوانِها ، وما أنِ انتهتْ حتَّى شكرَها على تحامِلِها وشجاعتِها ،ثمَّ أمرَ رجالَهُ بمساعدتِها في العودةِ إلى بيتِها.

انتقلتْ عالية بسيارةِ الشرطةِ إلى بيتِها فاستقبلتْها فريدةُ مذعورةً بعدَ أنِ انقبضَ صدرُها، وغشيَها الكدرُ العميقُ منْ مظهرِها ،والذي بدتْ منْ خلالِهِ وكأنَّهَا خارجةٌ منْ أسفلِ أنقاضٍ، وجَّهتْ فريدةُ سؤالَها إلى الشرطيِّ الذي تولَّى حملَ عالية مستفهمةً:

_ ماذَا حدثَ ؟! ما بَها ؟!

أجابَها الشرطيُّ مطمئنًا أثناءَ مساعدتِه لها على الاسترخاءِ على المِقعدِ قائلًا:

_ لا تقلقي يا سيدتي ،فابنتُكِ بخيرٍ ،لمْ يصبْهَا مكروهٌ أمَّا صديقتُها ،فقدْ دهستْها الترامُ.

_ عالية ما بكِ ؟ ماذَا حدثَ ؟!

ولكنَّ عالية لمْ تجبْ ،فتطوَّعَ الشرطيُّ بالإجابةِ بدلًا منْها مُعللًا:

_ سيدتِي لقدْ مرَّت بحادثةٍ مفجعةٍ ، واستطعْنا أنْ نُخرجَ منها المعلوماتِ المطلوبةِ لمعرفةِ هويَّتِها بصعوبةٍ بالغةٍ ، دعيهَا لتستريحَ الآنَ ، فليسَ هُناك داعٍ لتذكِّريها بما حدثَ.

بتلكَ الكلماتِ المقتضبةِ أخبرَ الشرطيُّ فريدةَ بحادثةِ حسناءَ البشعةِ ،ورحلَ في هدوءٍ دونَ تقديمِ تفاصيلٍ أُخرى.

انصاعتْ فريدةُ لنصيحةِ الشرطيِّ ،ولمْ تطالبْ عالية المكلومةَ بتقديمِ تفسيراتٍ ،واكتفتْ بتفحصِها للتأكدِ منْ أنَّ مكروهًا لمْ يصبْها ،ومنْ ثمَّ ساعدتْها على الولوجِ إلى غرفتِها ، دثرتْها بالأغطيةِ بعد أن ساعدتها علي استبدالِ ملابسَها لَما لمستْهُ منْ رعشةٍ أصابتْ أطرافَها ،ثمَّ جلستْ بجوارِها في صمتٍ حتَّى داعبَ النومُ أجفانَ عالية رأفةً بحالِها.

اطمأنَّتْ فريدةُ على ابنتِها أنَّها غابتْ في سُباتٍ عميقٍ ،واستبدلتْ ثيابَها عازمةً على الذهابِ إلى أسرةِ حسناءَ لمواساتهمْ في مصيبتهمُ العظيمةِ ،ولعلَّها تفهمُ ما

حدثَ تفصيلًا ،وقبلَ أنْ ترحلَ رمتْ عالية بنظرةٍ مطولةٍ مشفقةً ،ثمَّ تولتْ مدبرةً.

خلَا البيتُ إلا منْ عالية.

استيقظتْ على صرخةٍ مكتومةٍ في حلقِها،وعباراتٍ ساخنةٍ بللتْ صفحةَ وجهِهَا، ومشهدٍ مفجعٍ ينبضُ أمام عينيْها ،سيظلُّ ذِكرى لمْ يعدْ في الإمكانِ أنْ تتلاشى..

حاولتِ المقاومةَ، حاولتْ طردَ تلكَ اللحظةِ المؤلمةِ منْ رأسِها، ولكنَّها أصبحتْ جزءًا من مقلتيْها، متى طرفتْ ومضتْ.

لا تعرفُ منْ أينَ تبدأُ، ولا ماذا حدثَ، ولكنْ ما هيَ متأكدةٌ منهُ أنَّ تلكَ الحياةَ ما عادتْ قابلةً للتحمُّلِ.

_ لنْ أستطيعَ أنْ أنسى ، هذهِ الحياةُ لا تتسعُ لي، ولمْ أُخلقْ لمثلِها.

هكذا ناجتْ عالية نفسَها يائسةً بائسةً ، وسُرعانَ ما اتخذتْ قرارَها،والذي كانَ تحولُ بينَها وبينهُ حسناءُ، وأمَّا بعدَ أنْ قضتْ نحبَها اليومَ بتلكَ الصورةِ البشعةِ أمامَ عينيْها فمَا عادَ ثمةَ ما هوَ قادرٌ على ردْعِها.

الموتُ قدمَ إليْها كلَّ المبرراتِ والدوافعِ ؛لتعانقَهُ مقبلةً الخُطى ، خائرةَ القُوى ، راضيةَ الهوى. وكأنَّهُ عاشقٌ أضناهُ الهجرُ يسعى للوصلِ.

نهضتْ بنفسٍ قانطةٍ، وجسدٍ مترنحٍ ،وعينٍ شاخصةٍ، ويدٍ مرتعشةٍ امتدتْ إلى خزانتِها، وكانَ السكونُ قدِ استولى على البيتِ ، وكادَ الإعتامُ أنْ يعمَّ الغرفةَ

الصغيرةَ ، التقطتْ عالية علبةَ أقراصِ الموتِ التي كانتْ قدِ ادَّخرتْها لحينِ الحاجةِ ،وعادتْ إلى الفراشِ، أخرجتِ الأقراصَ ببطءٍ، ولكنْ بثقةٍ رفعتْها إلى فمِها متمنيةً أنْ يُنعمَ عليها الموتُ بموتةٍ هادئةٍ ، راجيةً أنْ يسامحَها ربُّها على ضيقِها ذرعًا منْ دنيتِها التي أودتْ بها إلى طلبِ الموتِ ؛لتلحقَ به في ملكوتِ السماواتِ بعيدًا عنْ دنسِ الدنيا الغرورةِ.

***

_ لا يا عالية ،لنْ أسمحَ لكِ.

فتحتْ عالية عينيْها لتجدَ أمامَها رفيقَها يقفُ حائلًا بينَها وبينَ الموتِ، صارخًا بتلكَ الكلماتِ.

أخفضتْ يدَها التي حملتْ أقراصَ الموتِ ،وانفجرتْ في بكاءٍ حارٍّ يمزقُ نياطَ القلوبِ ؛لتختلطَ المشاعرُ بينَ جوارحِها ،فلا تعرفُ هلْ هيَ حزينةٌ أمْ فرحةٌ برؤْيتِهِ..

_ أنتَ؟!! أينَ كنتَ طوالَ الفترةِ المنقضيةِ ؟! لقدْ حسبتُكَ وهمًا أصابَ عقلي. أمْ أنَّك حقًّا وهمٌ عادني منْ جديدٍ لوهنِ نفسي !!

_ لا يا عالية، أنَا حقيقةٌ، ودائمًا ما كنتُ ، فقطْ لمْ يكنْ في استطاعتي التواصلُ معكِ ؛لعدمِ حاجتِكِ الماسَّةِ إليَّ في الفترةِ المنقضيةِ ،إلى جانبِ عدمِ توافرِ الشروطِ التي تعاهدْنَا على تحقيقِها.

_ ولكنَّكَ أتيتَ الآنَ ولمْ أستدعِكَ ؟

_ كانْ لا بُدَّ وأنْ أخالفَ القواعدَ منْ أجلِكِ، فلنْ أقفَ مكتوفَ الأيْدي ،وأراكِ تقتلينَ نفسَكِ هباءً.

ابتسمتْ عالية ساخرةً ،ثمَّ قالتْ في أسًى:

_ هباءً !! أنتَ لا تعرفُ شيْئًا.

_ بلْ أعرفُ كلَّ شيْءٍ، وليسَ منَ اليومِ ، ولكنَّ هذا لا يستدعي أن تؤدي بحياتِكِ.

_ لمْ تعدْ حياتي تحتملُ، أنا غيرُ قادرةٍ على الاستمرارِ ؛فالدنيا تولِّي لي ظهرَها منذُ أنْ وضعتُ في رحمِ أمِّي. واليومَ وبعدَ ما علمتُهُ عنْ أُسرتي، وما رأيتُهُ من مصرعِ صديقتي الوحيدةِ أمامَ عيني بتلكَ الطريقةِ البشعةِ ما عدتُّ أستطيعُ أنْ أكملَ في حياةٍ تصرُّ على لفْظِي خارجَها.

_ هيَ ما عادتْ تريدُني، وأنَا أيضًا ما عدتُّ أريدُها.

_ صديقتِي الوحيدةُ-كذلِكَ- التي جادتْ عليَّ بها الأيامُ القلائلُ الماضيةُ لقيتْ حتفَها أمامي ،وما كانَ باستطاعتي إنقاذُها ، لقدْ كان مشهدًا مهيبًا لنْ يفارقَ ذاكرتي ما حييتُ ،ليسَ أمامي سوى الهربِ بالموتِ،اليومُ سأضعُ حدًّا لمعاناتي، وأريحُ نفسي، لعلِّي أجدُ السلامَ الذي خاصمَني في دُنيتي.

قالتْها عالية ،وهبَّتْ برفعِ الأقراصِ إلى فمِها مرةً أُخرى دامعةَ العينيْنِ.

_ تمَّهلي يا عالية ؛فلديكِ منْ لدنِّي عرضٌ..

قالَها رفيقُها ملاحقًا إيَّاها ليمنَعَها ممَّا تقدمُ عليْهِ.

فمَا كانَ منْ عالية إلا أنْ أخفضتْ يدَها مرةً أُخرى ،لتسمعَهُ بمزيدٍ منَ الدهشةِ والشغفِ.

_ صدِّقيني يا عالية ،أنا صادقٌ فيمَا أقولُ.

_ ماذا تعني ؟!!

_ ما دافعُكِ للانتحارِ ؟!! أليسَ التخلص منْ تلكَ الحياةِ التي شقَّت على نفسِك ؟!! أنا سأمنحُكِ مُبتغاكِ، ولكنْ دونَ انتحارٍ ، فما رأيُكِ؟

_ أنا لا أفهمُ شيئًا ممَّا تقولُ، أرجُو التوضيحَ.

_ منذُ أبدِ الدهرِ والمعبرِ بينَ عالمينَا لا يتمُّ تجاوزُهُ سِوى في اتجاهٍ واحدٍ ،منْ عالمِنا إلى عالمِكمْ، وعلى قدرِ علْمي لمْ يحدثِ العكسُ مطلقًا ،ولكنَّني منْ أجلِك سأُقدمُ على تلكَ المجازفةِ، والتي قدْ أُعاقبُ أشدَّ العقابِ منْ أجلِها. سأجعلُكِ تعبرينَ إلى عالمِنا ؛لتتخلصي منْ حياتِكِ تلك، وفي ذاتِ الوقتِ لا تسلمي نفسَكِ للموتِ طواعيةً وبذلكَ أمنحُكِ فرصةً أُخرى لعلَّكِ تعدِلينَ عنْ رغبتِكِ في الموتِ.

عادتْ عالية لتسألَ منْ جديدٍ بعدَ أنْ تسللتْ إلى عينيْها نظرةُ تحدٍّ واضحةٌ:

_ ولكنَّ عالَمكمْ هذا كيفَ سيُنسيني آلامي ،وحقيقةَ أنِّي عارُ أبي وخطيئةُ أُمِّي ، ومشهدَ موتِ صديقتي الوحيدةِ أمامَ عيْني ؟ كيفَ سأتغلَّبُ عليهِ يومًا ما ؟

_ لنْ أعدَكِ يا عالية بالنسيانِ، ولكنَّني أعدُك بنقاءِ روحٍ، وصفاءِ نفسٍ، واللذيْنِ سيقدمانِ لكِ دعوةً للتصالحِ معَ ذكرياتِكِ المؤلمةِ، وفي النهايةِ تلكَ

رحلةٌ مهداةٌ منْ رفيقِكِ، نهايتُها فقطْ ستحدِّدُ رؤيتَكِ ومستقبلَكِ ، وبخصوصِ إنهائِكِ لحياتِكِ ،وقتلِكِ لنفسِكِ فهوَ دائمًا متاحٌ ، فقطْ أعطِ نفسَكِ فرصةَ التجربةِ، فهيَ حقًّا تستحقُّ.

لاحَ شبحُ ابتسامةٍ على ثُغرٍ عالية ،وكأنَّ نسماتِ الأملِ هبَّتْ على روْحها ؛لتنعشَها منْ جديدٍ ؛فتمنحَها دافعًا لتحيى غدَها.

وعندَما رأى رفيقُها ابتسامتَها الرقيقةَ استشعرَ أنَّ عرضَهُ قدْ حظيَ بالقبولِ في نفسِها ،ممَّا دفعَهُ لإكمالِ حديثِهِ محذرًا:

_ ولكنَّ هناكَ أمرًا يجبُ أنْ أعلمَكِ بهِ قبلَ أنْ أَقدمَ على المُضيِّ قِدمًا في تنفيذِ عرْضي.

فلاحقتْهُ عالية متسائلةً في ارتباكٍ بعدَ أنْ شعرتْ أنَّ أملَها قدْ تعرقلُهُ العثراتُ:

_ وما هو ذلكَ الأمرُ؟؟

_ أنا لا أعلمُ شيئًا عنِ الكيفيةِ التي سيستقبلونَكِ بها عشيرتي. أيْ أنَّني لا أعلمُ هلْ سيتقبلونَكِ أمْ لَا ،ولذلكَ فأنَا أخشى أنَّ تلكَ مجازفةٌ ومغامرةٌ لكليْنا،وليستْ لي وحدِي،ولكنَّني قادرٌ على تحمُّلِ عاقبتي، أمَّا بخصوصِكِ، فأنَا لا أعلمُ إنْ كانَ في إمكانكِ المضيُّ قدمًا في تلكَ المغامرةِ أمْ لا.

_ بالطبْعِ يمكنُني.

قالتْها عالية باندفاعٍ ،وبلا تفكيرٍ يُذكرُ، وهذا ما كانَ يتوقعُهُ رفيقُها..

لمْ يعلقْ ،وابتسمَ في رقةٍ ،ثمَّ قالَ:

_ إذًا فلِمَا الانتظارُ ؟!!!

***

_ وكأنَّها الجنةُ !!

قالتْها عالية شاهقةً بعينيْنِ لامعتيْنِ وثغرٍ بسامٍ.

فمَا أنْ خطَّتْ أُولى خطواتِها في عالمِ الضياءِ حتى انتابتْها حالةٌ منَ الإبهارِ والرهبةِ التي طبعتْ في نفسِها وبينَ جوارحِها أثرًا منَ البهجةِ والنشوةِ لنْ تمحيه شدائدُ الدهرِ.

فقدْ رأتْ ما لا تراهُ عينًا منَ حدائقَ منْ نخيلٍ وأعنابٍ وأشجارٍ منَ التينِ والزيتونِ ،ونخيلٍ يزهو طرحُهُ وكأَنَّهُ الثُّريَّا ،وجداولِ مياهٍ رقراقةٍ تنسابُ بينَ ضفافِها الخصبةِ ،والتي تزهو بزهورِها اليانعةِ ،و ينابيعِ مياهٍ تتفجرُ بزلالِ مياهِها في مشهدٍ خلابٍ يؤسرُ العقولَ و يخطفُ الأنفاسَ ،وطيورٍ تلونتْ بأزهى الألوانِ تطوفُ في حريةٍ ودلالٍ ،وكأنَّها عروسٌ في ليلةِ زفافِها.

وسمعتْ ما لا سمعتهُ أذنًا..منْ ترانيمِ طيورٍ تعزفُ ألحانًا خلابةً ،تسرقُ منَ الحواسِّ الشعورَ بالزمنِ؛ لتمتزجَ بهديرِ المياهِ في وديانِها فتنسجانِ لوحةً سمعيةً خلابةً.

فمَا كانَ منْ خطواتِها إلا أنِ انسابتْ كمَا تنسابُ المياهُ في شلالٍ؛ لتغرسَ أقدامَها بينَ العشبِ الرطبِ الذي أمدَّ جسدَها برطوبتِهِ وعذوبتِهِ جاعلًا الحيويةَ تدبُّ بينَ خلاياها اليابسةِ ،وكأنَّها نبتةٌ مرحبً بغرسِها في تربتِهِ الحنونِ.

فقدْ أُسرتْ حواسُّها ،وعجزتْ روحُها عنِ استيعابِ كلِّ هذا السحرِ ؛لتهيمَ على وجهِها دونَ أنْ تعطيَ انتباهًا لشيْءٍ سوى إلى لوحاتِ الطبيعةِ التي يعجزُ أعظمُ فنانٍ عنْ تخيُّلِها ،غيرَ عابئةٍ بتحذيراتِ رفيقِها الذي سعَى لاستمهالِها حتَّى يُؤذنَ لَها.

وذلكَ حتَّى وجدتْ منْ يستوقفُهُما.

تنبهتْ عالية أخيرًا إلى منْ يعترضُ طرقَهُمَا قائلًا:

_ أنتُما مطلوبانِ للمثولِ في حضرةِ القائدِ الأعلى.

رمقتْ محدثَهما ،فرأتْ شابًّا مفتولَ العضلاتِ، حادَّ النظراتِ، عميقَ النبراتِ، وجهُهُ لا يختلفُ كثيرًا عنْ وجهِ رفيقِها منْ حيثُ إشاعةِ الضوءِ منهُ على الرغمِ منْ أنَّ قسماتِهِ بدتْ وكأنَّها أكثرُ حدةً.. عينيْنِ ثاقبتينِ.. حاجبينِ معقوفينِ.. وذقنٍ مدببٍ.. سماتٌ دلتْ بكثيرٍ منَ الاستفاضةِ علَى أنَّهُ حارسٌ لشيْءٍ مَا.

أُربكتْ عالية ،وتراجعتْ خطوتينِ إلى الخلفِ ؛لتضعَ رفيقَها حائلًا بينَها وبينَ منْ بدَا حارسًا ،فمَا كانَ منْ رفيقِها إلَّا أنْ تقدَّمَ بجسارةٍ مُحدثًا إيَّاه بنبراتٍ هادئةٍ.

_ ونحنُ مستجيبانِ لطلبِهِ.

قالَها ،ثمَّ التفتَ إلى عالية مُحدثا إيَّاها بخفوتٍ بعدَ انسحابِ الحارسِ:

_ عالية! لقدْ تمَّ استدعاؤُنا، ووجبَ علينْا المثولُ؛ لذا هناكَ عدةُ ملاحظاتٍ يجبُ أن تنتبهي إليها جيدًا عند ولوجِك في حضرةِ القائدِ الأعلى..

_ أولًا: يجبُ أن تدخلي مطأطئةَ الرأسِ، فلا ترفعي عينَك نحوه إلا إن سمحَ لكِ، لا تتفوهي بكلمةٍ واحدةٍ أثناء حديثي معهُ، إنْ حدثَكِ فأجيبيهِ بإيماءةٍ منْ رأسِك قدر المستطاعِ، وإنِ اضطررتِ إلى الحديثِ فخيرُ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ، وعند سماحِه لك بالانصرافِ فلا تُديري لهُ ظهرَكِ، وإنَّما تقهقري بخطواتِك مطأطئةَ الرأسِ، وخلالَ طريقِنا لا تنتبهي كثيرًا لنظراتِ المحيطينَ بنا ،ولا توليهمُ اهتمامَكِ..

ثمَّ أتبعَ بلهجةٍ حملتِ الكثيرَ منَ التحذيرِ في طيَّاتِها:

_ عالية ! هُنا لا مجالَ للخطإِ، فهذَا العالمُ يختلفُ كثيرًا عنْ عالمِكمْ.

أومأتْ عالية كنايةً عنِ التفهمِ ،ثمَّ أتبعتْ بنبراتٍ مرتعشةٍ قائلةً:

_ هلْ؟! هل سنعاقبُ ؟!!

_ لا أظنُّ أنَّ العقابَ سيشملُكِ لجهلِكِ بقوانينِنَا.،أمَّا بالنسبةِ لي فأعتقدُ أنْ نعمْ.

قالَها ،ثمَّ أشارَ لها أنْ تعجِّلَ الخُطى للحاقِ بموعدِ القائدِ الأعلى..

***

طوالَ طريقِهما والنظراتُ المستطلعةُ تلاحقُهما، فهذَا حدثٌ فريدٌ منْ نوعِه، فلمْ يسبقْ وأنْ عبرَ أحدٌ منَ البشرِ إلى عالمِهمْ قبلَ ذلكَ، ولكنَّ عالية كانتْ خيرَ منْ يتبعُ الأوامرَ والتعليماتِ،فظلتْ عيناهَا طارقةَ الأرضِ العشبيةِ ،تتابعُ خطواتِها المتعجلةَ بقدميْها الحافيتيْنِ الدقيقتيْنِ.

وفجأةً توقَّفَ رفيقُها.

رفعتْ عالية عينيْها ؛لتجدَ أمامَها بوابةً عظيمةً منْ خشبِ البلوطِ تمثلُ المعبرَ الوحيدَ لأسوارٍ شاهقةِ الارتفاعِ ، يكسوها نباتُ اللبلابِ بالكاملِ بدأً منْ أعلاها منتهيًا بالأرضِ العشبيةِ.

وفي تلكَ اللحظةِ تحركَ حارسانِ كانا على جانبيِ البوابةِ ؛ليفتحا لهمَا سامحيْنِ لُهما بالعبورِ.

دلفتْ عالية إلى الداخلِ - يتقدمُها رفيقُها -تحثُّ الخُطى، وفي طريقِها نحوَ باحةِ القصرِ أُسرتْ روحُها بالمشاهدِ الخلابةِ التي شملتْها حديقتُهُ منْ باقاتِ الزهورِ التي تجمعُ جمَّ الألوانِ الزاهيةِ، تتوسطُهمْ فسقيةٌ منَ الجرانيتِ الفضيِّ اللامعِ ،تتفجرُ منها المياهُ كاللآلئ ، وعلى الجانبينِ تراصَّتْ أشجارُ الأعنابِ ؛لتتهادى ثمارُها منَ الأغصانِ كالثُّريَّا.

انتهتْ حديقةُ القصرِ ؛لتجدَ أمامَها بوابةً أُخرى مفتوحةً على مصراعيْها مستعدةً لاستقبالِ الوافدينَ، وقدْ كانتْ لا تماثلُ سابقتَها في الارتفاعِ، ولكنَّها تعلوها في دقةِ الزخارفِ المطعمةِ بالفضةِ والنحاسِ.

دلفَ رفيقُها إلى بهوِ القصرِ منكَّسَ الرأسِ ،فتبعتْهُ عالية متبعةً التعليمات التي أحاطَها بها.

عيناهَا لا ترى سِوى الأرضيةِ الرخاميةِ ناصعةِ البياضِ ،تحثُّ الخُطى لتلحقَ برفيقِها الذي يسبقُها بمَا يعادلُ الخطوتيْنِ ، وذلكَ إلى أنْ توقَّفَ، فمَا كانَ منها إلا أنْ توقفتْ هيَ الأُخرى تنتظرُ مرورَ اللحظاتِ القادمةِ بسلامٍ.

_ أقدِمْ يا رحيمُ.

دوَّت أصداءُ العبارةِ السابقةِ منْ في القائدِ الأعلى بلهجةٍ آمرةٍ ؛ليهتزَّ على إثرِها جدرانُ بهوِ القصرِ على اتساعِهِ، فارتجفتْ عالية ،وتسارعتْ دقاتُ قلبِها خوفًا وجزعًا، ولكنَّ عقلَها على الرغمِ منِ ارتعادِهِ التقطَ اسمَ رفيقِها الذي للمرةِ الأُولى يطرقُ آذانَها..

وفي لحظاتٍ كانَ رحيمٌ يُلبِّي الأمرَ متقدمًا نحوَ العرشِ لبضعِ خطواتٍ واثقةٍ جسورةٍ ،ولكنَّهُ ظلَّ محتفظًا بانحناء رأسِهِ..

وحينَئِذٍ عادَ الصوتُ القويُّ الآسرُ ؛ليتردَّدَ في الأرجاءِ مرةً أُخرى متسائلًا في استنكارٍ:

_ أتعلمُ أنَّ ما أقدمتَ على اقترافِهِ لمْ يسبقْ وأنْ أقدمَ عليهِ أحدٌ منذُ بدءِ عهدِنا معَ بني آدمَ ؟!!

أجابَهُ رحيمٌ بنبرةٍ حملتْ في طيَّاتِها الكثيرَ منِ استجداءِ الرحمةِ قائلًا:

_ أعلمُ يا سيدي ، ولكنَّني كنتُ مضطرًّا لما اقترفتُهُ منْ تجاوزٍ.

_ ولكنَّكَ بفعلتِكَ تلكَ خرقتَ قانونًا ما يجبُ خرقُهُ حتى في أحلكِ الظروفِ.

_ أعذرْني سيدي ، ولكنَّ جوهرَ وجودِنا يكمنُ فيما نقدِّمُهُ منْ حكمةٍ وتنويرٍ للمختارينَ منْ بني آدمَ، عالية على الرغمِ منْ نقاءِ قلبِها وصفاءِ روحِها كانتْ ستقدمُ على ارتكابِ أبشعِ جُرمٍ في الإنسانيةِ، وهوَ إزهاقُ الروحِ، وليستْ أيّةَ روحٍ ،وإنَّما هيَ روحُها ذاتُها، أيْ: أنَّها كانتْ لتحرمَ طلبَ التوبةِ والغفرانِ ؛ولذلكَ فما استطعتُ أن أقفَ مكتوفَ الأيدي ،منتظرًا لما من شأنِهِ حرمانِها رحمةِ اللهِ ومغفرتِهِ. واتخذتُ قرارًا يجرُمُهُ قانونُنَا ،طامعًا في عطفِكَ وحسنِ تقديرِكِ.

هبَّ القائدُ الأعلى واقفًا ،فارتعدتْ أجواءُ القصرِ مهابةً ،ممَّا انعكسَ على عالية التي ماجتْ بينَ جوارحِها شتَّى العواطفِ؛ ليمتزجَ الخوف بالدهشة، والفضول بالرغبة في الفرار، ولكنَّها على الرغمِ منْ ذلكَ حافظتْ على التزامِها بأوامرِ رفيقِها رحيمَ، متحاشيةً الإتيانَ بما من شأنِهِ إغضابِ القائدِ الأعلى؛ لترويَ فضولَها ،أو لتطمئنَ قلبَها.

عادَ الصوتَ المهيبَ يترددَ مرةً أُخرى، ولكنَّهُ في تلكَ المرةِ كانَ مُوجهًا إلى عالية قائلًا:

_ أيتُها البشريةُ! لقدِ اخترقتِ عالَمَنا،على الرغمِ منْ أنَّكِ غيرُ مرحبٍ بكِ، ولكنَّني سأحترمَ القدرَ الذي ألقى بكِ إلى هُنا، ولنْ أسلبَكِ الفرصةَ التي أتتْكِ لعلَّكِ في حاجةٍ ماسةٍ إليْها، وعلى ذلكَ فإقامتُكِ هُنا ستستمرُّ شهرًا بتوقيتِ قمرِكمْ، وعندَ اكتمالِ تمامِهِ سيكونُ لكِ حريةَ اختيارِ أمرٍ منَ اثنيْنِ:

_ الأولُ: هوَ أنْ تصيري فردًا منَّا، لكَ ما لنَا وعليْكِ ما عليْنا. أمَّا الثاني:فهوَ أنْ تعاودي أدراجَكِ إلى عالَمِكِ مرةً أُخرى ، وفي تلكَ الحالةِ ستكونينَ اكتسبتْ منَ الحكمةِ والمعرفةِ ما لمْ ينلْ شرفَهُ سِواكِ منْ بني البشرِ ، ولذلكَ فرفقتُكِ برحيمَ ستنتهي بشكلٍ أبديٍّ.

_ القرارُ لكِ، فأحْسني الاختيارَ.

أنهّى القائدُ الأعلى كلماتِهِ الموجهةَ صوبَ عالية، والتي كانتْ تنصتُ إليها باهتمامٍ شابَهُ الخوفُ، فهيَ كانتْ تخشى أنْ يلحقَها عقابٌ ما ،أوْ أنْ تطردَ منْ ذلكَ العالمِ الحالمِ الذي عجزتْ أحلامُها ذاتُها على الإتيانِ بنظيرٍ لهُ، ولكنْ ما أنِ انتهى الحديثُ بحريتِها في اختيارِ مصيرِها حتى ارتاحَ قلبُها، وسكنتْ جوارحُها، وطابتْ نفسُها..

وناجتْها نفسَها بكونِها بالطبعِ لنْ تحتاجَ تلكَ المهلةَ، وبأنَّها اتخذتْ قرارَها بالفعلِ منذُ أنْ وطِئَتْ قدمُها بساتينَ ذلكَ العالمِ المثاليّ.

لنْ تبرحَهُ ما دامتْ حيةً ، ولولا تحذيرُ رحيمَ لها بعدمِ المبادرةِ بالحديثِ إلَّا إنْ سُمحَ لها ،لكانتْ حسمتْ أمرَها الآنَ، ولأعلنتْ قرارَها برغبتِها في أنْ تكونَ فردًا منهمْ.

ولذلكَ فمَا كانَ منْها إلَّا أنْ أوْمأتْ برأسِها كنايةً عنِ الموافقةِ والقبولِ ،معَ احتفاظِها بوضعيةِ رأسِها المنكسةِ قدرَ الإمكانِ.

_ أمَّا أنتَ يا رحيمُ فعلى الرغمِ منْ حسنِ نواياكَ، والرحمةِ التي تمثلُ جوهرَ وجودِكَ، إلَّا أنَّكَ لنْ تفلتَ منَ العقابِ، وعقابُكَ سيكونُ سجنَكَ طوالَ المهلةِ المحددةِ لعالية لحينِ اتخاذِ قرارِها.

وما أنْ أنهى القائدُ الأعلى حكمَهُ حتَّى كانَ الحراسُ يتقدمونَ بخطًى رتيبةً نحوَ رحيمَ ؛ليقودوهُ إلى السَّجنِ تنفيذًا للحكمِ.

وفي تلكَ اللحظةِ فقطْ استدارتْ عالية لترنوَ إليهِ قبلَ ذهابِهِ ،وقدِ اغْرَوْرَقتْ عيناهَا بعباراتٍ حارَّةٍ جاهدتْ لحبسِها بينَ أسوارِ أهدابِها، فتلاقتِ الأعينُ، وأفاضتْ في حديثِ حملَ عباراتِ الوداعِ المؤلمةِ ، ولكنَّهما كانَا يعلمانِ جيدًا أنْ لا مفرَّ منَ العقابِ.

تحرَّكَ رحيمُ يقودُهُ الحرسُ بخطًى ثقيلةً منصاعةً تتبعُهُ نظراتُ عالية الوجلةِ ،التي تأبى تصديقَ ما يحدثُ.

وهنا قطعَ حبلَ أفكارِها الحرسُ الذينَ أتوْا ؛ليقودوهَا هيِ الأُخرى نحوَ الخارجِ ، خرجتْ عالية منَ القصرِ تجرُّ قدميْها جرًّا، لا تعلمُ أينَ يمكنُها الذهابُ، والعالمُ الذي كانَ منذُ لحظاتٍ يمثلُ رحابةِ الدنيا صارَ أضيقَ منِ احتمالِها .

عاودتْ عالية أدراجَها بخطًى ثقيلةٍ إلى المكانِ الذي شهدَ أولى خطواتِها في ذلكَ العالمِ منذُ مدةٍ زمنيةٍ عجزتْ عنْ تقديرِها، وافترشتِ الأرضَ العشبيةَ

بثوبِها الأبيضَ الفضفاضَ ؛لتجلسَ شاردةَ الذهنِ لا تعلمُ ماذا تحملُ لها اللحظاتُ القادمةُ.

وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ وجدتْ منْ تتقدمُ نحوَها ،وعلى وجهِها ابتسامةٌ عريضةٌ ،إنَّها فتاةٌ في ربيعِ العمرِ ،ترتدي ثوبًا ورديًا حريريًّا منسدلًا حتَّى أخمصِ قدميْها في نعومةٍ وانسيابيةٍ ؛ليموجَ برفقةِ قوامِها الممشوقِ ،فيضفي كلاهُما على الآخرِ دلالًا ورقةً ؛ ولتبدوَ وكأنَّها عُشبةٌ يانعةٌ تتمايلُ معَ النسماتِ العذبةِ، حاسرةَ الرأسِ يتدلَّى شعرُها الأسودُ البراقُ حتَّى خصرِها النحيلِ ،صانِعًا تمُّوجاتٍ تتناسبُ و تموُّجاتِ ثوبِها.

وجهُها يحملُ ذاتَ الضياءِ مثلها كمثلِ سائرِ أبناءِ ذلكَ العالمِ ،يزيدُهُ بهاءً عينانِ زرقاوانِ زرقة اليمِّ ،وثغرٌ ورديٌّ بسامٌ ، ولوهلةٍ خُيّلَ إلى عالية أنَّها حسناءَ، فتسربتْ إلى شفاهِها بسمةٌ يائسةٌ ،سُرعانَ ما تلاشتْ عندمَا أقبلتْ فاتنةُ المحيَّا؛ لتجلسَ في المقابلِ منْها، وهُنا أدركتْ عالية كونَها فقطْ تتوهمُ لاشتياقِها لصديقتِها، ولتمنيِها لروحِها حياةٍ برزخيةٍ تُحاكي تلكَ التي تراهَا ها هُنا.

افتتحتِ الفتاةُ حديثها قائلةً:

_ اسمُكِ عالية.. أليسَ كذلكَ؟!

_ بلى أنَا عالية.

أجابتْهَا عالية واجمةً بعدَ أنْ أسرَها وألجمَ لسانَها حسنُها الأخَّاذُ. فعالية اعتادتْ أنْ تقدرَ الجمالَ وتوقرَهُ ،وكأنَّ لهُ حضورًا طاغيًا في نفسِها، فهيَ تراهُ منْ تجلياتِ الخالقِ في خلقِهِ، هذَا بالطبعِ إلى جانبِ شعورِها الدائمِ بافتقارِها إليْهِ،ولذلكَ فلا تستطيعُ أنْ تمنعَ نفسَها عنْ تمنيهِ.

_ أنَا رحمةُ خليلةُ رحيمَ، وأنَا الموكلةُ بالاهتمامِ بكِ لحينِ انقضاءِ مهلتِكِ وخروجِهِ منْ محبسِهِ.

قالتْها واضعةً راحتَها على صدرِها في إشارةٍ إلى ذاتِها، مُعرفةً إيَّاها معَ احتفاظِ ثغرِها بابتسامتِهِ الخلابةِ.

بالطبعِ مرَّتْ كلمةُ رحمةَ على مسامعِ عالية سريعًا، ولكنَّها تركتْ في نفسِها تساؤلًا أرجأتْ طرحَهُ، فهناكَ تساؤلاتٌ أهمُّ وأكثرُ إلحاحًا تجولُ في خاطرِها الآنَ، ولكنْ وقبلَ أنْ تهمَّ بالحديثِ بادرتْها رحمةُ بأنْ هبَّتْ واقفةً لتمدَّ لها يدَها في إشارةٍ تعني وجوبَ الرحيلِ.

منحتْها عالية يدَها في استسلامٍ وخنوعٍ ؛ليسيرَا معًا عبرَ الحدائقِ والمشاهدِ الخلابةِ آسرةِ اللبابِ، ولكنَّ عالية أغفلتْ كلَّ ذلكَ، فهناكَ ما يشغلُ بالهَا ويعكرُ صفوَ نفسِها، وهوَ كيفيةُ قضائِها ذلكَ الشهرِ وحيدةً في عالمٍ لا تعلمُ عنْ حدودِهِ وقوانينِهِ شيئًا بدونِ رفيقِهَا.

وذلكَ إلى أنْ بادرتْ رحمةُ بالقولِ مستفهمةً:

_ تفتقدينَ رحيمَ ،أليسَ كذلكَ ؟!!

فأجابتْها عالية واجمةً:

_ بلَى كثيرًا.

_ أعلمُ ما تشعرينَ بهِ الآنَ، ولذلكَ أنا معَك، فاطمئِنِّي ولا تشغلي بالَكِ كثيرًا ، ستكونُ إقامتُكِ معنَا لحينِ اتخاذِ قرارِكِ ممتعةً ، وسأسْعى بكلِّ ما أوتيتُ منْ عزمٍ توفيرَ سبلِ الراحةِ لكِ.

ابتسمتْ عالية في امتنانٍ ثمَّ تساءلتْ:

_ ولكنْ إلى أينَ نحنُ ذاهبتانِ ؟!!

_ إلى المنزلِ الشماليِّ ،وهوَ محلُ إقامتِكِ الذي خُصِصَ لكِ.

_ لا تقلقي فلقدِ اقتربْنا كثيرًا.

_ وهلْ سأحيى به بمفردِي ؟!!

_ نعمْ، ولكنَّني سأمرُّ عليْكِ باستمرارٍ لتقديمِ المساعدةِ، ولذلكَ أتمنَّى أنْ تعدِّيني رفيقتَكِ منذُ الآنَ إلى أنْ يعودَ رحيمُ.

لمْ تجبْ عالية، فقدْ عادَ ذهنُها إلى شرودِهِ مرةً أُخرى طارحًا عليْهَا عدةَ تساؤلاتٍ، أهمَّها هوَ كيفَ ستحيى وحيدةً في عالمٍ تجهلُ مخاطرَهُ ؟!

ولكنْ ما هيَ إلا لحظاتٌ حتَّى وجدتْ عالية أمامَها بوابةً عملاقةً ،تحفُّها أسوارٌ شاهقةُ الارتفاعِ منَ الجانبيْنِ مفتوحةٌ على مصراعيْها.

تقدمتْ رحمةُ بخُطًى واسعةٍ تلحقُها عالية بعدَ أنْ عادَ إليْها شغفُها بروعةِ المنظرِ؛ لتغوصَ في تفاصيلِهِ بنظرِها.

فما أنْ دلفتْ عالية إلى الحيِّ السكنيِّ كمَا أعلمتْها رحمةُ في اقتضابٍ حتَّى لا تستحوذَ ولوْ على قدرٍ ضئيلٍ منِ انتباهِها الذي بدَا واضحًا على مُحياهَا حتى رأتْ أجملَ وأروعَ تخطيطٍ عمرانيٍّ..

فقدْ وجدتْ نفسَها تسيرُ على طريقٍ ممهدٍ منْ أحجارٍ صغيرةٍ أرجوانيةِ اللونِ يمتدُّ بطولِ البصرِ على أنْ يقطعَهُ عرضيًّا جدولٌ منَ المياهِ العذبةِ الرقراقةِ، فيقسمُهُ نصفيْنِ يصلُ بينهُمَا جسرٌ خشبيٌّ طُلِيَ باللونِ الأرجوانيِّ، وعلى جانبيِ الطريقِ هضبتانِ متوسِّطَتا الارتفاعِ ،تكسوهُما الخضرةُ ليمرَّ بينهُما الطريقُ بشكلٍ متعرِّجٍ ،وقدْ اصطفتِ المنازلُ أعلى الهضبتيْنِ ؛لتبدوَ وكأنَّها قلاعٌ محصنةٌ يصلُها بالطريقِ درجٌ خشبيٌّ أرجوانيُّ اللونِ يقعُ على يمينِ كلِّ منزلٍ. ويبتعدُ كلُّ منزلٍ عنْ نظيرِهِ مساحةً ثابتةً لا تتجاوزُ الخمسةَ أمتارٍ. أمَّا المنازلُ فجميعُها لها ذاتِ التصميمِ، يتكونُ كلٌّ منها منْ طابقينِ منتهيًا بعالية لها شكلِ القبةِ، ويكسوهُ بالكاملِ اللونِ الأخضرِ العشبيِّ ،ليبدأُ من قبتِهِ وصولًا إلى أرضِ الهضبةِ العشبيةِ التي تتناثرُ فوقَها الزهورُ اليانعةُ على اختلافِ ألوانِها.

رأتْ رحمةُ نظراتِ الدهشةِ والإعجابِ في عينِ عالية طوالَ طريقِهما نحوَ المنزلِ الشماليِّ فآثرتِ الصمتَ حتَّى انتهيَا إلى مبتغاهما ،وهُنا بادرتْ رحمةُ بالقولِ:

_ هذا بيتُكِ ، أرجو أنْ ينلْ إعجابَكِ.

رفعتْ عالية عينيْها ؛لتطالعَهُ عنْ كثبٍ أثناءَ ارتقاءِ رحمةَ الدرجِ الخشبيِّ بخفةٍ ورشاقةٍ، وكأنَّها يمامةٌ ورديةٌ منتهيةٌ ببابِ المنزلِ..

فتحتْ رحمةُ البابَ ،واستدارتْ لتطالعَ عالية مازحةً ،وعلى وجهِها ابتسامةُ ودٍّ:

_ لماذَا تقفينَ عندَك يا عالية ؟! هلمَّ فهذَا بيتُكِ منذُ الآنَ ،وأنَا ضيفتُكِ ، فهلْ يستقبلُ المضيفُ ضيفَهُ خارجًا ؟!!

قابلتْ عالية مزحةَ رحمةَ بابتسامةٍ رقيقةٍ واجمةٍ ، فعقلُها ظلَّ محتفظًا بدورهِ القاسي بتعذيبِها بأسئِلتِهِ التي لا تملكُ لها إجابةً.

دلفتْ عالية منَ البابِ لتجدَ أمامَها منزلًا آيةً في النظافةِ وحسنِ الترتيبِ، مثلَهُ كمثلِ العالمِ الذي ينتمي إليْهِ.

فعندَ فتحِ البابِ تجد أمامكِ بهوًا متوسطَ الاتساعِ، أرضيتُهُ صنعتْ منْ رخامٍ أبيضَ اللونِ ، ويحتوي على عمدانٍ اسطوانيةٍ ،غلفتْ أيضًا بذاتِ الرخامِ.

أمَّا جدرانُهُ فقدْ طُليتْ باللونِ السماويِّ ،و أثاثُهُ بسيطٌ على قدرِ أناقتِهِ، قليلٌ على قدرِ الاحتياجِ إليْهِ،يجمعُ بينَ اللونينِ الأبيضِ والسماويِّ بقدرٍ راقٍ منَ الانسجامِ و التناغمِ.

وعلى يمينِ البهوِ هناكَ درجٌ يقودُكِ إلى الطابقِ العلويِّ ،والذي يحتوي على رواقٍ بطولِ البهوِ ،تتفرعُ الغرفُ على جانبيْهِ.

فتحتْ رحمةُ أحدَ الغرفِ ؛لتجدَ عالية أمامَها مضجعًا نحاسيًّا يرتفعُ منْ زواياهُ عُمدٌ أُحيطتْ بستائرَ ورديةٍ يتلاعبُ بها النسيمُ القادمُ منَ الشرفةِ التي تقعُ على يسارِهِ.

دلفتْ عالية إلى غرفةِ نومِها بخطًى بطيئةٍ مترددةٍ متفحصةً إيَّاها. ولكنْ سُرعانَ ما مدَّتِ الخطَى نحوَ الشرفةِ بعدَ أنْ أثارتْ شغفَها، فقدْ بدتْ وكأنَّها قطعةٌ مقتطعةٌ منَ الحدائقِ التي مرَّتْ عالية عليْها منذُ أنْ وطِئَتْ قدماهَا ذلكَ العالمَ.

فعلى الرغمِ منْ أنَّ جدرانَها صُنعتْ منَ الرخامِ الأبيضِ إلَّا أنَّهُ لمْ يعلنْ عنْ نفسِهِ سوى في مساحاتٍ صغيرةٍ ، فاللونُ الأخضرُ المميِّزُ للزروعِ أخفاهُ خلفَهُ، وكأنَّهُ عورةٌ يسعى لسترِها، وليسودَ بشكلٍ طاغٍ ناثرًا أزهارَهُ المختلفةَ ألوانُها كمَا تُنثرُ النجومُ في سمائِها، فتتناغمُ معَ الطيورِ على اختلافِ أجناسِها وأحجامِها التي تتهادَى على الأغصانِ مرسلةً ترانيمَها العذبةَ في أمانٍ، وأريحيةٍ قدْ أثارتْ دهشةَ عالية كثيرًا، فكأنَّ طيورَ هذا العالمِ لا تكترثُ منَ اقترابِ الأغرابِ.

ويزيدُ المشهدُ بهاءً إطلالةُ الشرفةِ على جدولِ المياهِ العذبةِ الذي يقطعُ الطرقَ بصورةٍ عرضيةٍ؛ لتمنحَ عالية مزيدًا منَ الرفاهيةِ.

وقفتْ عالية للحظاتٍ تطالعُ هذا الحُلمَ الجميلَ ،والذي وجدتْ نفسَها فيهِ بينَ ليلةَ وضُحاها، حلْمٌ شغفَ لبَّها سحرًا ومهابةً ،تسربتْ نسائمُهُ إلى روْحِها

برفقةِ أريجِ عطرٍ أخَّاذٍ يفوحُ ،ليفرِضُ هيمنتَهُ بلطفٍ، فغمرَ روحَها شعورٌ بسلامٍ أضفى على نفسِها نقاءً يعجزُ البشرُ عنِ الوصولِ إليهِ في عالمِهمَ القاسي.

قاطعتْ رحمةُ شرودَ عالية بقولِها:

_ سأترُكُكِ تنعمينَ بالراحةِ ،وسوفَ أعودُ إليكِ قريبًا.

أومأتْ عالية برأسِها كنايةً عنِ الموافقةِ دونَ تعليقٍ، وبالفعلِ تركتْها رحمةُ لتستريحَ قليلًا في الوقتِ الذي كانتْ عالية في حاجةٍ فعالية إلى الراحةِ.

عادتْ عالية إلى غرفتِها ،واضطجعتْ على فراشِها رانيةً نحوَ شرفتِها الساحرةِ، متبعةً حركةَ الطيورِ المحلقةِ في حريةٍ.

وما هيَ إلَّا دقائقُ معدوداتٌ حتَّى عادتْ رحمةُ مرةً أُخرى حاملةً صينية فضيةً،بها دورقانِ فضيانِ وطبقٌ يحوي ما لذَّ وطابَ منَ الفاكهةِ على اختلافِها.

هبتْ عالية جالسةً على الفراشِ عندمَا رأتْ رحمةَ قادمةً نحوَها متسائلةً:

_ ما كلُّ هذا؟! لماذَا أجهدتِّ نفسَكِ ؟!

_ عنْ أيِّ جهدٍ تتحدثينَ يا عالية؟!! فهذَا واجبي، ألمْ أعلمُكِ بأنِّي الموكلةُ بالقيامِ على خدمتِكِ؟!!

قالتْها رحمةُ وهيَ باسمةُ الثغرِ في استنكارٍ.

وضعتْ رحمةُ الصنيية على منضدةٍ بجانبِ الشرفةِ واستدارتْ قائلةً:

_ هذا الدورقُ يحوي عسلًا ،وذلكَ يحْوي ماءً ، أرجُو أنْ تستمتعي بغدائِكِ.

أنهتْ رحمةُ جملتَها ،وهمَّتْ بالانصرافِ فاستمهلتْهَا عالية مستفهمةً:

_ إلى أينَ ؟!!

_ إلى عملي.

_ أيُّ عملٍ ؟! ألم تقولي سلفًا أنَّ عملَكِ هوَ مساعدتي ؟!! إذًا اجلسي معِي.

_ نعمْ. لقدْ قلتُ ذلكَ ،ولكنَّ عملي لا يقتصرُ على خدمتِكِ وحدكِ يا عالية، فإنَّ عملي في الأصلِ هوَ مجالسةُ الأطفالِ والاهتمامُ بهمْ.

_ مجالسةُ الأطفالِ ؟!! ولكنَّني لمْ أرَ أيَّة أطفالٍ منذُ أنْ وطِئَتْ قدمي ذلكَ العالمَ، فأينَ همْ ؟!

هكذَا تساءلتْ عالية في اندهاشٍ وتعجبٍ ،فأجابتْها رحمةُ قائلةً:

_ نعمْ. وذلكَ؛ لأنَّ لهم حيًّا خاصًّا بهمْ ، يعيشونَ فيهِ منفصلينَ عنْ ذويهمْ ، وعددٌ -لا بأسَ بهِ- منَّا يقومُ على خدمتِهمْ وتعليمهمْ.

_ ولماذَا لا يعيشونَ معَ ذويهمْ ؟!!

_ هذهِ عادتُنا يا عالية ، ما أنْ يولدَ الطفلُ حتَّى ينتقلَ لحيِّ الأطفالِ، فهوَ يوفرُ بيئةً أكثرَ مناسبةً لهمْ منْ بيئتِنَا، وينالونَ هُناك ما يستحقونَهُ منَ اهتمامٍ ورعايةٍ ، وإنَّ لمنْ أشرفِ المهنِ ها هُنا لهيَ خدمتُهمْ.

_ والآنَ أرجُو أنْ تعذريني ؛فعليَّ الرحيلُ ، ولكنَّني سأعودُ إليْكِ لاحقًا.

قالتْ رحمةُ جملتَها ،ثمَّ انسحبتْ تاركةً عالية غارقةً في تحليلِ كلِّ ما مرَّتْ بهِ منذُ ولوجِها ذلكَ العالمِ مُنتهيةً ببيتِها الرائعِ الذي وجدتْ نفسَها تنعمُ منفردةً بسحرِهِ.

مرَّتْ سويعاتٌ قليلةٌ استغرقتْها عالية في التأملِ حتَّى نبَّهتْها معدتُها بإغفالِها إيَّاها ،فتوجهتْ إلى الطاولةِ التي قدْ تركتْ عليْها رحمةُ الطعامَ منذُ قليلٍ ،وطفقتْ في تناولِ غدائِها.

أنهتْ عالية طعامَها ،ثمَّ توجهتْ إلى شرفتِها منتظرةً مشهدَ غروبِ الشمسِ ،متخيلةً سحرَهُ في هذا العالمِ الذي يتضافرُ فيهِ سحرُ الخضرِ بروعةِ المياهِ العذبةِ الرقراقةِ، ولكنَّ الوقتَ مرَّ ، ولمْ يخفضْ الضوءُ ولوْ بدرجةٍ قليلةٍ.

تعجبتْ عالية كثيرًا لذلكَ ،ولكنَّها ظلَّتْ تنتظرُ الليلَ لعلَّهُ يسودُ هُنا بطريقةٍ مغايرةٍ لعالِمِها ،وذلكَ حتَّى غلبَها النعاسُ ،فعادتْ إلى غرفتِها ،واتَّكأتْ على فراشِها الوثيرِ مستسلمةً لخدرِهِ.

***

فتحتْ عالية عينيْها لتجدَ رحمةَ أمامَ المنضدةَ تعبثُ في شيْءٍ ما. فركتْ عينيْها طلبًا لمزيدٍ منْ وضوحِ الرؤيةِ ،ثمَّ جلستْ وقالتْ:

_ صباحُ الخيرِ يا رحمةُ.

استدارتْ رحمةُ رانيةً إليْها ،ثمَّ قالتْ ،وعلى شفتيْها ابتسامةٌ موضحةٌ:

_ صباحُ الخيرِ يا عالية، ولكنَّنا لا نتبادلُ تلكَ التحيةَ ها هُنا.

عقدتْ عالية حاجبيْها في اندهاشٍ ثمَّ قالتْ:

_ ولِمَا؟!!

_ لأنَّنا لا نملكُ ها هُنا صَباحًا أو مساءً، وإنَّما الضياءُ. الضياءُ وكفَى.

_ أتقصدينَ أنَّكمْ لا تنعمونَ بالمساءِ أبدًا ؟!!

_ نعمْ.هذا ما أقصِدُ.

أومأتْ عالية برأسِها علامةً على الاستيعابِ أخيرًا ،ثمَّ تساءلتْ طلبًا لمزيدٍ منَ الإيضاحِ:

_ أهذَا انتظرت أمسِ كثيرًا في الشرفةِ؛ ليعمَّ الظلامُ ،ولكنَّه لمْ يخيِّمْ قطُّ؟!!

_ نعمْ.

هكذَا أجابتْها رحمةُ في اقتضابٍ عجزَ عنْ إشباعِ فضولِ عالية فعادتْ لتسألَ مجددًا:

_ إذًا متى تنعسونَ ؟!! وكيفَ ؟!

_ نحنُ لا ننعسُ مثلكمْ يا عالية،ولا نحتاجُ إلى النعاسِ، فسمةُ حياتِنا الاستدامةُ ،وطبيعتُنا البيلوجية تختلفُ عنكمْ في كثيرٍ منَ المناحي، حياتُنا متصلةٌ فلَا نملكُ التوقيتاتِ التي تملكونَها ،أعمارُنا تختلفُ عنْ أعمارِكمْ ، ولكنْ بالقياسِ إلى مواقيتِكمْ فهيَ تعدُّ أضاعفَ أعمارِكمْ، فنحنُ معمَّرونَ بالمقارنةِ إليكمْ.

عمتِّ الدهشةُ والتعجبُ نفسَ عالية،فاستغرقتْ لحظاتٍ تسْعى إلى استيعابِ ما تلقيهِ رحمةُ على مسامعِها ،إلى أنْ أعلنَ عقلُها عجزَهُ عنْ تقبلِ تلكَ الحقائقِ دفعةً واحدةً، فعادتْ لتسألَ مرةً أُخرى ،ساعيةً لنيلِ المزيدِ منَ الفهمِ:

_ ولكنْ كيفَ تنالونَ الراحةَ ؟!!

_ عنْ أيِّ راحةٍ تتحدثينَ ، نحنُ يا عالية لا نشْقى حتَّى نسعَى لطلبِ الراحةِ.

_ وكيفَ ذلكَ؟!

أتتْ رحمةُ لتجلسَ بجوارِ عالية على طرفِ فراشِها بعدمَا انتهتْ ممَّا كانتْ تقومُ بهِ أمامَ المنضدةِ ،ثمَّ قالتْ:

_ أعلمُ يا عالية أنَّ واقعَ حياتِنا يختلفُ كثيرًا عنْكمْ، وأعلمُ أيضًا أنَّ هذا أمرٌ يصعبُ على عقلِكِ الصغيرِ استيعابُهُ دفعةً واحدةً ، ولذلكَ لا ترهقي نفسَكِ بالأسئلةِ الكثيرةِ، واطمئِنِّي، بالتأكيدِ سأجيبُ عنْ كلِّ تساؤلاتِكِ ، فبالطبعِ يجبُ عليْكِ أنْ تكوني عليمةً بكلِّ شيْءٍ يخصُّنَا قبلَ انقضاءِ مهلتِكِ؛ كيْ تحسني الاختيارَ.

_ ولكنِ الآنَ اذهبي؛ لتأخذي حمامَّكِ ،ثمَّ عاوِدي ؛لتتناولي إفطارَك، فقدْ أعددتُهُ لك علَى المنضدةِ.

_ ألنْ تتناولي الإفطارَ معي ؟!!

_ أوامرُكِ يا سيدتي ،سأتناولُ إفطاري اليومَ معكِ.

انصاعتْ عالية لأمرِ رحمةَ متجنبةً طرحَ المزيدِ منَ التساؤلاتِ عليْها في الوقتِ الحالي على الرغمِ منْ زخمِها وتدافعِها داخلَ عقلِها المنهكِ.

وما هيَ إلَّا لحظاتٌ حتَّى عادتْ عالية لتجلسَ بجوارِ رحمةَ أمامَ المنضدةِ ،وطفِقَا يتناولانِ الطعامَ سويًّا.

وأثناءَ تناولِهما للطعامِ ،وجدتْ عالية أنَّ الفرصةَ سانحةً لتسألَها عمَّا يشغلُ بالَها ،فبادرتْ عالية بالقولِ:

_ اسمحي لي يا رحمةُ بسؤالٍ.

أجابتْها رحمةُ وهيَ تلوكُ شيئًا ما قائلةً:

_ بالطبعِ يا عالية تفضَّلي.

_ أنتِ عرَّفتني بنفسِكِ قائلةً أنَّكِ خليلةُ رحيمَ. فهلْ لي معرفةُ ما تعنيهِ ؟

_ خليلةُ في عالمِنا تعني زوجةً في عالمكمْ ،فنحنُ ها هُنا يجمعُنا رباطٌ مقدسٌ يُسمى" المخاللةَ".

_ ولماذَا لا تدعونَهُ زواجًا؟!

_ مسمياتُنا قدْ تختلفُ قليلًا عنْ مسمياتِكمْ ، أضيفي إلي ذلكَ أنَّ طبيعةَ العلاقةِ قدْ تختلفُ قليلًا.

_ ماذا تقصدينَ ؟!

_ أعني أنَّنَا نشبُّ وكلُّ فردٍ منَّا يعلمُ جيدًا منْ خليلُهُ، فتجمعنُا مصاحبةٌ ومآلفةٌ منذُ الصغرِ ،وذلكَ إلى أنْ يحينَ موسمُ الانعقادِ ،فيقامُ احتفالًا عظيمًا يجمعُ الفتياتِ بخلانِهنَّ في ختامِهِ.

_ اسمحي لي بسؤالٍ آخرَ.

_ بالطبعِ لكِ هذَا.

_ هلْ جميعُ أبناءِ جنسِكمْ تجمعُهمْ معَ البشرِ علاقةُ رفقةٍ ، أمْ أنَّ هذا أمرٌ يقتصرُ على قلةٍ منكمْ ؟

_ بالطبعِ ليسَ جميعنُا تجمعنُا رفقةٌ ببني آدمَ، وإنَّما قلةٌ مختارةٌ تمتازُ بعدةِ مميزاتٍ تسمحُ لها بالتقاربِ معَ البشرِ بلطفٍ كالنسيمِ ، ألمْ تشعري يا عالية أحيانًا بأنَّ هُنالكَ هاجسًا يدفعُكِ لتذكرِ شيءٍ ما قدْ غابَ عنْ عقلِكِ ،وفي تذكُّرِهِ ذلكَ إفادةٌ لكِ ؟

_ بلَي ، هذا كثيرًا ما يحدثُ.

_ هذا غيرُ مقتصرٍ عليكِ عزيزتي،فكمْ منْ مرةٍ يتحدثُ البشرُ عنْ هاتفٍ جاءَ إليهمْ في لحظاتٍ مصيريةٍ يدفعُهمْ في اتجاهٍ لمْ يخططواْ إليهِ مُسبقًا وإنِ انصاعواْ لهُ لقواْ الفلاحَ !! فنحنُ - معشرَ بني الضياءِ- نشكلُ قُوى الإلهامِ التي تحيطُ بالبشرِ في لحظاتٍ بعينِها ،فتدفعُهمْ بلطفِ لمقابلةِ أقدارُهمْ ،فنشكلُ في وعيِكمْ ذلكَ الإلهامَ، وقليلٌ منكمْ يوجَّهُ بصورةٍ مباشرةٍ ، ألمْ تسمعي مسبقًا عنْ رجلٍ ذي لحيةٍ وثيابٍ بيضاءَ أتى لأحدِ البشرِ؛ ليمنحَهُ توجيهًا ما يفتحُ لهُ آفاقًا رحبةً في حياتِهِ التي ظنَّها تديرُ لهُ ظهرَها ،واختفى عندئذٍ دونَ كلمةِ وداعٍ.

_ نعمْ سمعتُ عنْ ذلكَ كثيرًا.

_ هذا الرجلُ فردٌ منَّا.

_ أتقصدينَ أنَّكمْ طوالَ الوقتِ تشكلونَ محركًا فعّالًا في حياتِنا دونَ أنْ ندريَ ؟!

_ بلى ، هكذَا خُلقْنا، وهذَا دورُنا ، إلهامُكمْ غايتُنا، وفلاحُكمْ مسرتُنا.

أنهتْ رحمةُ جملتَها ،وهبَّتْ واقفةً معتذرةً لعالية، فقدٍ وجبَ عليْها الرحيلُ.

طرقتْ عالية بعينيْها أرضًا مشدوهةً للحظاتٍ ،ثمَّ قالتْ متداركةً حديثَ رحمةَ العجيبَ في تساؤلٍ:

_ ولكنْ كيفَ سأقضي يومِي وحيدةً بينَ جدرانِ هذا البيتِ؟!!

_ وما الذي يجبرُكِ علي المُكثِ وحيدةً ها هُنا، فأنتِ حتَّى الآنَ تنعمينَ بكاملِ حريتِكِ لفعلِ ما تشائينَ،اذهبِي وتجوَّلي في عالمِنا لتعرفي المزيدَ عنهُ، ولتستمتعِي بالنزهةِ في حدائقِهِ، وسوفَ أعودُ إليكِ مجددًا لإحضارِ الغداءِ.

أومأتْ عالية برأسِها كنايةً عنِ الموافقةِ، وفي تلكَ اللحظةِ توجهتْ رحمةُ إلى خزانةٍ صغيرةٍ تقعُ إلى يمينِ بابِ الغرفةِ ،فتحتها، ثمَّ أشارتْ إلى داخلِها قائلةً:

_ كلُّ هؤلاءِ الثيابِ ملكٌ لكِ الآنَ، فانتقي ما يحلُو لكِ، وانعمِي بيومِكِ ، اتفقْنا ؟!!

_ ولكنْ لمنْ كانتْ كلُّ تلكَ الثيابِ ؟!

_ كانتْ لباسمةَ ، وهيَ منْ كانتْ تحيى في منزلِكِ سابقًا.

_ وأينَ هيَ الآنَ؟

_ لقدْ خبَا جوهرُ وجودِها ،فرحلتْ لتلتحقَ بملكوتِ السماواتِ.

أنهتْ رحمةُ حديثَها غيرَ المفهومِ بالنسبةِ لعالية ،ثمَّ حيَّتْها مودعةً ،وذهبتْ دونَ مزيدٍ منَ التوضيحِ.

توجَّهتْ عالية نحوَ خزانةِ الثيابِ تتفحَّصُها فوجدتْها تحوي عددًا -لا بأسَ بهِ- منَ الثيابِ، تتعددُ ألوانُها ما بينَ الأبيضِ والسماويِّ والورديِّ..

انتقتْ عالية ثوبًا فضفاضًا سماويَّ اللونِ ،وارتدتْهُ،ثمَّ ارتدتْ خفيْنِ لهُما ذاتُ اللونِ، وتعطرتْ بعطرٍ فواحٍ خلابٍ أدارَ رأسَها سحرًا.

توجهتْ عالية صوبَ المرآةِ التي استقرَّ موضُعها في إحدى زوايَا الغرفةِ، ومشَّطتْ شعرَها ؛لينسدلَ على كتفيْها في دلالٍ ، وما أنِ انتهتْ حتَّى طالعتْ نفسَها في المرآةِ بعينٍ ناقدةٍ جالدةٍ كعادتِها، ولكنَّ أشدَّ ما أدهشَها ما رأتْهُ،فقدْ لاحَ أمامَها طيفُ فتاةٍ لا تعرفُها، وكأنَّ هناكَ انعكاسًا لفتاةٍ أُخرى لا تنتمي لعالية السابقةِ بشيْء يذكرُ.

فتاةٌ لَهَا إطلالةٌ ساحرةٌ وحضورٌ طاغٍ ، فتاةٌ نضرةٌ، تملؤُها الحيويةُ، واثقةٌ من نفسِها، فتاةٌ تمتلكُ عينيْن جسورتيْن تبحثانِ عنِ المغامرةِ والاكتشافِ. تسلَّلتْ إلى شفتيْها ابتسامةُ رضًا ،لمْ تعرفْ مسبقًا سبيلًا إليْهَا، وعقدتِ النيةَ على اكتشافِ مناحٍ لمْ ترَها مسبقًا في هذا العالمِ.

***

قضتْ عالية أيامًا عدةً بتوقيتِ عالِمِها عجزتْ عنْ إحصائِها ،تسعَى لاستكشافِ ما غفلتْ عنهُ، ففي البدءِ كانتْ تسعى جاهدةً لتقديرِ الزمنِ ولكنْ سُرعان ما اختلطَ عليْها الأمرُ، وعجزتْ عنْ تقديرِهِ فاستسلمتْ لناموسِ عالمِ الضياءِ ،ولكنَّها لمْ تستطعْ أنْ تتأقلمَ بشكلٍ كليٍّ، فظلَّ غيابُ

الليلِ عنْ ذلكَ العالمِ يؤرقُها ويعكرُ صفوَ نومِها ، مناجيةً نفسَها في تعجبٍ عنْ كيفيةِ قضاءِ سكَّانِ هذا العالمِ كاملِ حياتِهمْ على هذا الحالِ ، حقًّا قدْ أخبرتْها رحمةُ أنَّ طبيعةَ خلقِهم تختلفُ عنِ البشرِ كثيرًا، ولكنَّ عقلَ عالية ظلَّ غيرَ قادرٍ على هضمِ تلكَ الفكرةِ، فكلَّما غلبَها النعاسُ تمنتْ أنْ تنعمَ بسكينةِ الليلِ وسكونِهِ، فقديمًا وعندمَا كانَ الليلُ جزءًا لا يتجزَّؤُ منْ ناموسِ عالمِها كانتْ تخشى منهُ كثيرًا، وكانَ مشهدُ غروبِ الشمسِ يطبقُ على أنفاسِها ليشعرَها ،وكأنَّ روحَها حبيسةٌ في ظلماتٍ تبحثُ عنْ طاقةِ ضوءٍ، ولكنِ اليومَ عندمَا أصبحتْ حياتُها يعمُّها الضياءُ اكتشفتْ افتقادَها إلى الليلِ وسكونِهِ ،وصوتِ الست وسحرِه. فلعمرهَا ما تنازلتْ روحُها عنْ غذائِها اليوميِّ منَ الطربِ.

تنهدتْ عالية في اشتياقٍ لشيْءٍ ما لا تجسرُ على الاعترافِ بهِ ،وناجتْ نفسَها قائلةً:

ـ كمِ افتقدتُّ صوتَكِ يا سيدتي ! ليتَ هذا العالمَ تُوجَ نعيمُهُ بشدوِّ صوتكِ و عمقِ إحساسِكِ ،بالتأكيدِ كنتِ لتزيديه سحرًا..

كانتْ عالية تفكرُ في كلِّ ذلكَ عندمَا أتتْ رحمةُ كعادتِها ؛لتؤنسَ وحدتَها ؛ولتجيبَ عن أسئلتِها الكثيرةِ ،كاشفةً بعضًا منَ الغمامِ عنْ ناظريْها.ألقتْ رحمةُ السلامَ على عالية التي كانتْ في انتظارِها على أحرِّ منَ الجمرِ ، فمَا أنْ دلفتْ رحمةُ إلي البيتِ حتّى هبتْ عالية واقفةً لاستقبلِها في البهوِ على غيرِ ما اعتادتْ في انتظارِها في غرفتِها قائلةً:

_ السلامُ عليكِ يا عالية. كيفَ حالُكِ؟

_ وعليكِ السلامُ يا رحمةُ ، اجلسي ؛فأنا أودُّ التحدثَ إليكِ في أمرٍ هامٍّ.

قالتْها عالية مشيرةً إلى الأريكةِ في جديةٍ طفتْ على قسماتِ وجهِها، فما كانَ منْ رحمةَ إلَّا أنِ استجابتْ جالسةً قائلةً:

_ ماذَا هُناك يا عالية ؟! ما بكِ؟!

جلستْ عالية بجوارِها ،ثمَّ قالتْ:

_ عندمَا أتيتُ إلى عالمكمْ شغفني بسحرِهِ وتناغمِ مخلوقاتِهِ، فقضيتُ زمنًا عجزَ عقلي عنْ تقديرِهِ في اكتشافِهِ ومحاولةِ تدبرِ عِللِهِ، ولكنَّني مللتُ ، نعمْ مللتُ ، فلقدِ اعتدتُّ أنْ يكونَ لي هدفٌ ، عملٌ وجبَ عليَّ تأديتُهُ، ولكنَّني ها هُنا أنامُ لأصحوَ، فأتناولُ غذائي، فأتنزَّهُ، فأعودُ للنومِ ، لا أختلطُ معَ أحدٍ سِواك، لا أتبادلُ حتَّى بالسلامِ معَ أحدٍ سِواكِ، فعندمَا أمرُّ أمامَ أحدِهمْ يرمقُني بنظرةٍ يمتزجُ فيهَا الفضولُ بالدهشةِ ،ثمَّ ما يلبثُ أنْ يعودَ إلى عملِهِ دونَ اكتراثٍ،فكيفَ لي باكتشافِ عالمكمْ بتلكَ الطريقةِ، فالمشاهدُ الطبيعيةُ عاجزةٌ بمفردِها على إلهامي صوابِ السبيلِ، أريدُ أنْ أنخرطَ في الحياةِ العامةِ حتَّى يضطرَّ البعضُ للاحتكاكِ بي، أريدُ أنْ يكونَ لي هدفٌ،وأنْ أشعرَ بجدْوى تواجُدِي ها هُنا، أريدُ أنْ أختلطَ بسواكِ؛ لأكتسبَ معرفةً أكثرَ شمولًا

ابتسمتْ رحمةُ رامقةُ عالية في تعجبٍ، ثمَّ قالتْ:

_ أتعترضينَ يا عالية على تمتعِكِ بكاملِ حريتِكِ ؟!! إنَّ هذا حقًّا لأمرٌ عجيبٌ.

_ أريدُ أنْ أعملَ يا رحمةُ.أرجوكِ ساعديني في تنفيذِ بُغيتي..

_ أوامرُكِ يا عالية، سأعرضُ الأمرَ على القائدِ الأعلى ،وأعودُ إليكِ بالردِّ.

_ وأنا سأنتظرُكِ ها هُنا حتَّى تعودي.

استغرقتْ رحمةُ حينًا حتَّى عادتْ إلى عالية ،والتِي كانتْ يعتصرُها القلقُ، ولكنْ ما أنْ دلفتْ رحمةُ على عالية باسمةَ الثغرِ حتَّى هبَّتْ عالية واقفةً ،وقد اعتلتْ مُحيَّاها ابتسامةٌ مستبشرةٌ، ثمَّ تساءلتْ:

_ هلْ وافقَ ؟

_ نعمْ، لقدْ وافقَ القائدُ الأعلى على طلبِكِ، وأيضًا سُرَّ بهِ كثيرًا ، وأمرَني أنْ أصطحبَكِ معي إلى حيِّ الأطفالِ ؛لتساعديني في القيامِ على خدمتِهِمْ.

_ إذًا فلمَا الانتظارُ؟ هلمَّ بنَا.

قالتْهَا عالية ضاحكةً معتصرةً راحةَ رحمةَ بينَ راحتيْها في سعادةٍ حقيقيةٍ.

***

انطلقَا سويًّا إلى حيِّ الأطفالِ، والذي كانَ يقاربُ تصورَ عالية كثيرًا، فيفتتحُ ببوابةٍ تماثلُ بوابةَ الحيِّ السكنيِّ ،ولكنَّها كانتْ مغلقةً عندَ وصولِهما.

طرقتْ رحمةُ بابًا صغيرًا يتوسطُ ضلفةَ البوابةِ اليُمنى بمطرقةٍ نحاسيةٍ تأخذُ شكلَ طفلٍ رضيعٍ معلقةٍ على يمينِ الطارقِ، ففُتحَ البابُ،دلفتْ رحمةُ – تتبعُها

عالية في توجسٍ-بعدَ أنْ ألقتِ السلامَ على حارسِ البوابةِ ،الذي بدَا في هيئتِهِ وكأَنَّهُ لا يختلفُ كثيرًا عنْ سائرِ حراسِ ذلكَ العالمِ، فجميعُهمْ تجمعهمْ ذاتُ السماتِ منْ شدةِ البنيانِ وعمقِ الصوتِ؛ ليبدوَ وكأَنَّهُ يصدرُ منْ بئرٍ سحيقٍ.

خطتْ عالية خطواتِها الأُولى داخلَ حيِّ الأطفالِ،والذي بدَا وكأَنَّهُ حديقةٌ عظيمةُ الاتساعِ، فأسوارُهُ الشاهقةُ تحاطُ بأسوارٍ من نخيلٍ يتدلَّى طرحُهُ الوفيرُ، وإلى داخلِهِ أشجارُ الفاكهةِ على اختلافِها وبساتينُ الزهورِ، ويتوسطُ الحديقةَ فسقيةٌ نُثرتْ أوراقُ الزهورِ المختلفةِ ألوانُها بها ؛لتطفوَ فوقَ المياهِ المتساقطةِ منْ نافورةٍ رخاميةٍ مصورةٍ في صورةِ طفلٍ يعمُّهُ المرحُ ،تنبعثُ المياهُ من راحتيْهِ.وعلى امتدادِ البصرِ لاحَ بنيانٌ ،يبدو وكأَنَّهُ قصرٌ ،وهوَ يمثلُ مأوى الأطفالِ ومسكنهمْ.

ولكنَّ عالية أغفلتْ كلَّ ذلكَ بعدَ أنْ تسمرتْ في محلِّها مشدوهةً ،يشغفُها ترحابُ الأطفالِ بها الذينَ التفواْ حولَها مستطلعينَ وعلى مُحياهمْ نظراتُ الفضولِ والإعجابِ، فتبعهمْ فتياتٌ لا يختلفنَ عنْ رحمةَ كثيرًا حُسنًا ورشاقةً ولباسًا، وقدْ كانتْ عالية قدْ لاحظتْ مسبقًا أنَّ جميعَ الفتياتِ يرتدينَ ذاتَ الأثوابِ، التي تتعددُ ألوانُها ما بينَ الأبيضِ، والسماويِّ ،والورديِّ، ولا تختلفُ كثيرًا في تصميمِها ،فهيَ تتصفُ بالاحتشامِ، وإنْ كانتْ خامتُها الحريريةُ تضفي نوعًا خاصًّا منَ الدلالِ على الفتياتِ.

وقفنَ الفتياتُ يرمقنَ عالية بنظراتٍ مستطلعةٍ ،ولكنهنَّ احتفظنَ بتحفظِهنَّ، فلمْ يقبلواْ عليها مثلهمْ كمثلِ الأطفالِ.

أقبلتْ رحمةُ بعدَ أن عرّفتِ البوابَ بعالية ،وأعلمتْهُ بانضمامِها لفريقِ العملِ بدأً منَ الآنِ فصاعدًا ، وعندمَا طالعَ عالية متعجبًا أنَّها بشريةٌ أخبرتْهُ بأنَّ تلكَ هيَ أوامرُ القائدِ الأعلى ،ولا جدالَ حولَها، فما كانَ منهُ إلَّا أنْ نكسَ رأسَهُ قائلًا:

_ سمعًا وطاعةً.

التفتِ الفتياتُ حولَ رحمةَ متسائلينَ عنْ ماهيةِ عالية ،وعنِ السببِ وراءَ قدومِها إلى حيِّ الأطفالِ رغمَ ما لهُ منْ قدسيةٍ خاصةٍ.

فأجابتْ عنْ أسئلتهمْ قدرَ المستطاعِ ؛حتَّى تزيلَ التحفظَ الذي لاحظتْهُ منْ جانبهمْ ،ومَا أنِ انتهتْ منْ تعريفهمْ بها حتَّى استقدمتْ عالية منْ وسطِ الأطفالِ؛ لتعرفَها بهمْ قائلةً:

_ عالية هؤلاءِ هنَّ زميلاتُكِ في العملِ منذُ الآنَ.

أومأتْ عالية برأسِها بعدَ أنِ اعتلتْ مُحيَّاها ابتسامةُ ترحابٍ، فبادلُوها إيَّاها بودٍ حقيقيٍّ، وسُرعانَ ما انخرطتْ عالية وسطَهنَّ ،فبدتْ وكأنَّها تنتمي إليهنَّ منذُ أمدٍ بعيدٍ ، وخاصةً أنَّها اكتسبتْ بعضًا منْ مظهرهنَّ بعدَ ارتدائِها مثلِ أثوابهنَّ، ولكنَّها احتفظتْ باختلافٍ يميزُها، ويظهرُ أنَّها بشريةٌ لا تنتمي إليهنَّ

بالكاملِ بعدُ، وهوَ خبوُ الضوءِ في وجهِها على عكسهنَّ، فقدْ كانتْ وجوهُهنَّ يشععْنَ الضياءَ كمثلِ رحمةَ ورحيمَ ،وهذهِ بالطبعِ سمةُ أهلِ ذلكَ العالمِ.

أمَّا الأطفالُ فقدِ انجذبواْ إليها بشكلٍ خاصٍّ؛لأنَّها مختلفةٌ، فكانتْ بالنسبةِ لهمْ محطَّ اكتشافٍ، وتعالتِ الهمساتُ بينهمْ بعدَ أنْ عجزواْ عنْ معرفةِ سببِ اختلافِها عنهمْ ،فجمعتهمْ رحمةُ ،ثمَّ أخبرتهمْ بأنَّ عالية منَ اليومِ إحدى معيناتِهمْ، وحثتهمْ على ألَّا يبخلواْ بطلبِ العونِ منْهَا.

استجابَ الأطفالُ لأوامرِ رحمةَ ،منصرفًا ذهنهمْ عنْ أسبابِ اختلافِها عنهمْ لفرحتهمْ بانتماءِ فردٍ جديدٍ لمجتمعهمُ المنغلقِ. وبالطبعِ عالية سرَّها ذلكَ كثيرًا فشرعتْ في الاندماجِ في مجتمعهمُ الصغيرِ بتفاصيلِهِ التي تدعُو إلى المرحِ والانطلاقِ ،حتى بدتْ وكأنَّها فردٌ منهمْ ،لا أنَّها قائمةٌ على خدمتهمْ، متناسيةً فارقَ العمرِ بينهمْ ،والذي تخطَّى العشرةَ أعوامٍ.

فشاركتهمْ ألعابَهمُ التي قدْ تبدو للوهلةِ الأُولى بدائيةً، تعتمدُ في جوهرِها على الحركةِ والعدوِ، ولذلكَ فهيَ كانتْ بعيدةً كلَّ البعدِ عنِ التكنولوجيا التي احتلتْ عالمَ عالية، صارفةً الأطفالَ عنِ الألعابِ الحركيةِ للألعابِ الالكترونيةِ، والتي كانتْ عالية بطبيعةِ الحالِ عاصرتْها إلَّا أنَّها جردتْ منَ الولعِ بها منصرفةً إلى عشقِها للموسيقي والطربِ الأصيلِ.

وفي ذلكَ الوقتِ كانتْ رحمةُ تتابعُ شغفَ عالية بالمرحِ واللعبِ معَ الأطفالِ بمزيجٍ منَ التعجبِ والفضولِ ،متسائلةً عنْ أيِّ مصدرٍ يمدُّ فتاةً في مثلِ

عمرِها بكلِّ تلكَ الحيويةِ والانطلاقةِ ؛لتبدوَ كطفلةٍ بنقاءِ روحِها وصفاءِ نفسِها..

وبعدَ حينٍ منَ المرحِ واللهوِ أقدمتْ رحمةُ نحوَ عالية والأطفالِ ؛لتخبرَهمْ بضرورةِ تناولِ الطعامِ. افترشواْ جميعًا الأرضَ العشبيةَ بدأً منْ حارسِ البوابةِ حتَّى الأطفالِ ؛لتناولِ الطعامِ معًا ، والمكونِ منْ شتَّى أنواعِ الفاكهةِ الطازجةِ إضافةً إلى الماءِ والعسلِ.

وعندمَا انتهواْ جميعًا منَ الطعامِ انفردتْ رحمةُ بعالية ،ثمَّ قالتْ:

_ لقدْ حانَ موعدُ رحيلِك ، عُودي إلى البيتِ حتَّى لا يعييَكِ الإرهاقُ.

_ ولكنَّني سعيدةٌ ها هُنا، ولا أُريد العودةَ إلى البيتِ.

_ عالية منْ فضلِكِ استجيبِي لتوجيهاتِي.

أومأتْ عالية برأسِها كنايةً عنِ الموافقةِ ولكنَّ تلكَ الموافقةَ شابَها بعضٌ منَ الامتعاضِ.

عادتْ عالية إلى بيتِها وحيدةً بعدَ أنَّ ودَّعتْها رحمةُ على وعدٍ باصطحابِها بعدَ أنْ تنالَ قسطًا منَ النومِ.

دلفتْ عالية إلى شُرفةِ غرفتِها ،وجلستْ على مِقعدٍ متأملةً ، فلقدْ لاحظتِ اليومَ بعضَ الأشياءِ التي تنتظرُ منْ رحمةَ غدًا الإجابةَ عنْها، ولكنَّها اليومَ تشعرُ بإرهاق شديدٍ ،فناجتْ نفسَها متثائبةً ..

_ لقدْ كانتْ رحمةُ محقَّةً ،فأنَا حقًّا في حاجةٍ إلى الاسترخاءِ والنعاسِ.

عادتْ عالية إلى غرفتِها ،ثمَّ استبدلتْ ثوبَها بثوبٍ حريريٍّ قادرٍ على منحِها مزيدًا منَ الراحةِ،واستلقتْ على مضجعِها منتظرةً مداعبةَ النعاسَ لأجفانِها.

***

وفي اليومِ التالي كما قدرَ عقلُ عالية الذي ظلَّ مصرًّا على تقسيمِ ذلكَ النهارِ السرمديِّ إلى أيامٍ معتمدًا على ساعاتِ نومِها. أتتْ رحمةُ وكانتْ عالية قدْ أنهتْ حمّامَها ،وارتدتْ ثوبًا آخرَ لهُ لونٌ ورديٌّ.

دلفتْ رحمةُ حاملةً صينيةً تحوي الإفطارَ ؛لتضعَها على المنضدةِ بعدَ أنْ ألقتِ السلامَ على عالية في مرحٍ، ثمَّ قالتْ:

أراكِ استعدتِّ للخروجِ إلى العملِ ، ولكنَّ بالطبعَ هذا لنْ يكونَ قبلَ تناولِ الإفطارِ.

ابتسمتْ عالية بدورِها، وجلستْ على المِقعدِ المقابلِ لمقعدِ رحمةَ ؛ليتناولا الإفطارَ سويًّا.

قضمتْ عالية قضمتَها الأُولى منْ تفاحةٍ طيبةٍ في وجومٍ لاحظتْهُ رحمةُ ،ولكنَّها آثرتْ تجاهلَهُ حتَّى تفتأَ عالية بالحديثِ.

إلى أنِ استجمعتْ عالية شجاعتَها ،وبادرتْ بطرحِ تساؤلٍ يلحُّ على عالية كثيرًا قائلةً:

_ رحمةُ! أريدُ أنْ أطرحَ عليكِ سؤالًا، ولكنِّي أخشْى أن تفهميني بشكلٍ خاطئٍ.

طمأنتْها رحمةُ؛ لتخرجَ ما في جوفِها منْ حيرةٍ طفتْ على مُحيَّاها قائلةً:

_ تفضَّلي يا عالية! ولا تخشي شيئًا، فأنَا هُنا للإجابةِ عنْ أسئلتِك.

_ أليسَ هناكَ طعامٌ آخرُ في هذا العالمِ ؟!!

ابتسمتْ رحمةُ مقدرةً ما يموجُ في نفسِ عالية ،ثمَّ قالتْ:

_ للأسفِ لا يا عالية ، فعلى الرغمِ منْ تنوعِ صنوفِ الطعامِ في عالمِنا إلَّا أنَّنا حُرمْنا منْ تناولِ لحومِ الحيواناتِ والطيورِ. فغيرُ مباحٍ لنا بتناولِ ما يتسببُ في إزهاقِ روحٍ أوْ إنهاءِ حياةٍ ؛ ولذلكَ فقدْ تكونينَ لاحظتِ الحريةَ التامةَ التي تتمتعُ بها الطيورُ في عالمِنا لتحلقَ غيرَ عابئةٍ بشيْءٍ ،وذلكَ لأنَّها تعامَلُ ها هُنا كفردٍ منَّا، لها ما لنَا، إلَّا أنَّها لا عليْها ما عليْنا؛ لعجزِها عنِ التعقلِ والتدبرِ، ولذلكَ فيجبُ عليْنا الاعتناءُ ببيئَتها لنوفرَ لها حياةً أفضلَ ؛وليستمرَّ شدوُها يُطربُ الآذانَ ، وذلكَ مثلُها كمثلِ الحيواناتِ الذينَ لهم حيٌّ مستقلٌ ينعمونَ فيهِ بكاملِ حريتهمْ ،وأيضًا يقومُ على خدمتِهمْ أفرادٌ منَّا، وغيرُ مباحٍ لنا سوى بالاستفادةِ ممَّا ينتجهُ بعضُهمْ شريطةَ ألّا ينتجَ عنْ ذلكَ أنْ يمسَّهُ الضرُّ كالعسلِ والحريرِ واللبنِ ،أمَّا بخلافِ ذلكَ فلا ، ولذلكَ فطعامُنا يقتصرُ على النباتاتِ والماءِ والعسلِ واللبنِ.

ومَا أنِ انتهتْ رحمةُ منْ إجابتِها حتَّى لاحقتْها عالية بسؤالٍ آخر ،وأماراتُ الحيرةِ تطلُّ منْ لسانِ حالِها.

_ ولكنْ ألَا تملُّونَ؟!!

أجابتْ رحمةُ سؤالَ عالية بسؤالٍ ،وعلى وجهِها ابتسامةٌ مداعبةٌ:

_ وهلْ مللتِ أنتِ ؟!!

طرقتْ عالية برأسِها أرضًا، ولمْ تجدْ بماذَا تجيبُها، ولكنْ رحمةُ لمْ تكنْ في انتظارِ الإجابةِ ، فهيَ كانتْ تعلمُ جيدًا أنَّ الملَ منْ طبائعِ البشرِ، ولا بُدَّ وأنْ تعانيَهُ عالية في وقتٍ ما، ولذلكَ استدركتْ رحمةُ قائلةً:

_ هذا السؤالُ كانَ يجبُ أن أُجيبَكِ عنهُ قبلَ طرحِهِ؛ لذَا فاعذريني لغفلتي، ولكنَّ الإجابةَ ستأخذُ منعطفًا أعمَّ وأشملَ منَ الملِ منْ صنوفِ الطعامِ.

ثمَّ استطردتْ رحمةُ مفسرةً:

_ نحنُ يا عالية مُنحنا قدرًا وفيرًا منَ التعقلِ والحكمةِ بخلافكمْ أنتمْ – معشرَ البشرِ– ولكنْ في المقابلِ من ذلك عزَّ علينا شيْءٌ آخرُ لا يقلُّ أهميةً مُنحتموهُ أنتمْ بوفرةٍ وهوَ "الشعورُ"...

رمقتْها عالية قاطبةً حاجبيْها في عدمِ فهمٍ،ثمَّ تساءلتْ طلبًا لمزيدٍ منَ الإيضاحِ:

_ حُرمتمُ الشعورَ ؟! كيفَ ذلكَ ؟!!!

_ نعمْ. حُرمنَا الشعورَ ، فنحنُ لا نملُّ ولا نشغفُ، لا نحزنُ ولا نفرحُ، لا نيأسُ ولا نأملُ،لا نشقى ولا نسعدُ،لا نفتقدُ ولا نتألمُ ، وهكذَا إلى آخرِهِ ،حياتُنَا تمْضي في هدوءٍ وسكونٍ وكأنَّها صفحةُ مياهٍ هادئةٍ يتحاشاهَا التيارُ.

_ ولكنْ إنْ كنتمْ حقًّا حُرمتمُ الشعورَ، فمَا الدافعُ الذي يحركُ حياتَكمْ نحوَ الأمامِ على طولِ أعمارِكمْ.

_ أعمارُنا تلكَ تطولُ كنتيجةٍ طرديةٍ لخبوِ الشعورِ في قلوبِنا.

_ أمَّا بخصوصِ الدافعِ الذي يحركُ حياتَنا فهوَ الاستمرارُ. استمرارُ وجودِنا بجانبِ تنفيذِ الدورِ الذي خُلقْنا لأجلِهِ، وبالطبعِ أضيفي إلى ذلكَ كونَنا لا نكلُّ ولا نملُّ ، فمَا الذي سيدفعُنا إلى الركونِ والتخاذلِ.

أراحتْ عالية ظهرَها مستندةً إلى مِقعدِها بعدَ أنْ شردَ ذهنُها بعيدًا عنْها ،يسعى لتحليلِ حديثِ رحمةَ بما حملَهُ من طبيعةِ حياةٍ عجزَ عقلُها عنْ تصورِها ،واضعةً ما تبقَّى منْ ثمرةِ التفاحِ التي لمْ تنتهِ منْها ،زاهدةً في تناولِ المزيدِ.

في حينِ استمرتْ رحمةُ في تناولِ إفطارِها في صمتٍ، مستنتجةً لَمَا يدورُ الآنَ في نفسِ عالية منِ اضطرابٍ وتشويشٍ.

مرَّتْ لحظاتٌ يغلفُها الصمتُ حتَّى كسرَتْهُ رحمةُ بعدَ انتهائِهَا منْ إفطارِها، في محاولةٍ لانتشالِ عالية منْ بئرِ الفكرِ الذي غاصتْ فيه حتَّى أذنيْها ،مباغتةً بالقولِ:

_ لقدْ تأخرْنا على العملِ يا عالية، أمْ أنَّكِ تودينَ المكثَ في البيتِ اليومَ؟!!

وقعتْ جملةُ رحمةَ على عالية وقعَ الصيحةِ، فانتفضتْ بعدَ أنِ استعادتِ انتباهَها ،ثمَّ قالتْ:

- لا، لا أبدًا، أنا مستعدةٌ للذهابِ ، هيَّا بِنا فأمامنَا طريقٌ طويلٌ.

قالتْ عالية جملتَها تعني بها شيْئًا ما آثرتِ الاحتفاظَ بهِ مؤقتًا ،ظنًّا منْها أنَّ رحمةَ لنْ تلتقطَ ما تضمرُهُ جوارحُها، ولكنَّها بالطبعِ كانتْ مخطِئَةً.....

طوالَ الطريقِ لمْ تتبادلْ عالية الحديثَ مع رحمةَ إلا ما ندرَ، حتى وجدتْ نفسَها أمامَ البابِ الصغيرِ لحيِّ الأطفالِ، وكما كانَ قِبلًا طرقتْ رحمةُ البابَ بمطرقتهِ ،فُفتحَ ودلفَا بعدَ أنْ ألقتْ رحمةُ السلامَ، أمَّا عالية، فكانتْ شاردةً في أفكارِها التي استخلصتْ منْها أخيرًا أنْ لا مجالَ للمزاحِ ها هُنا، وأنَّها كانتْ حمقاءَ عندمَا أرادتْ إعطاءَ القائدِ الأعلى جوابًا بعدَ مُضِيِّ لحظاتٍ قلائلَ على وجودِها في ذلكَ العالمِ، وأنْ -اليومَ قبلَ غدٍ -يجبَ أنْ تعلمَ المزيدَ والمزيدَ عنهُ قبلَ اتخاذِ قرارِها،فهيَ الآنَ في مفترقِ طرقٍ،ولتُهْدى إلى صوابِ السبيلِ لا بُدَّ أنْ تعلمَ.

***

وما أنْ دلفَا إلى حديقةِ حيِّ الأطفالِ حتى تفرَّقَا، فقدْ قطعتْ رحمةُ الحديقةَ في طريقِها إلى القصرِ للانتهاءِ منْ بعضِ الأعمالِ العالقةِ هُناك ،ظنًّا منْها أنَّ عالية تتبعُها، ولكنَّ عالية كانتْ قدْ تباطَأتْ خطواتُها رويدًا رويدًا حتَّى غابتْ رحمةُ عنْ نظرِها،ولكنَّ عالية لمْ تكترثْ كثيرًا لتباعدِ الخُطى بينهمَا ؛لمَا كانُ يشغلَ فكرَها ويعكرُ صفوَها.

جلستْ عالية على حافَّةِ الفسقيةِ التي تتوسطُ الحديقةَ، تتابعُ حركةَ المياهِ المتساقطةِ منَ النافورةِ ساكنةَ الجوارحِ، وكأنَّها تمثالٌ أُضيفَ حديثًا لطلبِ المزيدَ منَ الحسنِ.....

مرَّ حينٌ وعالية على ذلكَ الحالِ حتى تنبَّهتْ أخيرًا على صيحةِ رحمةَ القادمةَ منْ بعيدٍ.. انتفضتْ عالية واقفةً تتلفتُ إلى مصدرِ الصوتِ ،فوجدتْ رحمةَ تشيرُ لَها أنْ "أقبلي"..

أسرعتْ عالية الخُطى في اتجاهِ رحمةَ تلبيةً لندائِها،وما أنِ اقتربتْ منْها حتَّى لامتْها رحمةُ قائلةً:

_ أينَ ذهبتِ يا عالية! لماذَا لمْ تتبعيني ؟!

أجابتْها عالية بنبرةٍ مرتعشةٍ حرجًا متحسسةً هامتَها في حركةٍ عصبيةٍ:

_ آسفةٌ ، ولكنَّ السيرَ أنهكني ،فجلستُ عند الفسقيةِ ؛لأسترحَ قليلًا.

_ إذًا اتبعيني، فأمامَنا عملٌ لننجزَهُ في الداخلِ.

قالتْها رحمةُ مشيرةً إلى القصرِ العظيمِ الذي بدَا لعالية عندَ اقترابِها منهُ ،وكأَنَّهُ قلعةٌ ترتفعُ عُمدُها إلى عنانِ السماءِ؛ لتبثَّ هيبتُهُ الرهبةَ في نفوسِ الناظرينَ، وكأنَّ لهُ حضورًا طاغيًا ،لمْ تستطعْ عالية تفسيرَهُ في حينِها، ولكنَّه بدَّا لها بلونِهِ الرماديِّ وعظمِ ارتفاعِهِ ،وكأَنُّهُ أقدمُ طرازٍ معماريٍّ شهدَهُ ذلكَ العالمُ.

ازدردتْ عالية ريقَها بكثيرٍ منَ العسرِ مُتسائلةً في نفسِها عمَّا يحملُهُ ذلكَ القصرُ منْ تاريخٍ ضاربٍ في أعماقِ القدمِ ، ثمَّ حثَّتِ الخُطى في توجسٍ إلى الداخلِ.

وكانَ داخلُهُ لا يختلفُ كثيرًا عنْ خارجِهِ ، فكانَ للفخامةِ والرقيِّ عنوانٌ.

ولكنَّ هُناكَ أمرًا أثارَ فضولَ عالية كثيرًا، فقدْ وجدتْ مجموعةً كبيرةً منَ الفتياتِ يتحركنَ ذهابًا وإيابًا في عجالةٍ، وكأنهنَّ في خليةِ نحلٍ، اقتربتْ عالية منْ أُذنِ رحمةَ ،وتساءلتْ في حيرةٍ:

_ ما هذا المكانُ يا رحمةُ ؟!

_ ليسَ الآنَ يا عالية، فأمامَنا عملٌ لنقومَ بهِ.

قالتْها رحمةُ بجديةٍ جاذبةً عالية منْ يدِها ؛كيْ لا تشردَ عنْها مرةً أُخرى، ثمَّ قطعتِ البهوَ وصولًا إلى درجٍ رخاميٍّ يقودُهُما إلى الطابقِ العلويِّ.

وفي الطابقِ العلويِّ تراصَّتْ أبوابُ الغرفِ على جانبيْ رواقٍ ممتدٍّ. بعضُهمْ يفتحُ لتدلفَ إليْهِ إحدى الفتياتِ ،أو تخرجَ منهُ ، وعندَ أحدِ تلكَ الأبوابِ تمهلتْ خطواتُ رحمةَ المتعجلةَ ،فتبعتْها خطواتُ عالية الوجلةَ لتفتحَهُ بحذرٍ شديدٍ.

ولجتْ رحمةُ إلى داخلِ الغرفةِ ،بينَما تمهلتْ عالية خارجًا في انتظارِ إشارةٍ منْها، ولكنَّها علمتْ لماذَا كانتْ خطواتُ رحمةَ متعجلةً لكلِّ هذا القدرِ.

فعندمَا اشرأَبَّتْ عالية بعنقِها لترى ما توارَى عنْها داخلَ الغرفةِ ،فوجدتْ مهدًا صغيرًا، اندفعتْ رحمةُ تجاهَهُ ؛لتحملَ منهُ طفلًا رضيعًا.

التفتتْ رحمةُ باحثةً عنْ عالية فوجدتْها تنتظرُها خارجَ الغرفةِ ،فأشارتْ إليْها أنْ "اقدمي"..

أقدمتْ عالية نحوَها ببطءٍ متحاشيةً قدرَ المستطاعِ أنْ تحدثَ خطواتُها جلبةً، وما أنِ اقتربتْ حتَّى رأتْ طفلًا آيةً في الحسنِ والبهاءِ ، وجهُهُ يشرقُ بضياءٍ وكأَنَّهُ نجمٌ وضّاءٌ ، وما أنْ وقعتْ عيناهُ الدقيقتانِ على عالية حتَّى ابتسمَ لها ابتسامةً عذبةً أنستْها منْ هيَ.

تراجعتْ عالية خطوتيْنِ إلى الخلفِ تأثرًا بعدَ أنْ خطفَ بضيائِهِ بصرَها ، ثمَّ تمالكتْ رباطَ أحبالِها الصوتيةِ ؛لتخرجَ كلماتِها بكثيرٍ منَ العسرِ متسائلةً بنبرةٍ مرتعشةٍ إجلالًا وتعظيمًا:

_ منْ يكونُ هذا الطفلُ ؟!!

_ هوُ نورُ، يدْعى نورَ ،أمعقولٌ شقَّ عليكِ ذلكَ الاستنتاجُ البسيطُ ؟!!

_ يُدعى نورَ !!

_ نعمْ.

_ ولكنْ لماذَا أراهُ يمتلكُ قدرًا وفيرًا منَ الضياءِ يفوقُ سائرَ الأطفالِ.

_ هذا صحيحٌ ، ولكنَّ شرحَهُ يتطلبُ الوقتَ الوفيرَ ، ننتهي منْ عملِنا ،وسأجيبُ عنْ كافَّةِ تساؤلاتِكِ ، اتفقنا؟

أومأتْ عالية برأسِها، وعيناها معلقتانِ بنورَ قدرَ المستطاعِ موافقةً.

_ أحضرِي لي يا عالية ثيابًا نظيفةً منَ الخزانةِ.

قالتْها رحمةُ مشيرةً بسبابتِها نحوَ خزانةٍ تقعُ في جانبِ الغرفةِ ،فاستجابتْ عالية سريعًا ،وأحضرتْ لها ما طلبتْهُ ، استبدلتْ رحمةُ ثيابَ نورَ بعدَ أن رطّبتْ

جسدَهُ الصغيرَ بزيتِ الزيتونِ، ثم أرضعتْهُ حليبًا طازجًا ،وهدهدتْ عليْهِ مصدرةً أعذبَ النغماتِ حتى استكانَ.

وضعتْ رحمةُ الصغيرَ في مهدِهِ ،ثم أقبلتْ نحو عالية التي ظلتْ تتابعُ الصغيرَ بنظرةٍ منْ فُتنَ شغفًا وحبًّا دبَّ في قلبِها منذُ أنِ ابتسمَ لَها، فودَّتْ لو ضمتْهُ بين ذراعيْها مستجيبةً لعاطفةِ الأمومةِ التي وُلدتْ مزودةً بها ،وأعلنتْ عنْ تأجُّجها بين جوارِحها الآنَ، مطالبةً أنَ تُروى

رمقتْ رحمةُ عالية في بشاشةٍ بعدَ أنْ قرأتْ ما قصَّتْهُ ملامحُها متسائلةً :

_ أتودِّينَ حملَهُ ؟!!

ابتسمتْ عالية مرحبةً ،وأومأتْ أنْ نعمْ ، فأشارتْ لها رحمةُ أنْ "لكِ هذا"

تقدمتْ عالية نحوَ المهدِ ،وبيدينِ مرتعشتيْنِ حملتِ الصبيَّ الوضاءَ ،وضمتْهُ إلى صدرِها في حنانٍ وعطفٍ يسعُ الكونَ بأكملِهِ ، فطالعَها الصغيرُ بعينيْنِ زرقاويْنِ مبتسمتيْنِ أذابتْها وأسَرَت فؤادَها مستجيبًا لمداعبتِها التي استمرتْ حينًا، وذلكَ حتَّى ربتتْ رحمةُ على كتفِها في ودٍّ قائلةً:

_ ضعيهِ يا عالية الآنَ في مهدِهِ ،وهيَّا بنَا.

استجابتْ عالية إلى أمرِ رحمةَ واضعةً إيّاهُ في مهدِهِ ،ثمَّ أرجحتْهُ قليلًا ،وهوَ ما زالَ يطالُعها بابتسامتِهِ سارقةِ اللبابِ ، فرمتْهُ عالية بنظرةٍ مودعةٍ أثناءَ استسلامِها لراحةِ رحمةَ التي طفقتْ في جذبِ راحتِها؛ ليمضيَا.

خرجَا منَ القصرِ سويًّا لينتهيَا إلى الحديقةِ ، جلستْ رحمةُ على حافةِ الفسقيةِ داعيةً عالية للجلوسِ بجوارِها، فاستجابتْ عالية ،وجلستْ وفي عينيْها زخمٌ منَ التساؤلاتِ.

حدجتْ رحمةُ عالية قائلةً في مرحٍ:

_ هلَّمَ. ما الذي تودينَ الاستفسارَ عنْهُ؟

_ بدايةً لماذَا شعرتِ وكأنَّ لهذا القصرِ قدسيةً خاصةً وحضورًا خاصًّا يمتازُ به عمَّا سواهُ ، ولماذا خفقَ قلبي بشدةٍ عند الولوجِ إليهِ ؟

_ هذَا حقٌّ ، فهوَ يتمتعُ بقدسيةٍ عمَّا سواهُ ، وذلكَ لأَنَّهُ الشاهدُ على ميلادِ بني جنْسِنَا.

_ وكيفَ ذلكَ؟!

_ أعني أَنَّنا فُطرْنا على وجودِهِ منذُ بدايةِ خلْقِنَا،فوعيُنا الجمعيُّ لا يتذكرُ بقعةً سِواهُ شَهدتْ منْ قبلُ مولدَ فردٍ منَّا ؛ولأنَّ مجتمعَنا يعزُّ فيهِ التكاثرُ ،فإنَّ لحظةَ ميلادِ طفلٍ يضيفُ جوهرَ وجودٍ جديدٍ تمثلُ لنَا قدسيةً لا يعادُلَهَا شيْءٌ.

_ ولقدْ ظلَّ ذلكَ القصرُ منذُ بدايةِ خلقِنا المأوى الأولَ لبني جنسِنا،فعندَ اقترابِ الميلادِ تأْوي الأمُ إليهِ منتظرةً لحظةَ خروجِ جنينِها إلى الحياةِ، وما أنْ تضعَ الجنينَ حتَّى تمضيَ عائدةً إلى حيِّها ،ونتولَّى -نحنُ القائمينَ على خدمةِ الأطفالِ- رعايتَهُ وتعليمَهُ إلى أنْ يصيرَ يافعًا قادرًا على تحملِّ مسؤوليَّاتِهِ ،مضيفًا لمجتمعَهِ عنصرًا فعالًا محققًا لما خلقَ لهُ، وبذلكَ هوَ أولُ بناءٍ شهدَهُ

عالمُنَا، نطورُهُ على مرِّ الزمانِ، ولكنَّهُ ظلَّ محتفظًا بقدسيتِهِ ،تحيطُهُ هالةٌ منَ العظمةِ أضفتْ على الحيِّ بأكملِهِ؛ ليمثلَ ذلكَ الحيُّ قدسَ الأقداسِ في عالمِنَا.

أنهتْ رحمةُ إجابتَها المستفيضةَ عنْ سؤالِ عالية بابتسامةٍ مرحبةٍ بمزيدٍ منَ الأسئلةِ ،وأتبعتْ قائلةً:

_ هُناكَ شيْءٌ آخرُ تودينَ الاستفسارَ عنْ كنْهِهِ؟

بذهنٍ شاردٍ يسعى لاستيعابِ حديثِ رحمةَ ،وعينينِ محدجتينِ إلى اللاشيْء أجابتْها عالية قائلةً:

_ نعمْ.

_ هلمَّ.

استعادتْ عالية تركيزَها بكثيرٍ منَ العسرِ ؛لتطرحَ سؤالَها التالي بصورةٍ صحيحةٍ دونَ تلعثمٍ ،ثمّ قالتْ:

_ لَمَا؟ لَمَا يتمتعُ نورٌ بُكلِّ ذلكَ القدرِ منَ الضياءِ ؟!

_ لأَنَّهُ القائدُ الأعلى المستقبليُّ.

هكذا أجابتْ رحمةُ عالية ببساطةٍ، فعقدتْ عالية حاجبيْها متسائلةً طلبًا لمزيدٍ منَ الإيضاحِ:

_ القائدُ الأعلى المستقبليُّ ؟!!

_ نعمْ.

ثمّ أتبعتْ رحمةُ إجابتَها بتساؤلٍ قائلةً:

_ هلْ تطلعتِ يا عالية إلى القائدِ الأعلَى عندمَا استدعاكِ برفقةِ رحيمَ؟

_ لا ، فقدْ أمرَني رحيمُ بعدمِ النظرِ إليْهِ مطلقًا..

_ هذا لأَنَّهُ صورةٌ معظمةٌ منْ نورَ، فضياؤُهُ قدْ يُذهبُ بصرَكِ. هذا بالطبعِ إلى جانبِ ضرورةِ إجلالِهِ وتعظيمِهِ ؛لأَنَّهُ القائدُ الأعلى.

_ أتقصدينَ أنَّ نورَ عندمَا يكبرُ سيصيرُ خلفًا لقائدِ اليوم ؟!

_ نعمْ. هذا صحيحٌ.

_ وهلْ هوَ ابنُهُ ؟

_ لا ، وليسَ ضروريًّا أنْ يكونَ ابنُ القائدِ الأعلى قائدًا مستقبليًّا ، فالأمورُ ها هُنا لا تسيرُ بالوراثةِ.

_ إذًا على أيِّ أساسٍ يتمُّ الاختيارُ.

_ القائدُ الأعلى يا عالية يُعرفُ منذُ مولدِهِ، فهوَ كمَا رأيتِ نورَ اليوم ،ولاحظتْ كونَهُ يختلفُ عنْ سائرِ الأطفالِ.

_ أتقصدينَ أنهُ يولدُ ليكونَ القائدَ، أليسَ كذلكَ ؟!

_ نعمْ. وليسَ هوَ فقطْ منْ يُعرفُ مستقبلُهُ منذُ الصغرِ ،فجميعُنا كذلكَ ، جميعُنا منذُ صغرِنا تحددَّ هويتُنا منْ خلالِ الصفةِ الغالبةِ على طبائِعنَا، ومنْ خلالِ ذلكَ يتمُّ توجيهُنا للعملِ المناسبِ لنَا، والذي خُلقْنا لأجلِهِ؛ ولذلكَ فإنَّ عملي كمربيةِ أطفالٍ كانَ نتيجةً لصفاتي التي ولدتُّ محملةً بها ،والتي تمثلُ جوهرَ وجودي ، وهذهِ القاعدةُ تتسعُ لتشملَ كافةَ أفرادِ جنسِنا ، منْ رجالٍ

ونساءٍ بدأً منَ القائدِ الأعلى حتَّى حارسِهِ ،فكلٌّ يقتصرُ عملُهُ على صفاتِهِ ،والتي نطلقُ عليْها جوهرَ وجودِهِ.

_ ولكنَّكَ قلتَ لي مسبقًا أنكمْ حُرمتمُ المشاعرَ، فكيفَ لكمْ الشعورُ بالرحمةِ أوِ الحنانِ أو سِواهُما ؟!

هكذَا تساءلتْ عالية مباغتةً رحمةَ طارقةً براحتِها على المساحةِ الفاصلةِ بينَها وبينَ رحمةَ ،وكأنَّها سقطتْ في يدِها، فاستمهلتْ رحمةَ لحظاتٍ قبلَ أنْ تجيبَها لتعقصَ شعرَها المتدلي على كتفيْها في دلالٍ طلبًا لمزيدٍ منَ الجديةِ ،ثمَّ أجابتْ بنبرةٍ متباطئةٍ ،لتمنحَ عالية مزيدًا منَ الوقتِ يساعدُها على التدبُّرِ:

_ نحنُ حقًّا لا نشعرُ يا عالية، ولكنَّ تلكَ صفاتٌ نتميزُ بهَا عمَّنْ سِوانَا، كمَا يتميزُ سِوانا بصفاتٍ لمْ نتميزْ بهَا نحنُ. فالقضيةُ ها هُنا قضيةُ تصنيفٍ ؛ليقدمَ كلٌّ منَّا أفضلَ ما لديْهِ في مكانِهِ الصحيحِ ، أليسَ في عالمِكمْ رجلٌ قدْ يتميزُ بشجاعةٍ مفرطةٍ عمّنْ سواهُ، وهذهِ الشجاعةُ يتحلَّى بهَا في سائرِ المواقفِ فلا تباغتُهُ مثلًا في وقتٍ بعينِهِ ؟! فهلْ في ذلكَ الوقتِ تستطيعينَ أنْ تقولي أنَّهُ رجلٌ يشعرُ بالشجاعةِ أمْ أنَّها تصيرُ سجيةً منْ سجاياهُ ، وصفةً منْ صفاتِهِ فتصيرُ جزءًا لا يتجزأُ منْ هويتِهِ.

_ نعمْ.معكِ حقٌّ.

قالتْها عالية بعدَ أنْ أومأتْ برأسِها موافقةً، وبذلكَ منحتْ رحمةَ إشارةً للاستطرادِ في تفسيرِها قائلةً:

_ وهكذَا نحنُ، لكلٍّ منَّا دورٌ يؤديهِ في حياتِهِ الممتدَّةِ إلى أنْ يخبوَ جوهرُ وجودِهِ، فينعدمُ دورُه، فيموتُ؛ ليحلَّ محلَهُ فردٌ آخرُ لهُ نفسِ صفاتِهِ، وهكذَا.

_ ونحنُ أثناءَ اهتمامِنا بالأطفالِ نراعي اختلافَهمْ وجوهرَ وجودِهمْ، فنقدمُ لكلٍّ منهمْ تعليمًا يتناسبُ مع دورِه المستقبليِّ في مجتمعِنا..

_ هذا حقًّا أمرٌ عجيبٌ..

قالتْها عالية بعد أنِ اعتلا مُحيّاها الكثيرُ منْ أماراتِ الدهشةِ والعجبِ، ثمَّ ما لبثتْ حتَّى أتبعتْ بتساؤلٍ بديهيٍّ تبادرَ إلى ذهنِها في الحينِ قائلةً:

- ولكنْ ماذا إنِ اختارَ أحدُكمْ أنْ يمتهنَ مهنةً تخالفُ ما فُطرَ لأجلِهِ ؟!!

ضحكتْ رحمةُ كثيرًا، ثمَّ قالتْ مفسرةً ضحكتَها غيرَ المبررةِ من وجهةِ نظرِ عالية ،والتي بدَا على وجهِ الأخيرةِ الاستياءُ ظنًّا منْها أنَّ رحمةَ تسخرُ منْ سؤالِها قائلةً:

_ اختيارٌ ، هذهِ الكلمةُ يخلو منْها قاموسُ مفرداتنا يا عالية ،فلا يحقُّ لنا الاختيارُ ، دورُنا في الحياةِ يقتصرُ على تنفيذِ ما نأمرُ بهِ وكفى ، لا نعترضُ ، لا نجادلُ ، لا نختارُ.

_ مطلقًا. لا تخَيرونَ في شيءٍ طوالَ حياتِكمْ.

_ نُخيرُ في أمورٍ بسيطةٍ لا تعدُو لتمثلَ أهميةً حقيقيةً،أمَّا الأمورُ المصيريةُ كالعملِ، والذي يتواءَمُ مع جوهرِ وجودِنا والارتباطِ،والذي منْ خلالِه

تستمرُّ حياتُنا،فهيَ أمورٌ قدرتْ لنا منذُ بدايةِ خلقِنا، وليسَ لنا يدٌ في تعديلِ تلكَ المقدراتِ..

_ ولكنَّ رحيمَ اختارَ أنْ ينقلَني إلى عالمكمْ على الرغمِ منْ أنَّ هذا الفعلَ يجرمُهُ قانونُكمْ.

_ ولذلكَ عوقبَ بالحبسِ. أنتِ لمْ تفهميني جيدًا يا عالية، نحنُ نمتلكُ القدرةَ على الاختيارِ،ولكنَّنا أيضًا فُطرْنا على الطاعةِ ولذلكَ فغيرُ مسموحٍ لنا التدخلُ فيمَا قُدر لنا، ليسَ لعجزِنا، وإنما لوجوبِ انصياعِنا لأقدارِنا، فأنتِ قدْ لاحظتِ أنَّ العقابَ أمرٌ مطروحٌ في عالمِنا على الرغمِ منْ ندرتِه ،وإلَّا فلمَا شُيِّدتْ غرفُ السجنِ أسفلَ قلعةِ الحاكمِ والحكيمِ قائدِنا القائدِ الأعلى، إنْ كانَ العصيانُ أمرًا غيرَ واردٍ ، هلْ فهمتِ؟!!

_ نعمْ.فهمتُ ، ولكنَّهُ أمرٌ يدعو إلى الانتقالِ إلى سؤالٍ آخرَ إنْ سمحتِ لي.

أشارتْ رحمةُ براحتِها إشارةً مرحبةً بعدَ أن خفضتْ رأسَها في تواضعٍ قائلةً:

_ تفضلي يا عالية. بالطبعِ لكِ هذا.

_ إنْ كنتمْ غيرَ عاجزينَ عنِ الاختيارِ، وانصياعِكمْ لجوهرِ حياتِكمْ وليدِ انصياعِكمْ للأوامرِ.

قاطعتْها رحمةُ قائلةً:

_ ليسَ فقطْ منْ أجلِ انصياعِنا للأوامرِ يا عالية، فلا تنسِي أنَّنا لا نملكُ خيارًا آخرَ، فهذا ما فُطرْنا عليهِ ، ولنْ نحسنَ عملًا في سِواهُ.

أشارتْ عالية بأناملِها إشارةً تدعو إلى استمهالِها ،ثمَّ قالتْ:

_ دعيني أكملُ سؤالي يا رحمةُ أولًا ،ثمّ أجيبي.

_ أعتذرُ. أكملي.

_ ألمْ يحدثْ حالاتُ تمردٍ مسبقًا ، أعني ألمْ ينحرفْ أحدٌ منكمْ عمَّا قُدرَ لهُ ساعيًا لرسمِ قدرِهِ بنفسِهِ.

طرقتْ رحمةُ بنظرِها أرضًا حينًا ،ثمَّ رفعتْ رأسَها محدجةً عالية في صمتٍ مطبقٍ فمَا كانَ منْ عالية إلَّا أنْ أعادتْ عليها السؤالَ بعد أن أيقنتْ أنّ هناكَ شيئًا ما في جعبةِ رحمةَ قائلةً:

_ لقدْ حدثَ ذلكَ أليسَ كذلكَ ؟!!

_ نعمْ حدثَ ، ولكنَّ الحديثَ في ذلكَ الأمرِ غيرُ مرحبٍ به، ولذلكَ اعذريني،فلا يمكنُني الاستفاضةُ في الأمرِ.

اعتصرتْ عالية راحةَ رحمةَ بين راحتيْها في استجداءٍ قائلةً:

_ أرجوكِ يا رحمةُ، قصّي عليَّ ما حدثَ.

تنهدتْ رحمةُ في استسلامٍ ،ثمَّ قالتْ:

_ كما تشائينَ ، ولكنْ ليسَ الآنَ ،دعيني أستأذنُ القائدَ الأعلى أولًا.

أومأتْ عالية موافقةً بعدَ أنِ اعتلتْ وجهَها ابتسامةُ رضًا لَمَا ظفرتْ به منْ رحمةَ منْ وعدٍ. وفي تلكَ اللحظةِ أتتْ إحدى الفتياتِ داعيةً رحمةَ لأمرٍ هامٍّ، فاستجابتْ لها لتتبعَها تاركةً عالية تلوكُ حديثَها الذي احتوى على زخمٍ منَ

المعلوماتِ تخصُّ طبيعةَ حياتِهمُ المستغرَبةِ بالنسبةِ إليها ، فهيَ وإنْ كانتِ اليومَ تتلقَّى المعلوماتِ وهيَ تتمتَّعُ بكاملِ حريَّتِها في الاختيارِ ،فمَا أنِ اختارتِ البقاءَ فسيْسْري عليْها ما يسري عليهمْ، ويكونُ لها مثلُ ما لهمْ. فعبارةُ القائدِ الأعلى ما زالتْ يتردَّدُ صدَاها في آذانِها حتَّى الآنَ " لكِ ما لنَا ،وعليْكِ ما عليْنا "

توالتِ أيامٌ عدةٌ على عالية عجزتْ عنْ إحصائِها بعدَ استلامِها عملِها الجديدِ في حيِّ الأطفالِ،وقدْ قضتْ أغلبَ وقتِها في متابعةِ تحركاتِ الجميعِ، بدأً منَ الأطفالِ منتهيةً بالحارسِ، وكأنَّها مخبرٌ يجيدُ عملَهُ، حتَّى استخلصتْ عدةَ ملحوظاتٍ دونتهمْ في ذاكرتِها التي أفردتْ مساحتَها بالكاملِ لدراسةِ طبائعِ وأنماطِ حياةِ كلِّ منْ تقعُ عيناهَا عليْها سواء داخلَ عملِها أوْ خارجَهُ كلَّما سمحتْ لَهَا الفرصةُ.

وطوالَ تلكَ الفترةِ سعتْ عالية؛ لتقبلَ نمطَ الحياةِ العجيبَ في ذلك العالمِ، مروضةً نفسَها التي اعتادتِ التنوعَ والاختلافَ في عالمِها إلى الركونِ ؛وتقبلِ الخياراتِ المحدودةِ من مأكلٍ وملبسٍ ومشربٍ، إلى جانبِ العملِ الذي أُمرتْ بمزاولتِهِ دونَ اختيارٍ.

فعلى الرغمِ منْ أنَّ ذلكَ العملَ أمتَعها ،وأشبعَ رغباتَها في أنْ يكونَ لها دورٌ فعالٌ في المجتمعِ يدفعُ الجميعَ إلى احترامِها، وخاصَّةً الأطفال الذينَ منحوهَا الاهتمامَ، وأشعرُوها بجدوى وجودِها بركضِهمْ نحوها ما أنْ تلجَ إلى حيِّهمْ، تاركينَ مربياتِهمْ اللاتِي اعتادواْ عليهنَّ منذُ نعومةِ أظافرهمْ الأمرَ الذي أسعد

قلب عالية كثيرًا، إلى جانبِ نورَ وتعلقِها الشديدِ به، فقدْ هامتْ به حبًّا حتَّى أنَّها كانتْ تنتظرُ الوقتَ الذي سترَاهُ فيهِ ،وتضمُّهُ إلى أحضانِها، فكانَ يكفيها نظرةُ عينهِ ،وما تدخلُهُ منْ سعادةٍ بالغةٍ إلى روحِها التي اعتادتِ الألمَ، ولكنَّها وسطَ كلِّ ذلكَ ظلتْ تتساءلُ في نفسِها هلْ إنْ خُيرتْ بينهُ وبينَ عملٍ سواهُ ،فهلْ كانتْ ستختارُهُ عنْ طيبِ نفسٍ؟! ولذلكَ كانتْ تسعى لمعرفةِ سائرِ الأعمالِ التي يزاولُها سِواها، وتخيِّرُ نفسَها بينهمْ وبينَ عملِها كمربيةِ أطفالٍ،وكأنَّ لها الخيرةَ ، ولكنَّ كِفةَ الاعتناءِ بالصغارِ دائمًا ما كانتْ ترجحُ.

فتخلصُ إلى إقناعِ نفسِها بكثيرٍ منَ العسرِ أنَّ تلكَ الخياراتِ المحدودةَ هيَ كلُّ ما تحتاجهُ، وأنَّ نفسَها لا تنجذبُ لشيءٍ مغايرٍ لَمَا قُدِّرَ لَها إنِ اختارتِ البقاءَ ، مناجيةً نفسَها:

_ ماذا تبغينَ يا عالية أكثرَ من حياةٍ تنعمينَ فيها بسحرِ الطبيعةِ الخلابةِ التي عزَّتْ في عالمكِ حتَّى آلتْ إلى الانزواءِ بعيدًا عنِ البشرِ ،وهمجيتِهمْ واستهلاكهمْ لها غيرِ محدودٍ ؟!ماذا تبغينَ أكثرَ منْ طعامٍ يمدُّكِ بالصحةِ والعافيةِ، ويسدُّ رمقَكِ إلى جانبِ طيبِ مذاقهِ ؟!! ماذا تبغينَ أكثرَ منْ عملٍ يُدخلُ على روحكِ السعادةَ والرِّضا بما تمنحينهِ من حبٍّ وعطفٍ وحنانٍ لأطفالٍ كالنجومِ المتلألئةِ ؟!!

_ هذا هوَ العالمُ الذي كنتِ تبحثينَ عنهُ في أحلامِكِ ، هذا ما تستحقينَهُ، فانْعمي بهِ قدرَ المستطاعِ.

هكذا كانتْ تحدثُ عالية نفسَها عامدةً إلى تجاهلِ إجابةِ عقلِها عنْ تساؤلاتِها التي تطرحُها عليهِ ،وهيَ غيرُ منتظرةٍ سوى إجابةٍ تدفعه دفعًا نحوهَا، ولكنهُ كانَ له رأيٌ آخرُ، سعى كثيرًا إلى إبرازِهِ أمامَ أعينِها التي أغلقتْها متعمدةً تجاهلَهُ، ولأنَّهُ يأسَ منْ استماعِها إليهِ كانَ يومضُ في رأسِها منْ وقتٍ لآخرَ بعبارةِ " ولكنَّكَ إنِ اخترتِ البقاءَ ،فكلُّ تلكَ المغرياتِ لنْ تشعري بسحرِها بخسارتِكِ حقِّكِ في الشعورِ تحقيقًا لمبدأ أنْ يكونَ عليكَ ما عليْهِمْ، وحينَها لنْ تكوني عالية التي تختارُ الآنَ بعواطفِها"

فمَا يكونُ منْها إلَّا أنْ تحرِّكَ رأسَها يمينًا ويسارًا في محاولةٍ يائسةٍ لطردِ تلكَ الأفكارِ التي لا تبغي التأثرَ بها أوْ حتَّى الاستماعَ إليها..

ولكنَّ عقلَها أصرَّ على الإلحاحَ كلَّما منحتْهُ الفرصة إبَّان صحوِها وحتَّى أثناءِ غفوِها.

فكثيرًا ما كانتْ تراودُها أحلامٌ ترى فيهَا نفسَها تركضُ نحوَ الاتجاهِ الذي دلفتْ منهُ إلى ذلكَ العالمِ في محاولةٍ للهربِ منْ وحشٍ تجسَّدَ في صورةِ ضوءٍ ساطعٍ يلحقُها ساعيًا للإطباقِ على أنفاسِها ، وحينَها تستيقظُ مفزوعةً مقطوعةَ الأنفاسِ عاجزةً عنْ تفسيرِ تلكَ الرؤيا التي تتركُ في حلقِها عبارةً لمْ يطاوعْها لسانُها في الإلقاءِ بها على مسامعِها" هذا ليسَ محلَّكِ يا عالية ، أنتِ لا تنتمينَ لذلكَ المكانِ "

حتي حانت لحظة استسلمت فيها عالية لما مارسه عقلها عليها من ضغطٌ بتفانٍ مطلقٍ، والذي تضاعفَ كلَّما شارفتِ المهلةُ على الانتهاءِ، فمنحتْهُ جلسةَ مكاشفةٍ يعرضُ فيها الحقائقُ كما يرَاها هوَ ،وكمَا تسعى هيَ لإغفالِها، وكانتْ نتيجتُها أنْ قررتْ عالية استجلاءَ الصورةِ بموضوعيةٍ.....

***

انتظرتْ عالية رحمةَ ذاتَ يومٍ ،وقدِ اتخذتْ قرارَها، وما أنْ حضرتْ رحمةُ لتقديمِ الفطورِ ، ثمَّ اصطحابِ عالية إلى العملِ كمَا اعتادتْ ،حتَّى وجدتْ عالية تعاني منْ توترٍ عظيمٍ بادٍ على قسماتِ وجهِها وتحركاتِ قدميْها اللتيْنِ اتخذتَا منْ غرفتِها ممْشى تجولُ فيهِ ذهابًا وإيابًا. تعلقتْ عينا رحمةُ بعالية للحظاتٍ تتفحصُها قبلَ أنْ تلحظَ وجودَها ،ثمَّ دلفتْ بعدَ أنْ ألقتْها السلامَ أثناءَ وضعِها لصينيةِ الطعامِ على المائدةِ ، فانتبهتْ عالية أخيرًا لحضورِ رحمةَ ، توجهتْ نحوَها كالملهوفةِ ،وقبلَ أنْ تردَّ التحيةَ بمثيلتِها أجلستْها على مقعدِها ،ثمَّ جلستْ بدورِها قائلةً في توترٍ وبنبرةٍ راجيةٍ:

_ لقدْ كنتُ في انتظارِكِ على أحرِّ منَ الجمرِ ،لَما تأخرتِ؟!

أجابتْها رحمةُ باسمةَ الثغرِ في دلالٍ مشيرةً براحتِها نحوَ عالية قائلةً:

_ أرَى ذلك بكلِّ وضوحٍ.

ثمَّ استطردتْ رحمةُ بعدَ أنِ اكتستْ ملامحُها بأماراتِ الجديةِ قائلةً:

_ ولكنْ ما الأمرُ الجللُ الذي أصابَك بكلِّ هذا التوترِ ،وقضَّ مضجعَكِ.

_ هلْ تستطيعينَ تقديرَ كمْ منَ الأيامِ تبقتْ على مُهلتي ؟!

اعتلا العبوسُ مُحيَّا رحمةَ قليلًا مفكرةً ،ثمّ قالتْ:

_ بالطبعِ أنا لا أعلمُ تحديدًا ، ولكنَّني أظنُّ أنَّ مهلتَكِ شارفتْ على الانتهاءِ.

طرقتْ عالية بنظرِها أرضًا ،لا تعرفُ منْ أينَ تبدأُ حديثَها، فَمَا كانَ من رحمةَ إلّا أنْ لاحظتْ ذلك فعاجلتْها ؛لتزيلَ عنْها حيرتَها قائلةً:

_ أفضي إليَّ يا عالية بمَا يُعتملُ في صدرِكِ، فأنَا لستُ فقطْ خادمتَكِ التي تأتيكِ بطعامكِ وشرابكِ ،وإنَّما أنا هاديتُك إلى صوابِ السبيلِ، لذلكَ لا تخفي عنِّي شيئًا ؛فليسَ لكِ ها هُنا معينٌ سِواي.

انفرجتْ أساريرُ عالية عندَ سماعِها لتلكَ الكلماتِ ،وقرَّرتْ أنْ تصارحَ رحمةَ بمَا يلهبُ نفسَها منْ تساؤلاتٍ:

تركتْ عالية ما تصنعُهُ عائدةً إلى الترجلِ في غرفتِها ،تفريجًا عنْ توترِها ،وأيضًا هربًا منْ عينيْ رحمةَ التي تشعرُ ،وكأنَّهَا جهازيْنِ يعملانِ خصيصًا لاختراقِ حاجزِ روحِها ،وبالطبعِ هذا يسهمُ في زيادةِ حدةِ انفعالِها.

مرَّتْ لحظاتٌ ،ورحمةُ تطالعُ عالية في انتظارِها حتَّى افتتحتْ حديثَها قائلةً:

_ عالمُكمْ مذهلٌ يا رحمةُ، مذهلٌ لحدِّ عدمِ تصديقِ وجودِهِ. ومنذُ اللحظاتِ الأُولى منْ ولوجي إليهِ شعرتُ وكأنَّي انتمي لهُ بكلِّ جوارحِي، حتَّى أنَّني تمنيتُ لوْ كنتُ لا أنتمي لسِواهُ.

أنهتْ عالية جملتَها ،ثمَّ ازدردتْ ريقَها بكثيرٍ منَ العسرِ، وأكملتْ:

_ ولكنْ ما أنْ توالَتْ عليّ الأيامُ – والتي ها هُنا عجزتُ عن تقديرِها- اتضحتْ لي بعضُ الأمورِ التي كانتْ غائبةً عنْ نظرِي ، فتشتتْ نفسي، واضطربَ يقيني، وازدادَ هذا الاضطرابُ عندمَا سألتُكِ إنْ كانَ هُناكَ منْ تمرَّدَ على نمطيةِ حياتِكمْ ؟ فأجبتْني أنْ "نعمْ".

توجهتْ عالية بنظرِها نحوَ رحمةَ تطالعُها عقبَ انتهاءِ حديثِها ؛لترى وقعَهُ على نفسِها راجيةً ألّا تكونَ قدْ جرحتْها بعبارتِها وقدْ كانتْ رحمةُ في تلكَ اللحظاتِ تحدجُها بعينيْ أمٍّ حنونٍ تقَدِّرُ تمردَ ابنتِها المراهقةِ.

هبَّتْ رحمةُ واقفةً ،وتوجهتْ صوبَ عالية – والتي كانتْ تعتصرُ راحتيْها في قلقٍ، أحاطتْها بذراعيْها ،ثمَّ أرسلتْ على ثغرِها ابتسامةً هادئةً كدعوةٍ لإزالةِ القلقِ عنْ نفسِ عالية، وقالتْ:

_ أنتِ الآنَ يا عالية في مفترقِ طرقٍ، وأنَا حقًّا سعيدةٌ لإدراكِكِ حجمِ مسؤوليةِ قرارِكِ قبلَ فواتِ الأوانِ، وهذا ما كنتُ أنتظرُهُ منكِ بعدَ أنَ خبا بريقُ عالمِنا في عينِكِ قليلًا..ولذلكَ..

خفضتْ رحمةُ ذراعيْها ،وترجلتْ ؛لتبتعدَ قليلًا عنْ عالية ،ثمَ استدارتْ قائلةً:

_ أنَا سأعمدُ على تلبيةِ كلِّ طلباتِكِ ؛لتتخذي قرارَك بكلِّ أريحيةٍ ؛ ليكونَ قرارًا لنْ تندمي عقبَهُ أبدًا.

ابتسمتْ عالية بعدَ أنْ أدخلتْ رحمةُ بكلماتِها الاطمئنانَ على نفسِها ،والتي عصفتْ بها في اللحظاتِ الماضيةِ عواطفٌ مضطربةٌ، فعادتْ إلى السكونِ.

أقبلتْ عالية نحوَ رحمةَ مستغلةً وعدَها الذي لمْ يمرَّ عليهِ سِوى لحظاتٍ معدوداتٍ ،وقالتْ مباغتةً:

_ أينَ المتمردُ الآنَ ؟!

_ في محبسِهِ، ولكنْ لمَا تسألينَ؟!

_ لأنَّني أريدُ مقابلتَهُ....

قذفتْ عالية جملتَها بقوةٍ ،وكأنَّها جمرةُ نيرانٍ تسعى للتخلصِ منْها بإلقائها في شباكِ رحمةَ.

بهتتْ رحمةُ ، فلمْ ترنو توقعاتُها إلى ما طمحتْ إليهِ عالية، فقدْ كانتْ تظنُّها تريدُ منْها الإلقاءَ على مسامعِها قصةَ المتمردِ وكفى، أمَّا أنْ تقابلَهُ شخصيًّا فهذَا أمرٌ حقًّا صعبٌ، فبالتأكيدِ القائدُ الأعلى لنْ يصرّحَ لها بذلكَ مطلقًا.

_ رحمةُ أينَ أنتِ ؟!!

قالتْها عالية بعدَ أنْ لاحظتْ شرودَ رحمةَ ،ووجومَ وجهِها ساعيةً لأنْ تعيدَ إليها انتباهَها، وبالفعلِ تنبهتْ رحمةُ متحدثةً بنبرةٍ بدَا عليْها الاستجداءُ:

_ عالية! دعينا نجلسُ لنتحدثَ سويًّا في أمرِ المتمردِ ، ولكِ منْ لدنِّي عهدٌ بألَّا أخفيَ عنكِ أمرًا منْ شأنِهِ التأثيرُ في قرارِكِ.. أمَّا أنْ تقابليهِ شخصيًّا فهذا أمرٌ يقاربُ الاستحالةَ ، فلقدْ أعلمتُكِ مسبقًا أنَّ مجردَ الحديثِ في شأنِهِ غيرُ مستحبٍّ، وقدْ يعرِّضْ صاحبَهُ للعقابِ، فهوَ هُنا يا عالية مغضوبٌ عليْهِ ،لا يُسمحُ له بالتواصلِ مع أحدٍ ،فكيفَ لكِ رؤيتُهُ والحديثُ معهُ وجهًا لوجهٍ ؟

احتضنتْ عالية راحتيْ رحمةَ بينَ راحتيْها قائلةً في قوةٍ وجسارةٍ:

_ هذا منْ حقِّي يا رحمةُ، فمقابلتِي لهُ سيتحددُ على إثرِها الكثيرُ منَ الأمورِ، وستتكشفُ أمامَ عيني العديدُ منَ الحقائقِ ، ولذلكَ فأنَا أرجُوك، أعْرضي الأمرَ على القائد الأعلى ، امنحيني فرصتي الكاملةَ لاتخاذِ قراري عنْ طيبِ نفسٍ.

_ بالطبعِ يا عالية إنْ كانَ في يدي الأمرُ ما تردَّدتُّ في الموافقةِ ، فأنا حريصةٌ عليكِ قدرَ حرصِكِ على نفسِكِ ،ولكنْ...

ثمَّ صمتتْ رحمةُ هنيةً لمراجعةِ قرارِها قبلَ أنْ تلفظَ بِهِ ،رامقةً عالية ،فطالعتْها نظرةُ أملٍ لا تزالُ متشبثةً بأهدابِها ،تنتظرُ منْها طوقَ النجاةِ، فما استطاعتْ أنْ تردَّها خائبةَ الرجاءِ على الرغمِ منْ يقينِها منْ رفضِ القائدِ الأعلى لطلبِها إلى جانبِ إمكانيةِ معاقبتِها هيَ شخصيًّا؛ لحديثِها في أمرٍ يحذرُ التطرقُ إليهِ في المعتادِ.

_ سأذهبُ يا عالية لطرحِ الأمرِ على القائدِ الأعلى.

ابتسمتْ عالية ابتسامةً تسعُ الكونَ بأكملِهِ ،ثمَّ قالتْ شاكرةً:.

_ لنْ أنسى لكِ معروفَكِ هذا ما حييتُ..و...

استمهلتْ رحمةُ كلماتِ الإطراءِ المنطلقةَ منْ في عالية بإشارةٍ من راحتِها تدعو إلى التريثِ ،ثمَّ قالتْ:

_ تريثي يا عالية ؛فأنا قلتُ سأعرضُ الأمرَ على القائدِ الأعلى ،ولمْ أمنحْكِ أنا الإذنَ ،ولذلكَ لا تُعلِّقي الكثيرَ منَ الآمالِ عليَّ، فما أنا سوى فردٍ في مجتمعٍ يخضعُ بأكملِه لأحكامِ القائدِ الأعلى النابعةِ منْ حكمتِهِ الشاملةِ، فقدْ يستجيبُ إلى طرحِي ،وقدْ يرفضُهُ، وعلى الأغلبِ هذا ما سيكونُ.

خبتْ ضياءُ الابتسامةِ على شفتيْ عالية قليلا، ولكنَّها سُرعانَ ما تداركتِ القلقَ الذي أعادتْهُ رحمةُ إلى نفسِها قائلةً:

_ أنا أثقُ بكِ يا رحمةُ، وأثقُ في قدرتِكِ على تلبيةِ مطْلبي.

ربتتْ رحمةُ على كتفِ عالية، ثمَّ استدارتْ خارجةً لإنجازِ مهمتِها..خرجتْ رحمةُ منْ منزلِ عالية متوجهةً صوبَ حيِّ القائدِ الأعلى ،عازمةً على تنفيذِ مطلبِ عالية بشتَّى السبلِ.....

وما أنْ وصلتْ إلى بوابةِ الحيِّ -والتي عادةً ما تكونُ موصدةً يقفُ على جانبيْها حارسانِ يستقبلانِ الوافدينَ لطلبِ الإذنِ منَ القائدِ الأعلى بالولوجِ وعرضِ مسألتِهمْ عليْهِ- حتَّى أبلغتْ رحمةُ أحدَ الحراسِ برغبتِها في طلبِ الإذنِ لها بمقابلةِ القائدِ الأعلى ، فتحتِ البوابةَ العملاقةَ ،ودلفَ الحارسُ إلى الداخلِ ،وبعدَ لحظاتٍ عادَ ومعهُ الموافقةُ.

دلفتْ رحمةُ إلى بهوِ القصرِ مطأطئةَ الرأسِ ،كما هيَ عادةُ أهلِ ذلكَ العالمِ ، وما أنِ اقتربتْ مسافةً كافيةً حتَّى ترددتْ نبراتُ صوتِ القائدِ الأعلى؛ ليهتزَّ على إثرِها أرجاءُ المكانِ متسائلًا عنْ سببِ حضورِها قائلًا:

_ تفضَّلي يا رحمةُ ،اعرضي قضيتَكِ.

فقالتْ رحمةُ بصوتٍ واثقٍ:

_ سيدي اسمحْ لي التقدمَ بمطلبٍ كلفتْني عالية بعرضِهِ على سموِّكَ.

_ وما هوَ؟!

_ عالية.. عالية.. عالية سيدِي طامعةٌ في كرمكَ لتسمحَ لها بمقابلةِ المتمردِ سلام..

ألقتْ رحمةُ طلبَ عالية على مسامعِ القائدِ الأعلى ببطءٍ إلى أنْ وصلتْ إلى اقترابِ نهايةِ جملتِها ،فألقتْها بتسرعٍ ،وكأنَّها تُلقي عنْ عاتِقَها حملًا أثقلَها.

سادَ صمتٌ ثقيلٌ للحظاتٍ دونَ تعليقٍ إلى أنْ بادرَ القائدُ الأعلى بالحديثِ قائلًا:

_ ومِن أينَ لها بمعرفةِ سلام؟!!

_ عالية فتاةٌ ذكيةٌ ، ومنْ خلالِ حديثي معهَا الذي وُكلتُ من خلالِهِ بإعطائِها كافةِ المعلوماتِ عن عالمِنا، والتي منْ شأنِها أنْ تهديَها صوابَ السبيلِ في اختيارِها المصيريِّ، توقعتْ أنَّ نمطَ حياتِنا إنِ اجتمعَ مع مخالطتِنا للبشرِ قد ينتجُ عنه متمردونَ، فتساءلتْ عنْ ذلكَ، وبالطبعِ ما كانَ أمامي إلَّا أن أصدقَها القولَ:

_ أنتِ تعلمينَ يا رحمةُ أنَّ الحديثَ عنهُ أمرٌ مجرَّمٌ، فكيفَ طاوعتِها بالتحدثِ في أمرِهِ ؟!

_ سيدي أنَا أجبتُها عنْ سؤالِها فقطْ بنعمْ، دونَ استفاضةٍ في الحديثِ عنْ فعلتِهِ ،إلى جانبِ أنَّ عالية لا تنتمي إلى عالمِنا، ووجودِها بينَنَا أمرٌ لمْ نعهدْهُ مسبقًا.. وأنا رأيتُ أنَّ منْ حقِها الإجابةَ عنْ كافةِ تساؤلاتِها بكلِّ شفافيةٍ، وأظنُّ أنَّ أمرَ المتمردِ قدْ لقيَ صدًى ما في نفسِها، فهيَ تعدُّ نفسَها متمردةً علَى عالمِها وواقعها مثلِها كمثلِهِ ،ولذلكَ فبشعورِها باقترابِ انقضاءِ مهلتِها ،أرادتْ أنْ تقابلهُ شخصيًّا.

أنهتْ رحمةُ حديثَها ،ومكثتْ تنتظرُ حكمَ القائدِ الأعلى ،أمَّا بموافقتِهِ على مطلبِ عالية، وأمَّا معاقبتُها هيَ شخصيًّا بجرمِ حديثِها في أمرٍ مجرمٍ تداوله، ولكنَّهُ فاجأَها بأنْ تستدعيَ أحدَ الحرسِ قائلًا:

_ أقدِمْ يا شديدُ.

أقدمَ شديدُ حارسُ قلعتِهِ مطأطِئَ الرأسِ قائلًا في بأسٍ:

_ أمرُكَ سيّدي.

في تلكَ اللحظةِ توقعتْ رحمةُ أنَّها ستنالُ ما نالَ رحيمُ منْ عقابٍ ؛لتجاوزِها وتخطيها الأعرافِ المسلمِ بها، ولكنَّ هذا لمْ يحدثْ، فقدْ أمرَ القائدُ الأعلى حارسِهِ قائلًا:

_ اذهبْ وأحضرْ عالية منْ منزلِها.

خفضَ الحارسُ رأسَهُ علامةً عنِ الطاعةِ ، وانصرفَ.

****

كانتْ عالية تنتظرُ رحمةَ ، وقدِ اشتعلتْ أعصابَها اشتعالًا.. لا تعلمُ لَا هيَ مصّرةٌ على مقابلةِ المتمردِ إلى هذا الحدِّ، ولكنَّها كانتْ مؤمنةً أنَّ تلكَ المقابلةَ ستسفرُ عنْ مغانمَ كثيرةٍ ، وكعادتِها عندمَا يعترِيها التوترُ والقلقُ أثلجتْ أناملَها ،وصارتِ القشعريرةُ في كاملِ جسدِها الرقيق، فسعتْ لتبديدِ تلكَ الطاقةِ الضاغطةِ عليْها بتحركاتِها داخلَ منزلِها دونَ هدفٍ يُذكرُ، فتارةً تدلفُ إلى جنتِها الصغيرةِ المسماةِ بالشرفةِ، فلا يجذبُها فيهَا شيْءٌ فتعودُ إلى مضجعِها لتريحَ جسدَها الذي أضناهُ التوترُ العصبيُّ ،فلا يكادُ يسكنُ حتَّى تهبَّ مرةً أُخرى للترجُّلِ ذهابًا وإيابًا في غرفتِها، وبالطبعِ لمْ تذقْ للزادِ طعمًا منذُ أنْ رحلتْ رحمةُ.

وبعدَ حينٍ تبادرَ إلى سمعِها أصواتُ طرقٍ على باب منزلِها. فتسربتْ قشعريرةُ إلى جسدِها لتزيدَهُ وهْنا، وشعرتْ أنَّ قدماهَا تزنانِ أطنانًا ، فهيَ لمْ تعتدْ أنْ يطرقَ بابَها أحدٌ، فرحمةُ كانتْ تدلفُ إليْها دونَ طلبِ الإذنِ،فمنْ عساهُ يكونُ الطارقُ ،حدثتْها نفسُها بأنَّ هناك خطبًا ما لا ينذرُ بالخيرِ. انتظرتْ للحظاتٍ ظنًّا بعقلِها الظنونَ بعدَ أنْ أقنعتْ نفسَها أنَّها تتوهمُ.

ولكنَّهُ عادَ ليخترقَ أسماعَها مرةً أُخرى مؤكدًا حقيقتَهُ ، تمالكتْ أعصابَها التي خارتْ تمامًا ودماؤُها التي فرَّتْ هاربةً ،وهبطتِ الدرجَ في اتجاهِ البابِ الذي اعتادَ المرور به ، جذبتْهُ لينفتحَ عن آخرِه ؛لتجدَ أمامَها أحدَ حراسِ القائد الأعلى.

وفي تلكَ اللحظةِ توقعتْ سببَ مجيئِهِ.

تحدَّثَ الحارسُ بسماتِهِ المتعاهَدِ عليْها منْ ضخامةِ البنيانِ ،وعمقِ نبراتِ الصوتِ قائلًا:

_ سيِّدتي ! القائدُ الأعلى أمرَ بإحضارِكِ ، أرْجو أنْ تتبعيني.

أومأتْ عالية برأسِها كنايةً عنِ الموافقةِ ،ولمْ تنبثْ ببنتِ شفةٍ.

تبعتْهُ عالية ،وقدْ غلَّفَ الصمتُ جمَّ حواسِّها على عكسِ ما يعتملُ بينَ جوارِحها منِ اضطرابٍ.

سارَا سويًّا إلى أنْ وصلَا إلى حيِّ القائدِ الأعلى ،وكانتْ بوابتُهُ مفتوحةً على مصراعيْها في انتظارِهما.

دلفَ الحارسُ،و تتبعَهُ عالية في توجسٍ ولكنْ بثقةٍ، فقدْ كانتْ طوالَ طريقِها تسْعى لاستجماعِ شجاعتِها ،محفزةً نفسَها بأحقيتِها في أنْ تعلمَ ، وهوَ حقٌّ لنْ ينكرَهُ عليْها القائدُ الأعلى إنِ استطاعتْ طرحَ قضيتِها العادلةِ بصورةٍ مُستوفاةٍ.

هكذَا حدثتْ عالية نفسَها، والتي استجابتْ لها وأطاعتْها؛ لتتخلَّى قليلًا عنْ مخاوفِها وتوترِها.

تقدمتْ عالية في حضرةِ القائدِ الأعلى مطأطئة الرأسِ واثقةَ الخُطَى.. وأثناءَ تقدمِها لاحظتْ تواجدَ رحمةَ، والتي كانتْ تختلسُ النظرَ إليْها بدورِها، فتلاقتِ الأعينُ على استحياءٍ. اقتربتْ حتَّى الحدِّ المسموحِ ،ثمَّ سكنتْ تنتظرُ

أنْ تطرقَ آذانَها نبراتُ القائدِ الأعلى الآسرةُ ، وبالفعلِ اهتزتِ الأرجاءُ مهابةً بعدَ أنْ دوّى صوتُ القائدِ الأعلى قائلًا.

_ لقدْ رأيتُ أنْ أعطيَكِ يا عالية فرصتَكِ لعرضِ قضيتِكِ بنفسِكِ دونَ وسيطٍ ، فتفضَّلي..

تحشرجَ الصوتُ داخلَ حُنجرتِها للحظاتٍ، ولكنَّها استطاعتْ بكثيرٍ منَ العسرِ السيطرةَ على لجامِهِ ،فخرجَ خافتًا ،ولكنَّهُ واثقٌ ،قائلةً:

_ أتمنَّى أنْ تسمحَ لي سيِّدي بمقابلةِ المتمردِ.

_ ولِمَا؟!

تحدثتْ عالية عاقدةً يديْها ،قائلةً:

_ لقدْ نجحتْ رحمةُ طوالَ المدةِ المنقضيةِ في إيضاحِ كلِّ ما غفلتِ عنْهُ، فكانتْ خيرَ مرشدٍ ومعينٍ، ولذَا أنا لها شاكرةٌ، ولكنَّني أشعرُ أنَّ ما يضمرَهُ المتمردُ في صدرِهِ، سيكونُ مختلفًا عمَّنْ سِواهُ، ولذَا أعتقدُ أنَّ ضالَّتي التي ستساعدُني في البتِّ في أمرِ اختيارِي ،سأجدُها بحوْزتِهِ.

ثمَّ استجمعتْ عالية شجاعتَها قائلةً في قوةٍ:

_ لذا أرجُو أنْ يشملَني عطفُك وحكمتُك ؛فتفسحَ ليَ المجالَ لزيارتِهِ في محبسِهِ..

أنهتْ عالية جملتَها ؛ليسودَ الصمتُ:

كانتْ عالية في تلكَ اللحظاتِ مستعدةً لتلقِّي قرارِ القائدِ الأعلى بنفسٍ راضيةٍ ، فهيَ كانتْ على يقينٍ من حكمتِهِ التي ستدفعُهُ لتلبيةِ رغبتِها ، ولما لا؟! وهيَ في أرضِ الحكمةِ والتعقلِ، فمنْ غيرُ قائدِها وقاضيها قادرٌ على تقديرِ موقفِها.

عادَ صوتُ القائدِ الأعلى ليدوِّيَ في الأرجاءِ مرةً أُخرى مُزلزلًا لكيانِها قائلًا:

_ لكِ يا عالية ما طلبتِ.

انفرجتْ أساريرُ عالية على إثرِ هذهِ العبارةِ التي شنفتْ آذانَها ،فاتسعتْ ابتسامتُها العذبةُ ؛ليشرقَ وجهُها مجددًا بعدَ غيمةٍ عابرةٍ ظللتْهُ حينًا منذُ أنْ تركتْها رحمةُ.

أتى حارسانِ حاملانِ هيبتَهما التي تخرُّ لها النفوسُ مهابةً ؛ليصحبوهَا منفردةً دونَ رحمةٍ إلى مكانٍ ما لمْ تطأْهُ قدماها من قبلُ.

وهُنا شعرتْ أنَّها في حاجةٍ لصحبةِ رحمةَ، فهذهِ المرةُ الأُولى التي تذهبُ فيها منفردةً، ولكنَّها بالطبعِ تجاهلتْ رغبتَها تلكَ ،ولمْ تجسرْ على طلبِها بعدَ أنِ استنبطتْ سببًا لذلكَ، فإنْ كانَ غيرَ مسموحٍ لأهلِ ذلكَ العالمِ الحديثُ في أمرِ المتمردِ والخوضُ في تفاصيلِ جرمِهِ ،فمؤكدٌ لنْ يُسمحَ لهمْ أيضًا الاستماعُ إلى أفكارِهِ ومعتقداتِهِ التي قدْ تؤثِّرُ في غيرِهِ ،فتنزعُ عنهُ يقينَهُ وسلامَهُ النفسيَّ.

اتَّبعتْ عالية خُطَى الحارسيْنِ متوجهةً صوبَ رواقٍ يقعُ إلى يسارِ البهوِ ،ومنهُ إلى درجٍ يقودُها نحوَ الأسفلِ، هبطتْ عالية درجًا بمقدارِ طابقيْنِ ، وكلَّما ازدادتْ هبوطًا كلَّما قلَّ الضوءُ، وذلكَ حتَّى وجدتْ نفسَها انتهتْ إلى رواقٍ

مرةً أُخرى، ولكنَّهُ كانَ مختلفًا كليًّا عمَّا اعتادتْهُ في ذلكَ العالمِ، فقدْ كانتِ العتمةُ لها الكلمةُ العالية، وكأنَّها تعلنُ سيادتَها على هذا المكانِ ؛لينصاعَ الضوءُ أخيرًا لَها منزويًا قدرَ استطاعتِهِ ، مفسحًا لَها المجالَ لتهيْمنَ.

ولذلكَ فقدْ كانتِ الرؤيةُ عسرةً، ولكنَّها لمْ تنعدمْ.

بالنسبةِ إلى عالية كانَ الأمرُ مقبولًا ،ولكنَّها قدرتْ لَما هذا المكانُ يعدُّ عقابًا لأهلِ ذلكَ العالمِ ، فهمْ أهلُ الضياءِ، فكيفَ يكونُ حالُهُمْ إنْ حرموا منهُ، وعانوا ضعفَهُ وقلةَ حيلتِهِ أمامَ العتمةِ بسطوتِها وجبروتِها ها هُنا، وفي ذلكَ الوقتِ شعرتْ بالشفقةِ تجاهَ رفيقِها رحيمَ، فناجتْ نفسَها في خفوتٍ لائمةً وكأنَّها تحدثُهُ:

_ أعتذرُ لكَ يا رحيمُ ؛ فأنا سببُ ما تعانيهِ روحُكَ الآنَ منَ عتمةٍ ، أرجُو أنْ تسامحَني؛ كيْ أسامحَ نفْسي.

وقدْ كانتْ لبقايا الضياءِ التي استطاعتْ كسرَ العتمةِ بكثيرٍ من العسرِ فضلٌ غيرُ منكرٍ في مساعدةٍ عالية لمتابعةِ خُطاها ،فجنَّبتْها التعثرَ، إلى جانبِ كونِها مكنتْها منْ ملاحظةِ أبوابِ الغرفِ التي تراصَّتْ على جانبيِ الرواقِ بذوْقها الذي استدعى انقباضَ نفسٍ عالية، فقدْ كانتْ تلكَ الأبوابُ ذا ارتفاعاتٍ شاهقةٍ تصلُ إلى حدِّ السقفِ ،الذي يرتفعُ بدورِهِ بما يقدرُ بستةِ أمتارٍ، وكانتْ لها هيئةٌ قاتمةٌ، فقدْ تلونتْ بلونٍ رماديٍّ قاتمٍ لتزيدَ منْ مهابتِها في القلوبِ، وعندَ أحدِهمْ توقفَ الحارسانِ ؛ليفتحا البابَ العملاقَ، وما أنِ انفتحَ حتَّى

استدارَا عائدينِ إلى الرواقِ مرةً أُخرى ،دونَ أنْ تطأَ قدمُ أحدِهما أرضَ الغرفةِ ، وقدْ لاحظتْ عالية حرْصَهما على ألَّا يدلفَا معهَا إلى غرفةِ الحبسِ، فرمقتْهما للحظاتٍ بنظرةٍ مشككةٍ إلى أنْ تطوعَ أحدُهما بإزالةِ الشكوكِ عنْ نفسِها قائلًا:

_ سيِّدتي ! اعْذرينا، فغيرُ مسموحٍ لنا بالولوجِ إلى تلكَ الغرفةِ ، أمَّا أنتِ فبأمرٍ منَ القائدِ الأعلى لكِ هذَا.

قالَهَا مشيرًا براحتِهِ إلى داخلِ الغرفةِ إشارةً تعْني " تفضَّلي بالدخولِ"

أوْمأتْ عالية برأسِها ،وعيناهَا معلقتانِ بمحدثِها أنْ "نعمْ"..

دلفتْ عالية إلى غرفةِ عقابِ المتمردِ الأوحدِ الذي أنبتتْهُ تلكَ البقعةُ منَ الدنيا في توجسٍ وحذرٍ متسارعةَ الأنفاسِ:

_ السلامُ علي أهلِ السلامِ.

ألقتْها على مسامعِ قاطنِ الغرفةِ ،وانتظرتْ في محلِّها حتَّى يأتيَها الجوابُ.

_ وعليكِ السلامُ..

_ هلْ تسمحُ لي بالدخولِ ؟!

_ تفضَّلي سيدتي.

فطنتْ عالية إلى أنَّ جملةَ مضيفِها الثانيةَ كانتْ منْ مسافةٍ أقربَ إليْها منْ سابقتِها، فاستنتجتْ تحركَهُ نحوَها؛ لذَا ظلَّتْ في محلِّها تنتظرُ اقترابَهُ أكثرَ ؛لتستغلَّ أشعةَ الضياءِ البائسةِ القادمةِ منَ الرواقِ ،بعدَ أنْ لاحظتْ إطباقَ العتمةِ على الغرفةِ؛ لتحولَ بينَها وبينَ رؤيةِ موطئِ قدمِها ، وبالفعلِ اقتربَ

سلامُ أكثرَ حتَّى لاحَ لها هيئتُهُ يغلِّفُها الإظلامُ، وهذا ما تعجبتْ عالية لهُ كثيرًا، فهيَ كانتْ تنتظرُ أنْ ترى وجهًا جليًا منيرًا قادمًا نحوَها منَ الظلمةِ القاتمةِ ،لأنَّهُ فردٌ منْ أهلِ عالمِ الضياءِ ينعمُ مثلُهُ كمثلِهمْ ببهاءِ الوجهِ وضيائِهِ، ولكنَّ ظنَّها لمْ يكنْ في محلِّهِ ، وهذهِ كانتْ أولُ ملاحظةٍ سجَّلَها عقلُها الذي تأهَّبَ ،وتحفزَ ؛ليعملَ بسرعةٍ تعادلُ سرعةَ الضوءِ.

_ أنا سلامُ.. نادني سلامُ منْ فضلِكِ.

قالَها أثناءَ اقترابِهِ منْ عالية التي ظلَّتْ في محلِّها تنظرُ نحوَهُ بشغفٍ يغلِّفُهُ التوترُ. وما هيَ إلا لحظاتٌ ،وكانَ يقفُ في المقابلِ منْها عاقدًا أناملَهُ ،تعلو وجهَهُ ابتسامةُ ترحابٍ.

طالعتْهُ عالية عنْ كثبٍ بقدرِ المستطاعِ متفرسةً في ملامحِهِ التي بدتْ لها أقربَ إلى ملامحِ البشرِ. نعمْ.لقدِ احتفظَ بوسامةِ الملامحِ وتناسقِها ،ولكنَّ وجهَهُ خفيَ فيهِ الضياءُ، ليبدوَ مثلهُ كمثلِ بني جنسِها.

تراجعتْ عالية خطوتيْنِ إلى الخلفِ بعدَ أنْ ظنَّتْ لوهلةٍ أنَّهُ بشريٌّ لا ينتمي مثلَها إلى ذلكَ العالمِ.

وبالنسبةِ إليهِ فلقدْ مثَّلتْ رؤيةُ عالية لهُ أيضًا مفاجأةً غيرَ متوقعةٍ، فهوَ في محبسِهِ معزولٌ عنِ الجميعِ ؛ولذلكَ لمْ يتبادرْ إلى سمعِهِ نبأُ مقدمِ بشريةٍ إلى عالمِهِمْ ، فتساءلَ منتظرًا إجابتَها بشغفٍ بادٍ على وجهِهِ ،وعكستُهُ ابتسامتُهُ قائلًا:

_ أنتِ بشريةٌ ؟ هلْ أنا محقٌّ؟

لمْ تجبْ عالية ـواكتفتْ بإيماءةٍ من رأسِها أنْ"نعمْ" وهيَ ما زالتْ تطالعُهُ على إثرِ الضوءِ الخافتِ القادمِ منَ الخارجِ.

لاحظَ سلامُ حيرةَ عالية التي قصَّتْها عيناها المتردِّدتانِ عندَ تحديجِها في وجهِهِ، فتطوَّعَ بتفسيرِ مظهرِهِ لها قائلًا:

_ أنتِ تتعجبينَ لخبوِ الضياءِ في وجهي ،أليسَ كذلكَ ؟!

تنبهتْ عالية إلى تفرسِها في وجهِهِ بغيرِ استحياءٍ ،فخفضتْ نظرَها ،ثمَّ قالتْ معتذرةً:

_ آسفةٌ ولكنَّني منذُ أنْ حضرتِ إلى هُنا ،وأنا وحدِي المختلفةُ، ولكنَّني اليومَ اكتشفتُ أنَّ هناكَ منْ يشاركُني اختلافِي.

_ نعمْ هذَا حقيقيٌّ، لستِ وحدَك ها هُنا التي لا يحملُ وجهُكِ ضياءً، ولكنَّكِ وُلدتِّ هكذَا لأنَّكِ بشريةٌ ،أمَّا أنَا فقدْ فقدتُّهُ.

قالَ جملتَهُ التي انتهتْ إلى ما يستدْعي الدهشةَ ،ثمَّ استطردَ مستفهمًا طلبًا للإيضاحِ منْ عالية قائلًا:

_ ولكنَّكِ كيفَ تخطيتِ عالَمنا؟! وكيفَ سُمحَ لكِ بالتواجدِ ها هُنا؟! فعلى قدرِ ظنِّي أنتِ أولُ بشريةٍ تدلفُ إلى عالِمنا منذُ عهدِنا معَ بني آدمَ.

_ نعمْ ؛ فأنَا حقًّا أولُ بشريةٍ تطأُ قدمُها عالَمكمْ،واسمي عالية،ولكنْ دعنَا منْ قصَّتي الآنَ ، فكلُّ ما يمكنُني قولُهُ حيالِها ،أنَّني تمردتُّ مثلَكَ تمامًا على حياتِي

في عالِي حتَّى أَنَّني حاولتُ الانتحارَ، ولكنَّ رفيقي رحيمَ حالَ بيني وبينَ الموتِ بعرضِهِ الذي تضمَّنَ انتقالي إلى عالِمكمْ ، عالمِ الضياءِ..

_ أومأَ سلامُ برأسهِ متفهمًا، ثمّ قالَ:

_ ولكنْ ما ذكرتِهِ لا يفسرُ لي سببَ قدومِكِ إلى محبسِي، فهلْ لي طلبُ المزيدِ منَ الإيضاحِ!

_ ما جئتُ إليْكَ لأجلِهِ وانتظرِهِ منكَ هوَ أنْ تحكيَ لي قصتَكَ، والأسبابَ التي كانتْ وراءَ تمردِكَ على عالِمكَ المثاليِّ.

ابتسمَ سلامُ متهكمًا، ثمَّ تساءلَ قاطبًا حاجبيْهِ قائلًا:

_ أيّةُ مثاليةٍ التي تتحدثينَ عنْها ؟! هذهِ المثاليةُ أنتِ وحدَك التي تدركينَهَا ؟! ألَا تعرفينَ لمَا ؟!

_ أرْجو أنْ توضحَ لي ما غشيتْهُ عينايَ.

_ لأَنَّكِ وحدَكِ منْ تشعرينَ.

قالَهَا سلامُ صائحًا بقوةٍ ارتجتْ على إثرِها نفسِ عالية، ليتلاقى تأثرُها بتأثرِ جدرانِ محبسِهِ التي ارتجَّتْ بدوْرِها.

شعرتْ عالية بخوفٍ يتسلَّلُ إلى قلبِها،فعادتْ خطوتيْنِ إلى الخلفِ، لا تعرفُ إنْ كانَ عليْها الهربُ أمِ الانتظارُ ، أمَّا سلامُ فقدْ غشيَ ملامحَهُ إماراتُ الغضبِ،والتي أفاضتْ عينَ عالية ورجفةَ جسدِها في القصِّ عنِ الذعرِ منها ،

فاستدارَ سلامُ؛ ليمنحَها فرصتَها الكاملةَ في الاختيارِ ،إمَّا الانسحابُ أوِ الانتظارُ ؛لتنالَ ما أقدمتْ لنيلِهِ منْ ضياءِ المعرفةِ.

ولكنَّها انتظرتْ مقاومةً فزعَها ورغبتَها في الهربِ.

مضتْ لحظاتٌ قبلَ أنْ يستعيدَ سلامُ هدوءَهُ ؛ليعودَ إليْها قائلًا:

_ أعتذرُ عنِ انفعالي، ولكنَّني حقًّا لا أعرفُ كيفَ لا تقدرونَ -أنتمْ معشرَ البشرِ- نعمةً مُنحتموها بوفرةٍ كنعمةِ الشعورِ ؟!

احتلَّ الصمتُ جوارحَ عالية ،فلمْ تنبسْ ببنتِ شفةٍ ، فقدْ كانَ عقلُها منشغلًا بتسجيلِ الملاحظةِ الثانيةِ في سجلاتِهِ ،وهيَ انفعالُ سلامَ ،وهوَ دليلٌ على قدرتِهِ علَى الشعورِ على خلافِ بني جنسِهِ..

ترجَّلَ سلامُ في الغرفةِ المعتمةِ للحظاتٍ مستجمعًا شتاتَ فكرِهِ ،ثمَّ افتتحَ حديثَهُ بهدوءٍ قائلًا:

_ لقدْ كنتُ فردًا منْ بني عالمِ الضياءِ ، لي ما لهمْ وعليَّ ما عليْهمْ ، فلا جديدَ في الأمرِ ، حتَّى قابلتْها.

_ كانتْ فتاةٌ عاديةٌ منْ جنسِ البشرِ، لا يميزُها شيْءٌ سِوى نقاءِ روحِها، والذي هوَ شرطٌ أساسيٌّ لرفقتِنا ، استشعرتْ بحسِّها المرهفِ حضوري حولَها ،وهدايتي لَها ،فاستدعتْني ،ولبيتُ الاستدعاءَ.

_ كانتْ علاقتُنا مثلَ أيّةِ علاقةٍ تجمعُ بينَ جنسيْنا، تسألُ وأجيبُ في حدودِ المسموحِ ، تُعاني روْحُها شرورَ الحياةِ فأمنحُها الطمأنينةَ والسلامَ وهكذا.

_ إلى أنْ ثارتْ في يومٍ على طبيعةِ علاقتِنا تلكَ ، فقدْ دبَّ في قلبِها تجاهِي عواطفٌ ليستْ معهودةً بينَ جنسِنا.

_ فصارحتْني بحبِّها لي ،حبٍّ كالذي يجمعُ بينَ أيّةِ فتاةٍ وشابٍّ ، فاجأنِي كثيرًا حديثُها ،ولمْ تطاوعْني الكلماتُ حينَها ؛لأجدَ ما يتوافقُ معَ ذلكَ الموقفِ، فعلى قدرِ علمي لمْ يحدثْ هذَا قبلًا سِوَى في حالاتٍ معدودةٍ ، وعادةً ما كانتْ تنقطعُ علاقةُ الرفقةِ عندَ وصولِها لذلكَ الحدِّ. همهمتْ حينَها بكلماتٍ لمْ تفهمْ معنَاها، وأنَا أيضًا لمْ أكنْ علّى تمامِ العلمِ بما أُعنيهِ.

_ كانَ يجبُ عليَّ أنْ أبلغَها في ذلكَ الحينِ بانتهاءِ علاقتِنا للأبدِ ،ولكنَّ لساني قدْ أُلجمَ ، لا أعرفُ لمَا ،قدْ تكونُ نظرةُ الحبِّ التي رأيتُها في عينِها أسرَّتْني ،وقدَّمتْ لي دعوةً مدفوعةَ التكاليفِ لخوضِ تجربةٍ فريدةٍ من نوعِها، أمْ أنَّني آثرتُ ألَّا أجرحَ مشاعرَها في حينِها ،فأُعطي لها فرصةً لعلَّها تتراجعُ عمَّا صرَّحتْ بهِ منْ مكنونِ قلبِها. حقًّا لا أعرفُ.. وجلُّ ما فعلتُهُ حينَها هوَ الانسحابُ. انسحبتُ من أمامِها دونَ أنْ تتولدَ منْ بينِ شفتايَ كلمةٌ تُذكرُ.

_ أشعرَها انسحابي بإهانةٍ جعلتْها تتوقفُ عنِ استدعائي حينًا، ولكنِّني لمْ أغفلْها، فقدْ كنتُ مداومًا على مراقبتِها عنْ كثبٍ، متجنبًا إشعارَها بحضورِي حولَها.

_ أدمعُها لمْ تتوقفْ حزنًا على فقْدي ، حتى أتى يومٌ قرَّرتْ فيهِ استدعائي لوضعِ النقاطِ على الحروفِ ،كمَا قالتْ حينَها.

_ سلامُ ، أنا أستدعيكَ ، فلتحضرْ حالًا.

قالَها سلامُ بنبرةٍ مغايرةٍ لنبرةِ صوتِهِ العميقِ ،فجاءتْ حاملةً رقةَ صاحبتِها على ما بدَا لعالية.

عادَ سلامُ إلى نبرةِ صوتِهِ مرةً أُخرى قائلًا بحزنٍ شابهَ الشجنَ:

_ بالطبعِ ،حضرتُ بناءً على رغبتِها، وأيضًا لأنَّ لذلكَ الحينِ لمْ تنقطعْ رفقتُنا.

_ وحينَها قالتْ:" أعلمُ أنَّني تخطيتُ المسموحَ بهِ أثناءَ حديثي إليْكِ في آخرِ مرةٍ اجتمعنَا، ولكنَّ هذا ما يضمرُهُ قلبِي تجاهَكِ، وهذا ما يفوتُكِ في عالمِكِ الذي نقمَ بعدمِ الشعورِ ، أتمنَّى أنْ تشعرَ بي، أنْ تحبّني، وحينَها فقطْ ستعرفُ معنى أنْ تسعدَ.."

_ بالطبعِ أنتِ تعلمينَ يا عالية حقيقةَ ابتلائِنَا بتبلدِ المشاعرِ، ولذلكَ لمْ أستشعرْ حينَها بنبراتِ الولهِ والحبِّ المنبعثةِ منْ صوتِها، ولكنَّنا كذلكَ نمتلكُ قدرًا وفيرًا منْ رجاحةِ العقلِ ، ولذلكَ تجنبتُ مرةً أخرى إعلانَ فرقتِنا،وكانَ ذلكَ أولَ جرمٍ اقترفهُ وتجرمُهُ قوانينُنَا.

_ توالتِ اللقاءاتُ بينَنا ،وفي كلِّ مرةٍ كانتْ تكرِّرُ لي عرضَها، وتحدثني عنْ قدرِ ما أفقدُهُ إنْ رفضتُ عشقَها، وفي كلِّ مرةٍ كانتْ تنجحُ في أنْ تزعزعَ عقيدتي بأفضليتِنا عنِ البشرِ بحكمتِنا ،وتبلدِ عواطفِنا التي اعتدْنا أن نراهَا – نحنُ –معشرَ الضياءِ– نقطةُ ضعفٍ تحتلُّ الكيانَ البشريَّ ؛ليعتريَهُ الوهنُ،

وهيَ ما تفقدُهمْ تعقلَهمْ وحكمتَهمْ بخلافِنَا، فنحنُ الجنسُ الأسمى بخلوِّنا منِ نقاطِ الضعفِ خاصَّتهم.

_ حتَّى نجحتْ أخيرًا في استمالتي ؛لتعتليَ رغبتُها رغبَتي، ولأُخرَّ لها منصاعًا باحثًا عنْ سبيلٍ يحققُ لي هبةَ الشعورِ، الذي جذبَ عقلي لخوضِ تجربتِهِ برفقتِها، وكانَ ذلكَ جُرمي الثاني.

قطعتْ حديثَ سلامَ تنهيدةُ ألمٍ نابعةٌ منَ القلبِ ،ثمَّ أكملَ:

_ بَحثتُ وبحثتُ كثيرًا بعدَ أنْ فُتنَ عقلي بأحقيَّتي في التجربةِ، وتوهَّجتْ بينَ ثناياهُ كلمةٌ تبعدُ عنْ قاموسِ مفرداتنا كبعدِ السماءِ عنِ الأرضِ، وهيَ الاختيارُ....

_ وقدْ كانَ.. أخيرًا هداني عقلي الذي أضناهُ البحثُ عنْ ثغرةٍ يحقِّقُ من خلالِها أملَهُ إلى البحثِ عنْ ساحرٍ ، فلا غيرُ السحرِ قادرٌ على اختراقِ الحدودِ، والعبثِ في الأقدارِ، وبالطبعِ كانَ هذا جُرمي الثالثَ.

_ وبدونِ دعوةٍ مسبقةٍ جازفتُ بالظهورِ إلى ساحرٍ متملكٍ من أدواتِ سحرِهِ، نابغٍ في قدراتِهِ ،بالطبعِ تفاجأَ كثيرًا، فعلى الرغمِ منْ تمامِ علمهمْ – معشرَ السحرةِ – بتواجدِنا –على عكسِ سائرِ البشرِ– إلَّا أنَّهمْ حرموا الاختلاطَ بنا منذُ الأزلِ ؛لتلوثِ أرواحهمْ بأعمالِهمُ النجسةِ، فمَا استطاعَ ساحرٌ على مرِّ الدهرِ أنْ يحظى برفقةِ فردٍ من بني الضياءِ.

_ عرضتُ عليهِ رغبتي ، والتي كنتُ أعلمُ جيدًا أنَّها ستدخلُ حيزِ صفقةٍ أُقدمُ في المقابلِ منْها شيئًا ما.

_ وبالفعلِ رحَّبَ كثيرًا، ووعدني بتنفيذِ شقٍّهِ منَ الصفقةِ ،إنْ عاهدتُّهُ بتنفيذِ شقِّي منها لاحقًا.

قاطعتْهُ عالية متسائلةً في حيرةٍ عاقدةً حاجبيْها:

_ وما الذي طلبَ منكَ تقديمَهُ؟!

_ كمَا لكِ أنْ تتوقَّعي.

_ المعرفةُ؟!!

هكذا لفظتْ عالية في سؤالٍ يشْبهُ بالإجابةَ، فأجابَها سلامُ مرددًا إيَّاها بنبرةٍ تعادلُ عمقَ الكلمةِ وغموضِها قائلًا:

_ المعرفةُ...

ثمّ استطردَ بعد أنْ أقدمَ نحوَ عالية لتتضاءلَ المساحةُ الفاصلةُ بينهُما مقتحمًا مجالَها الفيزيائيَّ قائلًا:

_ حسنًا.المعرفةُ..

_ ماذا تعني؟!

_ أعني أنَّنا نمنحكمْ قدرًا ضئيلًا منْ معرفتِنا، قدرًا تتحملُهُ عقولُكُمُ التي لا تدركُ سِوى المحسوساتِ، أمَّا المعرفةُ الكليةُ الشموليةُ التي ننعمُ بها نحنُ فنحجبُها عنكمْ، منْ ناحيةِ حفاظِنا على عقولِكمْ حتَّى لا تتيهَ في العدمِ باحثةً

عنْ محسوساتٍ في عالمٍ مليءٍ بالغيبياتِ، ومنْ ناحيةٍ أُخرى لأنَّنا غيرُ مسموحٍ لنا طبقًا لقوانينِنا بالتحدثِ في تلكَ الأمورِ.. هذا ما طلبَهُ الساحرُ ،وهذَا ما وافقتْ على منحِهِ إيَّاهُ في مقابلِ تحقيقِهِ لمطلبِي.

اتسعتَا عينا عالية استقبالًا لهولِ الفكرةِ، فلاحظَ سلامُ ذلكَ ،فعلَّقَ بلهجةٍ متهكمةٍ قائلًا:

_ أنتَ على الرغمِ منْ جهلكِ التامِّ لقدرِ ما تشملُهُ عقولُنا منْ إدراكٍ كليٍّ لحقائقِ الكونِ ،فزعتْ منْ تلكَ الصفقةِ، ولكنَّني حينَها كانَ يحركُني دافعٌ خفيٌّ، عجزتْ أنا نفسي عنْ كبحِ لجامِهِ.

_ وقدْ كانَ.

_ مضى الساحرُ في تنفيذِ شِقِّه منَ الصفقةِ، أثناءَ انصياعِ عقلي لسحرِ الرغبةِ في الاختيارِ والشعورِ.. حتَّى استدعاني ،ولبيتُ دعوتَهُ ، فتحدثَ إليَّ قائلًا: "اقبلْ يا سلامُ !" أقبلتْ نحوَهُ منتظرًا الحصولَ على شقِّي منْ صفقةِ العمرِ.

_ مدَّ راحتَهُ نحْوي فمنحتُهُ راحتي، وعيناىَ معلقتانِ به، أسعى لمعرفةِ ما ستقدُمُ عليهِ نفسَهُ ، جذبَها بقوةٍ واضعًا إيَّاها فوقَ نيرانٍ موقدةٍ يحملُها قدرٌ نحاسيٌّ وضعَ على منضدةٍ في المقابلِ منهُ، وتلكَ المنضدةُ يشكلُ قطرُها كلَّ المساحةِ الفاصلةِ بيني وبينهُ، حينَها جذبتُ راحتي بقوةٍ ،فقدْ شعرتْ ببألمٍ شديدٍ بعدَ أنْ ألهبتْها النيرانُ ، ابتسمَ الساحرُ متهكمًا ،ثمَّ قالَ:" هذا ما سعيتُ للحصولِ عليهِ ، هلْ أدركتَ الآنَ حجمَ ما ضحيتُ لأجلِهِ ؟! "

_ ثمَّ أردفَ:

_ " أنصحُكَ أن تعتادَ ذلكَ الشعورَ، شعورَ الألمِ ، فهوَ منذُ الآنَ باتَ حليفَكَ، مثلك كمثلِ سائرِ البشرِ. نعمْ، ستنتابُكَ عواطفٌ أُخرى، منْ فرحٍ، وحزنٍ، وشغفٍ، وحبٍّ، ولكنَّ كلَّ تلكَ العواطفِ سيظلِّلُها الألمُ، كغصةٍ في الحلقِ تأبى الرحيلَ"

_ حديثُه يومَها قبضَ قلبي، وهوَ أيضًا شعورٌ آخرُ تسللَ إلى نفسِي في ذلكَ اليومِ ....

أنهى سلامُ جملتَهُ ،ثمَّ ابتعدتْ خطاهُ قليلًا نحوَ العتمةُ، للحظاتٍ قدَّرتْ عالية أنَّهُ يزيلُ خلالَها عبرةً تسللتْ إلى عينيْهِ التي خيمتْ سحُبُ الحزنِ عليْها، ثمَّ عادَ بخطًى مُتثاقلةً .

فقالتْ عالية مقدرةً الضغطَ الذي وضعتْهُ على كاهلِهِ معتذرةً:

_ آسفةٌ على تذكيرِكِ بمَا يعكرُ صفوَكِ..

_ لماذَا تأسفينَ ؟! على العكسِ تمامًا، فأنا كنتُ في أمسِّ الحاجةِ لإخراجِ ما يكنُّهُ صدري إلى أحدٍ قادرٍ على الشعورِ بحالي، وما تعانيهِ نفسِي،فاسْمحي لي أنُ أكملَ حديثي.

أشارتْ لهُ عالية براحتِها ،وعلى وجهِها ابتسامةٌ كنايةً عنْ " لكَ هذا ،وبكلِّ سرورٍ" فقالَ سلامُ:

ثمَّ أتبعَ الساحرُ حينَها قائلًا:

_ لقدْ وفَّيتُ بتقديمِ شقِي منَ الصفقةِ، أما بخصوصِكِ،فلنْ أطالبَكَ الآنَ بشيْءٍ، اذهبْ وانعمْ بمطلبِك،وعندمَا استدعيكِ، وجبَ عليْكِ المثولُ أمامي، لتلبِّي مطلبِي. اذهبْ ،وانعمْ بعواطِفِكَ كطفلٍ حُرمَ منْ نعمةِ السمعِ ،ومُنح إيَّاها على حينِ غفلةٍ ، ستشعرُ باضطرابٍ، بتخبطٍ إثرَ تدافعِ عواطفَ مختلفةٍ في صدرِكَ، حتَّى أنكَ ستعجزُ أحيانًا على تحديدِ ما ينتابُكَ منْ شعورٍ، ولكنَّكَ ستعتادُ الأمرَ ، اليومُ لكَ ، والغدُ لكَ، أمَّا التالي فلي ".

_ أنهى الساحرُ كلماتِهِ التي كانتْ تقعُ على نفسِي وقعًا عجيبًا، شقَّ عليَّ حقًّا تحديدَهُ في ذلكَ اليومِ ، ولكنْ بالطبعِ كانَ هناكَ ما يشغلُ بالي كثيرًا، حتَّى أنهُ دفعَني لعدمِ التفكيرِ بتروٍّ في حديثِهِ،وهوَ شعورُ الحبِّ الذي سأنعمُ به في أحضانِها...أحضانِ جميلةَ..

_ وقدْ كانَ ، نعمتُ في أحضانِها ليومينِ كاملينِ، أنهلُ فيهمَا منْ نبعِ حبِّها وشغفِها، وهوَ ما كانَ يضمرُهُ قلبي أيضًا، فأذابتْنا عواطفُنا التي كانتْ في فورتِها، فانصهرْنا بداخلِها، ولمْ يبقَ منَّا سوى همساتٍ وهمهماتٍ خافتةٍ. حلقْنَا سويًّا إلى عنانِ السماءِ، عانقْنا السحابَ، ذقتُ للسعادةِ طعمًا ،بنو جنسي كافةً لمْ ينالواْ سحرَها يومًا، واهمينَ أنَّهمْ فُضلواْ علَى العالمينَ.

_ ولكنَّ لكلِّ شيْءٍ نهايةٌ، ونهايةُ سعادتي أتتْ عندمَا استدعاني الساحرُ لتلبيةِ مطلبِهِ.

حينَها فقطْ شعرتُ بحجمِ الحملِ الذي يقعُ على عاتقي ،فناجيتُ نفسي:

_ مِن أينَ أبدأُ ؟! ما الذي يمكنني البوحُ به، وما الذِي في مقدورِي إغفالِهِ ؟! أعلمُ أنَّ الساحرَ لن يتوانى عنْ مطلبِهِ، ولنْ يسمحَ لي بإغفالِهِ عنْ بعضِ المعرفةِ التي يسعى إليْها. وفي ذلكَ الحينِ تسلَّلَ إلى نفْسي خلسةً شعورٌ مستحدثٌ ،وهوَ اليأسُ وقلةُ الحيلةِ.

قالَها سلامُ ،ثمَّ نفثَ ما في صدرِهِ منْ لهيبٍ ،في تنهيدةٍ حكتِ الكثيرَ منَ الآلامِ ،واستطردَ قائلًا:

_ ذهبتُ إليهِ خاليَ الوفاضِ، فقالَ الساحرُ بلهجةٍ آمرةٍ نابعةٍ منْ شعورِهِ بأحقيتِهِ في استجوابي بناءً عنْ صفقتِنا:" هلمَّ ائتِ بما عندَك ؟!" وفي تلكَ اللحظةِ التي رأيتُ في عينيْه نظرةَ المالكِ الذي يستجوبُ مملوكَهُ، أبتْ نفسي أنْ تكونَ مملوكةً لغيرِ اللهِ – عزّ وجلّ – فأعلنتْ تمردَها، ورفضَها لإتمامِ تلكَ الصفقةِ المشبوهةِ، مهمَا كانتِ النتائجُ، فأجبتُهُ قائلًا:" ليسَ عندي ما يرْوي فضولَكَ ويُشبعُ غرورَكَ، أنتَ إنسانٌ قاصرُ الفكرِ، ضعيفُ العقيدةِ ،منبوذٌ من رحمةِ اللهِ، وستظلُّ كذلكَ إلى يومِ يُبعثونَ !!!!"

_ بالطبعِ هاجَ الساحرُ ،وماجَ بعدَ أنِ امتطاهُ جوادُ غضبِهِ، فأطاحَ بالمنضدةِ التي تقبعُ عادةً أمامَهُ ،وتشكلُ حائلًا بينِي وبينَهُ ؛لتنسكبَ على الأرضِ قاذفةً بنيرانِ الصحنِ ،ناثرةً إيّاها في أرجاءِ الغرفةِ؛ لتعكسَ نيرانَ روحِهِ التي انتشرتْ بدورِها حوْلي، وقالَ مهددًا:" أتظنُّ أنَّكَ قادرٌ على خداعي؟! أتظنُّ أنَّني قابلٌ للخداعِ ؟! أنتَ حقًّا أحمقُ، فما منحتُكَ إيّاهُ قادرٌ على سلبِهِ منكَ

بكلِّ بساطةٍ في لحظةٍ، ولكنْ لا، سأتركُكَ تتعذبُ بما سعيتَ لنيلِهِ، أمَّا عقابُكَ فسيكونُ....."

_ لمْ أمنحْهُ الوقتَ الكافيَ لإتمامِ جملتِهِ، فكنتُ حقًّا عاجزًا عنْ تقديرِ مدى الضررِ الذي هوَ قادرٌ على إلحاقِهِ بي، فمنْ كانَ قادرًا بسحرِه على كسرِ ناموسِ الحياةِ ،ومنحي هبةٍ لمْ ينعمْ بها فردٌ منْ بني جنسي مسبقًا،لهوَ قادرٌ حقًّا على إيذائي ؛ ولذلكَ انسحبتُ منْ أمامه تاركًا إيّاهُ ليلقيَ تعويذتَهُ للخواءِ.

_ وحينَها ما كانَ أمامي سِوى العودةِ إلى عالمي، لطلبِ الغفرانِ، فإنْ طالَ مُكثي في عالمكمْ، فلنْ أكونَ بمعزلٍ عنْ يدِه ، فقطْ عالمُنا القادرُ على توفيرِ الملجإِ والملاذِ منْ بطشِهِ..وحينَها تخلَّل قلبي شعورٌ آخرُ، وهوَ..

وأشارَ بأناملِهِ كنايةً عنْ قوسينِ ،ثمّ قالَ:

_ " الخوفُ"

_ عدتُّ إلى جميلةَ لوداعِها ، وحقًّا كانَ وداعًا حارًّا ألهبَ وجداني بنيرانِهِ ، حتّى أنّني تجنبتُ إخبارَها بما كانَ منْ أمرِ الساحرِ تجنبًا لتعكيرِ صفوِ لقائِنا، والذي تجنبتُ أيضًا إعلامَها بكونِهِ قدْ يكونُ الأخيرَ.

ترجّل سلامُ قليلًا ،ولخفضِ وتيرةِ التوترِ التي اجتاحتْ وجدانَهُ لذكرى تحملُ لنفسِهِ مزيجًا منَ الحنينِ والخوفِ،انعكستْ على ملامحِه، فأشفقتْ عالية عليهِ ،وأرادتْ منحَهُ فرصةٍ للتغلبِ على أوجاعِهِ، فقالتْ مترددةً في عرضِها:

_ إنْ كنتُ أثقلتُ عليكَ اليومَ بالحديثِ في ذكرياتِكَ ،فبإمكانِنَا استكمالُهُ في وقتٍ آخرَ..

عادَ سلامُ ليُشرْ براحتِهِ علامةً عنِ النفْي، ووجهُهُ لمْ يتخلَّ عنْ معاناةِ الذكرياتِ التي مزجتْ بينَ السعادةِ والشقاءِ قائلًا:

_ لا أرجُوكِ، فأنَا في حاجةٍ لاستكمالِهِ الآنَ..

فما كانَ من عالية إلّا أنْ أومأتْ برأسِها كنايةً عنِ الموافقةِ بكلِّ ترحابٍ، فقدْ كانتْ تُعاني شقَّي الرحى، أولًا:هيَ حقًّا تشفقُ على سلامَ، وتريدُ أن تمنحَهُ فرصةً ؛ليتعافى منَ الاسترسالِ في حديثِ شقٍّ على نفسِهِ، وثانيًا: كانتْ تخشى ألَّا تُمنحَ تلكَ الفرصةَ مرةً أُخرى، فيفوتُها الظفرُ العظيمُ بخلاصةِ تجربةِ أولِ متمردٍ في عالمِ الضياءِ.

أكملَ سلامُ حديثَهُ بعدَ أنْ هدأَ نوعًا ما قائلًا:

_ عدتُّ إلى عالمِنَا ، عالمِ الضياءِ تتضاربُ بداخلي العواطفُ؛ ليحتلَّ نفسي العديدُ منْها في لحظاتٍ قليلةٍ، ولكنَّ الندمَ كانَ سيدَها.

_ عرضتُ خطاياي على القائدِ الأعلى بكلِّ صدقٍ وأريحيةٍ، وحينَها تنحَّى الثقلُ الذي احتلَّ صدْري، وأثقلَ كاهلي، ولوْ بدرجةٍ يسيرةٍ ، ولكنَّ أشدَّ ما أدهشَني أنَّني وجدتُّ القائدَ الأعلى عليمًا بكلِّ شيءٍ ، فعندمَا انتهيتُ منَ الاعترافِ تحدثَ قائلًا بلهجتِهِ الآسرةِ:" أكنتَ تظنُّ يا سلامُ أنَّنَا حقًّا كنَّا سنتركُ لكَ فرصةَ البوحِ بما تملكُ من معرفةٍ ؟! إنَّنا كنَّا أعلمَ بما أقدمتَ على

اقترافِهِ منْ خطايَا منذُ أنْ عُدتَّ إلى عالمِنا حاملًا وجهًا يعكسُ انفعالاتِكَ..حينَها تعالتِ الهمهماتُ بأنَّ هُناكَ خطبًا ما يحيطُ بكَ،حتَّى وصلتَ إليَّ، فأمرتُ أنْ تُوضعَ تحتَ مراقبةٍ مشددةٍ، أنتَ ذاتُكَ لا تشعرُ بها، وقدْ كانَ، وحينَها علمْنَا كلَّ شيْءٍ ، ولكنّني رأيتُ أنْ أتركَ لكَ الفرصةَ كاملةً قبلَ أنْ نتدخلَ لإيقافِكَ منتظرًا منكَ التراجعَ ، ولقدْ كنتُ محقًّا، فما استطعتَ أن تُتمِّمَ صفقةً كانتْ لتقلبَ موازينَ الكونِ، وقدْ تضعُهُ على المحكِّ منْ أجلِ رغباتِكَ وشهواتِكَ التي زرعتَها في نفسِكَ البشريةِ ،ولكنَّ تراجعَكَ هذا لنْ يمحوَ عنكَ سوءَ العاقبةِ،فعقابُكَ ينتظرُكَ...."

_ فأجبتُهُ منكّسَ الرأسِ، ليسَ إجلالًا وتعظيمًا كما فُطرْنَا، وإنَّما إذلالًا وخزيًا قائلًا:

_ "وأنَا في انتظارِ عقابي جرّاءَ خطاياي".

_ فقالَ القائدُ: "الضوءُ خبيَ في وجهِكَ يا سلامُ، وهذا خيرُ برهانٍ على تضاؤلِ حكمتِكَ وتعاظمِ جهلِكَ، وهوَ كفيلٌ بأنْ يخرجَكَ منْ زُمرةِ عشيرتِنا، فما عدتَّ فردًا منّا بعدَ الآن ، وهذا أمرٌ جللٌ، وأظنُّكَ وُسمتَ بعارِ أنَّ لكَ السبقَ إليْهِ. كمَا أنَّك لمْ ولنْ تنتميَ للبشرِ ما حييتُ، وعلى ذلكَ فقدْ أمسيتَ مسخًا، هائمًا، يجدُرُ بهِ الانزواءُ والابتعادُ عنِ الجميعِ ،وعليْهِ فإنَّكَ معاقبٌ بالسجنِ حتَّى تقضيَ منيتَكَ، ويخبوَ جوهرُ وجودِكَ ،لا تحادثْ أحدًا، ولا يبتُّ في شأنِكَ العامةُ ،فتكونُ منبوذًا مدحورًا إلى أنْ يواريَكَ النسيانُ.."

_ وها أنا، كمَا ترينَ، أنتظرُ أنْ تُقْضَى منيتي محملًا بأوزارِي ، معذبًا بنقمةْ سعتْ قدمايَ إليْهَا، فمَا تبقَّى ليْ منَ المشاعرِ سِوى الفقدِ، والندمِ، والألمِ، إلى جانبِ ذكرى باهتةٍ لسعادةٍ وجيزةٍ،لمْ أنعمْ بها في أحضانِ حبيبتي جميلةَ سِوى يومَيْنِ، حتَّى أنَّني لا أعلمُ إنْ كانتْ ما زالتْ على قيدِ الحياةِ ،أمْ أنَّ المنيةَ قدْ وافتْها ، فلي دهرٌ ها هُنا.

_ أظنُّها قضتْ نحبَها حسرةً على عشيقٍ ما لبثْ أنْ منحَها ما تاقتْ إليهِ روحُها ،حتَّى تركَها وحيدةً دونَ كلمةِ وداعٍ، تُعاني صدمتَها وحُزنها ، أوْ لعلَّها تناستْني ،ومضتْ في حياتِها دونَ اكتراثٍ لأمْري ، لا أعرفُ.

_ حقًّا لا أعرفُ، ولا أريدُ أنْ أعرفَ ما لحقَ بهَا، ففي الحالتيْنِ سيوغرُ صدري ويُدْمى قلبي ، لقدْ كانَ قضاءُ القائدِ الأعلى عادلًا،لكنَّهُ كانَ قاسيًا.

_ هل أنت نادم ؟

تساءلتْ عالية بصوتٍ بدَا في نبراتِهِ التعاطفُ، فأجابَهَا سلامُ بعدَ أنْ مسحَ رأسَهُ براحتيْهِ ،وكأنَّهُ يسعَى لتهدئَةِ عقلِهِ الذي أضنتْهُ الذكرياتُ الأليمةُ، وما انتهَى إليْه حالُهُ قائلًا:

_ بكلِّ تأكيدٍ نادمٌ، ولكنْ ليسَ لمَا قدْ تظنينَ ، أعْني ليسَ لما فقدتُّهُ من قدرٍ منِ الحكمةِ في مقابلِ اكتسابِ المشاعرِ.. وإنَّما نادمٌ لما آلَ إليهِ حالي الآنَ، فكمَا ترينَ، لا أنا بشريٌّ يتمتعُ بحريتِهِ، وعواطفِهِ، واختياراتِهِ، التي يتحملُ كاملَ مسؤوليتِها، ولا بقيتُ على ما خلقتُ لأجلِهِ، فردًا منْ بني عالمِ الضياءِ.

_ لا تمتعتُ بأحقيتِي في اقترافِ الآثامِ ،ومنْ ثمّ العودةِ والتوبةِ كبشريٍّ يخطأُ ويصيبُ بدافعٍ منْ عواطفِهِ ووهنِ نفسِهِ، ولا أنا معصومٌ كبني جنسي، لا أُخطأُ ،ومنْ ثمَ لا أحتاجُ إلى توبةٍ قد تقبلُ وقدْ لا تقبلُ منَ اللهِ.

_ لقدْ أمسيتُ مسخًا ، مجهولَ الهُويةِ.. لا أعرفُ لي انتماءً، ولا أعرفُ حتّى إنْ كانتْ توبتي وتضرعي لخالقي ستقبلُ أمْ لا.. أتمنَّى أنْ يغفرَ ليَ اللهُ تمردي على حكمتِهِ وكفْري بقضائِهِ،وأيضًا إلى الآن أتمنَّى التمتعَ بما دفعتْ حريتي ثمنًا لأجله، فما بقيَ لي منَ المشاعرِ سِوى الألمِ والوحدةِ ، والعذابِ، أمّا العواطفُ الأُخرى التي سعيتُ لأنْ يخفقَ قلبي لأجلِها، فأنا الآنَ أبعدُ عنها بُعدَ الليلِ عنِ النهارِ بعدَ أنْ كُتبَ عليَّ افتقادُها إلى أنْ أُفنى ؛ليضْحى الفناءُ أمِلي اليومَ يا عالية أو بلغتكمْ "الموتُ". فأحيانًا يكونُ الموتُ نعمةً يجهلُها الجاهلونَ، ويُعرضُ عنها المسرفونَ..

_ الموتُ.. الموتُ أفجعَني يا سلامُ في أقربِ الناسِ إلى قلبي، صديقتي المقربةِ.

قالتْ عالية جملتَها في ألمٍ أعادَ إليْها ذكرى كانَ لعالمِ الضياءِ فضلٌ عظيمٌ في تضاؤلِ وهجِها المحرقِ لنفسِها، فلمعتْ عيناها بعبراتٍ تسللتْ خِلسةً في هدوءٍ.

فقالَ سلامُ:

_ كثيرًا ما يمرُّ بنو البشر بحوادث جسامٍ ، حينَها يعتقدونَ أنَّ الحياةَ ستتوقفُ، وأنَّ الشمسَ ستذبلُ خجلًا من مواجهتِهم، فتنبضُ قلوبُهم برفضِ العيشِ ، ولكنَّهم، -صدِقيني عزيزتي - يستمرُّون..

_ الحياةُ ملْؤُها الفواجعُ، وسنتُها الشدائدُ ، فاعتادي الرضا بحكمةِ مدبرِ الأكوانِ.

_ أمّا بالنسبةِ للموتِ ،فما هوَ إلّا بوابةٌ لعالمٍ آخرَ وليسَ فناءً، فأرواحِكمْ لمْ تأتِ منَ العدمِ، بلْ هيَ نفخةٌ منَ اللهِ -عزّ وجلَ ، وكما أنّ ميلادَكم في الحياةِ الدنيا يمثلُ انتقالًا لأرواحِكمُ الهائمةِ من عالمٍ آخرَ، فموتُكم أيضًا يمثلُ لحظةَ ميلادٍ في عالمٍ آخرَ ، وبذلكَ فإنَّ أرواحَكمْ لنْ يتحققَ لها الفناءُ في العدمِ ،وإنَّما تؤجرُ وتكرمُ.

_ ادعِ لها بالرحمةِ والمغفرةِ، هكذا تُكرمي ذكرَاها، وتُرقي مثواها ، ولتحظى بحياةٍ برزخيةٍ راضيةٍ ، وليكنْ ظنُّكِ باللهِ خيرًا لها.

ثمّ صمتَ حينًا وأتبعَ محزونًا:

_ أمّا نحنُ.....

لمْ يكملْ سلامُ كلماتِهِ التي حشرتْ في حلقِهِ معَ غصةِ ألمٍ لمْ تفارقْهُ يومًا منذُ عهدِه بتعاظمِ عواطفِه.. ذلكَ الألمُ الذي أطلَّ من عينِهِ باحثًا عنْ ترياقٍ في عينِ عالية، ولكنْ ما كانَ في جعبتِها سِوى الشفقةِ والمواساةِ، فقدْ تعاطفتْ معَ جرحِهِ، حتى أنَّها ودتْ لو كانَ في إمكانِها طلبُ الغفرانِ لهُ منَ القائدِ الأعلى..

نعمْ لقدْ كانتْ تقدِّرُ عظمَ جُرمِهِ، وكثرةَ خطاياهُ التي وقعَ فريسةً لبراثنِها،وأنّهُ باتَ بذرةً لفتنةٍ قد تضلُّ منْ بعدِه بنو جنسِه، ولكنَّها أيضًا لمْ يكنْ في مقدورِها إثقالُهُ بمزيدٍ منَ اللومِ، وهكذا وقعَ عقلُ عالية بينَ شقَّيْ الرحى مرةً أخرى، ما بينَ رؤيتِها لأحقيةِ سلامَ في التوبةِ ،ومنْ ثمَّ الغفرانِ والتجاوزِ عن خطاياهُ، وما بينَ حيرتِها لكونِهِ لمْ يعدْ ينتمي لأيٍّ منَ العالمَيْنِ، لا هوَ ينتمي لعالمِ البشرِ، ولا عالمِ الضياءِ،هذا بالإضافةِ إلى أنَّ وجودَهُ في عالمِ البشرِ باتَ يشكلُ خطرًا عليه ، وأيضًا خطراً على قاطني عالمِ الضياءِ بأفكارِهِ وعواطفِهِ التي قدْ تفتنُ عقولَ البعضِ..

زفرتْ عالية لعجزِها عن إيجادِ كلماتٍ تتناسبُ مع موقفِها الحرجِ،فقدْ شعرتْ وكأنّ سلامَ ينتظرُ منها بعضَ العونِ، لا فقطْ الإنصاتَ إلى أوجاعِهِ للتخفيفِ عنْ روحِهِ المُعذبةِ.

تنحنحتْ عالية باحثةً عنْ أحبالِها الصوتيةِ التي فرتْ هاربةً حرجًا حتّى استطاعتْ إحكامَ قبضتِها على لجامِها قائلةً:

_ أنا حقًّا آسفةٌ لحالكَ، ولو أنَّ الأمرَ بيدي لعفوتُ عنكَ في الحالِ، ومنحتُكَ الفرصةَ لتبحثَ عن هويتِكَ إلى أنْ تضعْ نفسَك على موطنِها الذي اخترتْهُ بسلامٍ ، ولكنَّكَ خيرُ عليمٍ بقوانينِ عالمِ الضياءِ.. لذا اعذرني ليسَ في وسعي شيءٌ.....

أنهتْ عالية جملتَها طارقةَ الأرضَ بنظرِها خجلًا ممّا رمتْهُ في نفسِ سلامَ من خُذلانٍ وفقدانٍ لأملٍ واهٍ لاحَ له في الأفقِ للحظاتٍ، ثمَّ ولَى هاربًا كغزالٍ بريٍّ يعشقُ المناورةَ...

همَّتْ عالية بالانسحابِ من غرفةِ محبسهِ مطأطئةَ الرأسِ، راجيةً أنْ يلتمسَ لها عذرًا ، ولكنَّهُ استوقفَها قائلًا بنبرةٍ يكسُوها الحزنُ:

_ انتظري يا عالية! فهناكَ شيءٌ آخرُ أودُّ قولَهُ.

تصلبتْ خطواتُ عالية ،فعادتْ لتحدجَهُ متسائلةً بعينِها في صمتٍ مطبقٍ:

_ أنا لا أعرفُ أيّةَ معاناةٍ كابدتّها في عالمِكَ، حتى لتفرينَ منهُ بإلقاءِ نفسكِ في أحضانِ شبحِ الموتِ، ولكنَّني قادرٌ أنْ أقدمَ لك نصيحةً من مخلوقٍ دفعَ الكثيرَ ثمنًا ليحيى في عالمكِ بأوزارِهِ وحماقاتِهِ،عُودي يا عالية إلى عالمِكِ، ولا تبحثينَ عنْ سِواهُ بديلًا ، انعَمي بما منحَكِ اللهُ من نعمٍ، استمتعي بحياتِكِ بكلِّ ما حملتْهُ لك منْ لحظاتٍ تشملُ الأفراحَ والأحزانَ، ابحثي عن شغفِكِ، واسعي لإدراكِهِ، وإنْ لمْ تجيديهِ فاصنعيهِ ، فوحدهُ الشغفُ يحملُ لكِ سعادةَ اليومِ وأملَ الغدِ، واعلَمي أنَّكِ بنعمةِ الشعورِ رُزقتِ طيبَ العيشِ..اقترفي الأخطاءَ، وتوبي عائدةً إلى اللهِ، فأنتمْ -معشرَ البشرَ -مخلوقاتُهُ المدللونَ ، أنتمْ من مُنحتم هبةَ الاختيارِ ،وإنْ عصيتمْ فلكمُ التوبةُ التي تعيدُكمْ كيومِ ولدتْكمْ أمهاتُكمْ..لا تلومي أحدًا على خطاياهُ، فهكذَا خلقتمْ مذنبينَ. ولكنَّكمْ مكرّمونَ.....

***

_ هلْ حقًّا قررتِ العودةَ إلى عالمِك ؟!

قالَها رحيمُ موجهًا حديثِهُ إلى عالية مندهشًا.

فقدْ علِمَ منْ رحمةَ ،والتي كانتْ في استقبالِهِ عندَ خروجِهِ منْ محبسِهِ ؛لتهديَ لهُ خبرَ عدولِ عالية عنْ قرارِها ببقائِها في عالمِ الضياءِ، ورغبتِها في العودةِ إلى عالمِها، وما أنْ تبادرَ إلى سمعِهِ الخبرُ حتَّى طلبَ مقابلةَ عالية لاستجلاءِ الصورةِ كاملةً، فاستجابتْ لهُ رحمةُ ،وتوجّها سويًّا إلى منزلِ عالية قُبيل موعدِ لقائها معَ القائدِ الأعلى بقليلٍ.

أجابتْهُ عالية باسمةَ الثغرِ قائلةً:

_ نعمْ. هذا قراري. اليومُ هوَ موعدي معَ القائدِ الأعلى،وقدْ حسمتُ أمري.

_ ولكنْ هلْ أنتِ مُتأكدةٌ منْ قرارِك هذا ؟!

فأجابتْهُ مازحةً بوجهٍ يشرقُ بابتسامةِ أملٍ:

_ بالطبعِ، أتظنُّ أنّني قدْ أسعى للعودةِ ؛كي أوديَ بحياتي ؟! صدقْني يا رحيمُ ،أنا ها هُنا استطعتُ أنْ أقدرَ النعمَ التي منحنَا اللهُ إيّاها ، نحنُ معشرَ البشرِ ،وكمْ نحنُ مفضلونَ على العالمينَ ، استطعتُ أنْ أقدرَ المعصيةَ النابعةَ منْ وهنِ نفوسِنا ،والتي تدفعُنا إلى طلبِ التوبةِ والغفرانِ منَ اللهِ -عزَّ وجلّ- فنعودُ ؛لنتضرعَ بينَ يديْهِ، فلا يردُّنا خائبينَ.

_ استطعتُ حتَّى أنْ أقدرَ قيمةَ الألمِ والوجعِ الذي يشعرُنا بأنَّنا على قيدِ الحياةِ.استطعتُ أنْ أتقبلَ فكرةَ الموتِ الذي قدْ يُفجعُ قلوبُنا لقصرِ نظرتِنا لعاقبتِه..

_ أعتقدُ الآنَ يا عالية أنكِ حقًّا لستِ في حاجةٍ إليّ، فقدْ هديتِ صوابَ السبيلِ، بعدَ أن مُنحتِ حكمةً تضمنُ لك سلامَ الروحِ والنفسِ والجسدِ طوالَ حياتِك ، أتمنّى لكِ كلَّ التوفيقِ..

_ ولكنّني سأُحرمُ رفقتُكَ يا رحيمُ.

قالتْها عالية في ألمٍ بدا في نبراتِ صوتِها، فهوّنَ عليْها رحيمُ قائلًا:

_ هذا ثمنٌ زهيدٌ لما نلته من هدايةِ نفسٍ وشفاءِ روحٍ، ولكنْ دعيني أطرحُ عليكِ تساؤلًا أخيرًا يا عالية قبلَ الوداعِ الأخيرِ..

_ بكلِّ سرورٍ تفضّلْ.

_ منْ منَّا حسبَ ظنِّك أوفرُ حظًّا؟ منْ مُنحَ رجاحةَ العقلِ ،أم منْ منحَ وفرةَ الإحساسِ ؟!!!

بوجهٍ اعتلاهُ الخجلُ ،وعينانِ باحثتانِ عنْ مهربٍ أجابتْ عالية:

_ اعذُرني يا رحيمُ ، ليسَ في وسعي الإجابةُ.

فأشرقَ وجهُ رحيمَ ،وعمَّت ضياؤُهُ أرجاءَ نفسِ عالية بقولِهِ باسمَ الثغرِ:

_ وأنا لا أنتظرُ إجابتَكِ.

وفي تلكَ اللحظةِ تدخَّلتْ رحمةُ ،والتي كانتْ تتابعُ حديثَهما في صمتٍ مطبقٍ قائلةً:

_ أظنُّ أنّ علينْا الرحيلَ ، فالقائدُ الأعلى في انتظارِنَا.

***

دلفتْ عالية إلى حديقةِ قصرِ القائدِ الأعلى ، ولأولِ مرةٍ تشعرُ وكأنّ ثقتها بنفسِها تزنُ أطنانًا.

أقدامٌ ثابتةٌ،نظراتٌ ثاقبةٌ، هامةٌ مرتفعةٌ، هيَ لا تنتمي لهذا العالمِ ، وقررتْ ألَّا تنتميَ، فبعدَ لحظاتٍ قليلةٍ ستعودُ إلى موطنِها، ولذلكَ فما عادتْ قوانينُهم تسري عليْها بعدَ الآن.،وقدْ رأتْ أنّ منْ حقِّها أنْ ترنوَ ببصرِها إلى القائدِ الأعلى في آخرِ لقاءٍ يجمعُهما، فلنْ تغفرَ لها نفسُها تجاهلَها إشباعِ فضولِها برؤيتهِ قبلَ الرحيلِ..

_ أقْدمي يا عالية..

كانتْ تلكَ دعوةَ القائدِ الأعلى لعالية عندمَا انتظرتِ السماحَ بالولوجِ إلى بهو القصرِ،متحديةً الأعرافَ بارتفاعِ هامتِها وعينيْها اللتينِ اتسعتَا سعيًا لرؤيةِ شخصِهِ العظيمِ.

لبّتْ عالية دعوةَ القائدِ الأعلى الذي سمحَ لها ضمنًا منْ خلالِها برؤيتهِ، فبدَا لها كما حدثتْها رحمةُ سابقًا، صورةً معظمةً من "نورَ"، شامخَ الهامةِ، بهيَّ القامةِ،وضاءَ الهيئةِ، عظيمَ الهيبةِ، ولكنّها عجزتْ عند اقترابِها من الاستمرارِ ،

فقدْ أعلنتْ عينُها عجزَها لشدةِ ضياءِ وجهِهِ التي كادتْ أنْ تُعميَ عينيْها، فتراجعتْ عنْ رغبتِها تلك خافضةً إيّاهُما مضطرةً.

على أنَّ رحمةَ ورحيمَ ظلَّا ملتزمينِ بأعرافِهما في صمتٍ.

وهنا عادَ صوتُ القائدِ الأعلى تتردّدُ أصداؤهُ قائلًا:

_ ألَا يكفيكِ ما حصلتِ عليهِ منْ معرفةٍ وما تخللَ روحَكِ من ضياءٍ يا عالية؟!

بخجلٍ أجابتْ عالية:

_ شكرًا لتقبلِك رغبتِي سيدي، فكمْ كنتُ أتمنّى لو مُنحتُ شرفَ رؤيتِك قبلَ الرحيلِ..

_ ليسَ عليكِ الاعتذارُ، فتحذيرُك من محاولةِ رؤيتي ليستْ منْ أجلِ الإجلالِ والاحترامِ وكفى، وإنّما في الأصلِ من أجلِ سلامةِ عينِكِ ونفسِك اللتيْنِ ستعجزانِ عن إدراكِهِ..

_ والآنَ هلِ اتّخذتِ قرارَك ؟!

_ نعمْ.. أريدُ العودةَ إلى عالمي، إذا أذنتَ لي..

_ لكِ ما طلبتِ ، وهوَ ما انتظرتُهُ منكِ..

_ أتعني سيدي أنّك كنتَ عليمًا باختياري مسبقًا ؟!

_ نعمْ. ولذا منحتُكِ كلَّ الامتيازاتِ التي تؤهلُكِ لاتخاذِ صوابِ السبيلِ. أتظنينَ يا عالية حقًّا أنّني قادرٌ على إبقائِك في عالمِ الضياءِ وإحالتِكِ لتكوني

فردًا منّا؟! إنْ كنتِ انتظرتِ ذلكَ ،فأنتِ مخطأةٌ ، فأنا لستُ بساحرٍ، وإنَّما منحتُكِ الفرصةَ لتقدري هبةَ أنَّكِ بشريةٌ دون تدخلٍ من أحدٍ، وها أنتِ جئتِ بكاملِ إرادتِكِ لاختيارِ حياتِكِ الماضيةِ ،وأظنُّك قادرةً على اجتيازِ الصعوباتِ التي تنتظرُكِ لتنعمي بحياةٍ ملؤُها الهناءُ.

لمْ تجبْ عالية ،ولكنَّها أومأتْ برأسِها موافقةً بعدَ أنْ أنبتتْ شفتاهَا ابتسامةَ رضًا.

وجّهَ القائدُ الأعلى حديثَهُ إلى رحيمَ قائلًا:

_ اذهبْ يا رحيمُ ،وأعدْ عالية إلى عالِمِها.

أومأَ رحيمُ برأسِهِ قائلًا :

_ أمرُك سيدي .

قالَها رحيمُ منسحبًا مصطحبًا عالية ورحمةَ نحوَ نقطةِ العودةِ.

***

فتحتْ عالية عينيْها منتظرةً رؤيةَ غرفتِها التي اعتادتْها ،ولكنّها وجدتْ نفسَها مستلقيةً على فراشٍ وثيرٍ، لمْ يعتدْهُ جسدُها سابقًا، مسحتْ بعينيْها ما حوَلها ،فوجدتْ أنَّ أغلبَ الموجوداتِ كسَاها اللونُ الأبيضُ البكرُ،تعجبتْ كثيرًا ،وحاولتِ النهوضَ ،ولكنَّها عجزتْ ؛لتشبثِ عضلاتِها التي اعتادتِ الاستلقاءَ حينًا، فاستبدَّ الخوفُ بقلبها الصغيرِ مناجيةً نفسَها:

_ أينَ أنا ؟! لماذا لا أرى غُرفتي ؟!

همْهمتْ بصوتٍ غيرِ واضحٍ قائلةً.

_ أمّي.. أمّي..

وهُنا أشدُّ ما أدهشَها أمُّها التي استجابتْ لندائِها مُقدِمةً نحوَها في لهفةٍ ،وبعينينِ اغرورْقتَا بالعبراتِ قائلةً:

_ أنا هُنا يا عزيزتي ، أنا بجوارِك ،ولمْ أبتعدْ عنكِ لحظةً واحدةً. حمدًا للهِ على سلامتِكِ يا عالية.. حمدًا للهِ على سلامتِكِ.

ثمَّ أتبعتْ فريدةُ بعدَ أنْ هطلتْ أمطارُ مقلتيْها حتَّى كادتْ أن تحرمَها رؤيةَ حبيبتِها وأنيسةِ عمرِها، ابنتِها عالية قائلةً:

_ هلْ تشعرينَ أنّك بخيرٍ ؟! هلْ حقًّا عدتِّ إليَّ ؟! أنا غيرُ مصدقةٍ إلى الآن ، حدِّثيني يا عالية ؛لأتأكدَ أنَّني لا أهذي.

أجابتْها عالية باسمةَ الثغرِ ،ولكنْ بصوتٍ هامسٍ:

_ أنا بخيرٍ يا أمّي.. حقًّا أنا بخيرٍ.. ولكنَّني فقطْ لا أستطيعُ النهوضَ ، أشعرُ أنَّ جسدي متيبسٌ.

ثمّ استطردتْ عالية بسؤالٍ يُشغلُ بالَها كثيرًا منذُ أنِ استفاقتْ قائلةً:

_ ولكنْ أينَ أنا؟

فأجابتْها فريدةُ مطمئنةً:

_ أنتِ في المشفى يا عالية ، انتظريني للحظاتٍ، سأستدعي الطبيبَ ؛ليراكِ ويطمئنُني على حالتِكِ.

قالتْها فريدةُ ،واندفعتْ تدعو الطبيبَ ،ولكنَّ عالية شردتْ في إجابةِ أمِّها -في المشفى - وناجتْ نفسَها:

_ لَا انتقلتُ إلى المشفى؟! هلِ اعترى جسدي مكروهٌ أثناءَ عودتي منْ عالمِ الضياءِ أمْ أنَّ هُناكَ ما أجهلُهُ ؟!

وأثناءَ مناجاتِها لنفسِها عادتْ فريدةُ ملهوفةً كعاشقٍ أضناهُ طولُ الفراقِ، فاحتضنتْ يدَ عالية بينَ راحتيْها قائلةً في حنانٍ بثغرٍ تخلّلتْهُ ابتسامةٌ وعينانِ وجد الأملُ لُهما سبيلًا:

_ سيأتي حالًا لا تقلقي، ستكونينَ بخيرٍ ، أنا على كاملِ الاستعدادِ لمقايضةِ حياتِكِ بحياتي يا حبيبتي، كلُّ ما أتمناهُ ألّا أرى مكروهًا يصيبُكِ.

وفي ذلكَ الحينِ دلفَ الطبيبُ حاملًا هيبةَ ردائِهِ الأبيضِ ،وابتسامةَ العالمِ ببواطنِ الأمورِ ،ومن خلفِه ممرضةٌ حسناءُ.

اقتربَ منْ عالية ،وتفحَّصَ نبضَها ،ثمّ أمرَ الممرضةَ بقياسِ ضغطِ دمِها، سلطَ كشافًا صغيرًا إلى عينيْها فاستجابتَا للضوءِ بصورةٍ طبيعيةٍ ،ثمّ وجهَ حديثَهُ إلى عالية آمرًا:

_ حرِّكي يا عالية يدَكِ اليُمنى..

فاستجابت عالية لمطلبِهِ محركةً إيّاها ،فاستبشرَ باستجابتِها السريعةِ ،ولحقَها بسؤالٍ:

_ ما اسمُك بالكاملِ؟

_ عالية محمُود عِيد عبد الرازقِ.

_ في أيِّ سنةٍ دراسيةٍ؟

_ في الصفِّ الثاني الثانويِّ.

اكتملتْ ابتسامةُ الطبيبِ عائدًا إلى فريدةَ بالحديثِ، والتي كانتْ تتابعُ الفحصَ بقلبٍ راجفٍ وأعصابٍ شارفتْ على الانهيارِ توترًا قائلًا:

_ حمدًا لله على سلامتِها ، عالية الآنَ في خيرِ حالٍ،كلُّ وظائفِها الحيويةِ جيدةٌ ، وعقلُها استعادَ إدراكَهُ كاملًا.

لمْ تكتفِ فريدةُ بما ألقاهُ الطبيبُ على مسامعِها منْ عباراتٍ مطمئنةٍ، فعادتْ لتتساءلَ مرةً أخرى ،وكأنَّ عقلَها يأبى التصديقَ أوْ أنّهُ يسعى ليُمنحَ مزيدًا منَ الوقتِ ،لتقبلَ فكرةَ أنّ عالية عادتْ إليْها سالمةً قائلةً:

_ أتعني أنّها ما عادتْ تُعاني شيْئًا ؟!

_ لمْ تكنْ عالية تُعاني مرضًا منذُ أنْ أتتْ إلى المشفى، فكلُّ وظائفِها الحيويةِ كانتْ تعملُ بصورةٍ طبيعيةٍ، ولمْ يكنْ هناكَ سببٌ عضويٌّ لحالةِ الغيبوبةِ التي اعترتْ عقلَها شهرًا كاملًا، ولذلكَ فهيَ كانتْ تعدُّ نائمةً، ولكنَّ نومَها طالَتْ مدتُهُ لا أكثرَ كما أعلمتُكِ مسبقًا، وأنَّها متّى أرادتِ الاستيقاظَ سيكونُ ذلك بكلِّ بساطةٍ، وها هي الآنَ رأتْ أنّ هذا هوَ الوقتُ المناسبُ ،و بإمكانِها العودةُ إلى البيتِ اليومَ..

همّ الطبيبُ بالرحيلِ ،فاستمهلتْهُ فريدةُ قائلةً:

_ ولكنَّها لا تستطيعُ الحركةَ.

_ هذا أمرٌ طبيعيٌّ ، فعضلاتُها تيبستْ قليلًا بسببِ قلةِ الحركةِ طوالَ الفترةِ الماضيةِ، ساعديها على النهوضِ وستستجيبُ لكِ ، فلا أظنُّها قدْ تحتاجُ حتَّى لعلاجٍ طبيعيٍّ،كلُّ ما تحتاجُهُ هوَ البدءُ في حياةٍ جديدةٍ،أليسَ كذلكَ؟!

قالَها الطبيبُ بعد أنْ غمزَ بعينِه إلى عالية باسمًا ،فبادلتْهُ الابتسامَ في رقةٍ وخجلٍ.

وما أنْ خرجَ الطبيبُ منَ الغرفةِ حتَّى تقدمتْ فريدةُ نحوَ عالية ؛لتساعدَها على النهوضِ، فتحاملتْ عالية استجابةً لأوامرِ الطبيبِ، وبالفعلِ استطاعتِ النهوضَ بكثيرٍ منَ العسرِ ، ترجّلا سويًّا في ردهةِ المشفى حتَّى انتصبتْ قامةُ عالية ،واستطاعتِ السيرَ ببطءٍ متحديةً وهنَ جسدِها وتراخي عضلاتِهِ.

ولكنّ الصمتُ كانَ ثالثَهما إلّا ما ندرَ، فعالية كانَ عقلُها مشتتًا من الواقعِ الذي استفاقتْ عليهِ،فاستبدتْ بها الحيرةُ ؛لتناجيَ نفسَها في ذهولٍ:

_ لِمَا يقولُ الطبيبُ أنّني كنتُ أعاني غيبوبةً منذُ أنْ أتيتُ إلى المشفى ؟! وكيفَ ذلكَ وأنا كنتُ في عالمٍ آخرَ؟! فلقدْ انتقلتُ كليًّا إلى عالمِ الضياءِ، روحًا، ونفسًا، وجسدًا، فكيفَ لي التواجدُ في مكانيْنِ في آنٍ واحدٍ..

وهكذَا كانتْ عالية تُعاني صراعًا داخليًّا..فقدْ كانتْ تنتظرُ أنْ تفتحَ عينيْها لتجدَ نفسَها في غرفتِها بجوار مكتبةِ جدِّها،البقعةِ التي اعتادَ أنْ يولجَ منها رحيمُ إلي عالمِها، والتي دلفتْ منْها هيَ أيضًا إلى عالمِ الضياءِ، فتفاجأَ أبواها

اللذانِ أضناهُما البحثُ عنْها طوالَ دورةٍ قمريةٍ كاملةٍ ،أمَّا أنْ تجدَ نفسَها طوالَ الفترةِ المنقضيةِ كانتْ في المشفى أمامَ نظرِهما على حدِّ قولِ أمِّها " أنا بجوارِك، ولمْ أبتعدْ عنْكِ لحظةً واحدةً " فهذَا أمرٌ أدارَ رأسَها ،وشتَّت عقلَها، حتَّى أنّها تساءلتْ مستنكرةً:

_ أتراني حقًّا كنتُ هُنا في المشفى طوالَ الوقتِ ،ولمْ أرتحلْ إلى عالمِ الضياءِ؟! أمْ أنَّ عالمَ الضياءِ هذا برمتِهِ كذبةٌ أحياني فيها عقلي أثناءَ غيبوبتِهِ.

سعتْ عالية لطردِ الفكرةِ التي قبضتْ نفسَها بحركةٍ عفويةٍ، جاءتْ منْ رأسِها يمينًا ويسارًا بعدَ أنْ رفضتْ تقبلَها ،ورفضتْ تهيئةَ نفسِها لها، ولكنَّها أيضًا لمْ تستطعْ أنْ توُئِدَهَا تمامًا ،فعالية تعلمُ أنَّ عقلَها لنْ يرحمَها ،ويرضى بقناعةٍ تفرضُها عليهِ فرضًا، وسيمضي في طريقِ الاستدلالِ والتحليلِ؛ ليصلَ إلى الحقيقةِ، ولكنْ بالطبعِ لنْ يكونَ هذا الآنَ فأمامَها وقتًا لاستجلاءِ الصورةِ وإيضاحِها أمامَ نظرِها..

أرجأتْ عالية أفكارَها تلكَ لحينِ العودةِ إلى البيتِ، فمؤكدٌ هُناكَ طرفُ خيطٍ يهبُ نفسَها جوهرَ الحقيقةِ.

أمَّا بالنسبةِ إلى فريدةَ، فبالطبعِ السعادةُ التي غمرتْ روحَها لمْ تكنْ لتُقدرَ بثمنٍ، فابنتُها ضياءُ حياتِها التي ظنّتْ أنّها فقدتْها بسببِ خطيئتِها وأنانيتِها.

عادتْ إليْها مرةً أُخرى، سالمةً، مُعافةً، قادرةً على الابتسامِ، والأحرى قادرةً على السماحِ لها بالاقترابِ منْها واحتوائِها. وحينَها طرقَ عقلَها تساؤلٌ ،وألحَّ عليْها حتّى كادَ أن يفقدَها صوابَها وهوَ..

_ هلْ عالية نسيتْ ما كانَ بينهم قبلَ أن تبتلعَها الغيبوبةُ، وهلْ نسيتْ حادثةَ موتِ حسناءَ ؟! هلْ عقلُها تكفّلَ أثناءَ غيبوبتِها بحجبِ آلامِها وأوجاعِها؛ لتعودَ سالمةَ النفسِ ، معافةَ الجسدِ؟!

_ مؤكدٌ هذا ما حدثَ، وإلَّا فلمَا تعاملني، وكأنَّ شيئًا لمْ يكنْ؟!

وأخيرًا اهتدتْ فريدةُ إلى تجنبِ الحديثِ بصورةٍ مطلقةٍ عمّا كانَ، وإلا فقدْ تعيدُ إلى عالية ذكرى من شأنها تشويشُ علاقتِهم مرة أُخرى، ثمّ دعتِ اللهَ بكاملِ جوارحِها أنْ يُنعمَ عليْهمْ جميعًا بالسكينةِ، التي حقًّا همْ في أمسِّ الحاجةِ إليها في تلكَ المرحلةِ، حتَّى لا تنتكسُ عالية مرة أخرى فتفقدَها إلى الأبدِ.

***

_ محمودُ لقدْ عُدْنا ، لقدْ عادتْ عالية إلينا.

قالتْها فريدةُ والفرحُ والبشرُ يقفزانِ من مُحيّاها ما أنْ دلفتْ إلى البيتِ وبصحبتها عالية، التي اتخذتْ منْ كتفِ أمِّها متكأً ،ومن راحتِها مستندًا.

عادَ محمودُ إلى الصالةِ بعد أن أنهى ما بدأهُ في المرحاضِ راكدًا، فقدْ مثّلتْ له كلماتُ فريدةَ مفاجأةً سارّةً غيرَ منتظرةٍ.. وما أنْ وصلَ إلى بدايةِ الرُّدهةِ والتي

تمثلُ نهايةَ الصالةِ ،ورأى عالية وبوجهِها الصبوحُ حتَّى اغرورقتْ عيناهُ بعبراتِ فرحٍ نابعةٍ منَ القلبِ..

للحظاتٍ توقفَ عندهُ الزمنُ ، وحتَّى استوعبَ أنّ ما يراهُ أمامهُ حقيقةً وليسَ بهذيانٍ.

اقتربَ محمودُ منْ عالية ،والتي كانتْ تطالعُ لهفةَ قلبِهِ عليْها وسعادةَ عينِهِ برؤيتِها بوجهٍ بشوشٍ، ونفسٍ صافيةٍ إلى أنْ أصبحتْ في متناولِ يدِهِ، فجذبَها نحوَهُ بقوةٍ تحملُ كلَّ معاني الحبِّ التي عرفتْها الإنسانيةُ يومًا.

ضمَّها إلى صدرِه وبكى ، بكى كمنْ لمْ يبكِ من قبلُ، وحتَّى بللتْ عبراتُ الندمِ التي كانتْ تغسلُ روحَهُ كتفها ، عبراتٌ قدمتْ وافرَ الاعتزارِ راجيةً السماحَ..

وفي تلكَ اللحظةِ خشيتْ فريدةُ أن يبادرَ محمودُ بالحديثِ عنْ شيءٍ منْ شأنِهِ تذكيرُ عالية بما كانَ، فلاحقتْهُ قائلةً:

_ اليوم يا محمود وبدونِ سابقِ إنذارٍ فتحتْ عالية عينيْها لتعيدَ لنَا الحياةَ بعودتِها إليْنَا..

تنبهَ محمودُ لرغبة فريدةَ في إنهاءِ ذلك الموقفِ ؛لتمنحَ عالية فرصتَها لتستريحَ،فابتعدَ عن حضنِها ،ولكنَّهُ لم يتخلَّ عنْ دورِهِ في أنْ يكونَ متكأً لها..

أعانَها محمودُ للولوجِ إلى غرفتِها تتبعُهما فريدةُ، والابتسامةُ لمْ تغادرْ شفتيْها اللتيْن أُعيدتْ لهما نضارةٌ شابةٍ في العشرينَ منَ العمرِ في لحظاتٍ بعدَ يبوسِ الحزنِ والألمِ..

فتحَ محمودُ بابَ غرفةٍ عالية؛ لتجد أنَّ كلَّ شيءٍ كما تركتْهُ. لمْ تقلبْ أمُّها حتى صفحةَ المذكرةَ التي كانتْ تطالعَها أمسِ الرحيلَ.. وأثناءَ ولوجِها لمحتْ عيناها صفحةَ التقويمِ المعلقِ على حائطِ الغرفةِ، فوجدّتْ أنّها أيضًا لم تُنتزعْ منذُ أنْ رحلتْ.

دقّقتْ مليًّا في التاريخِ الهجريِّ ؛لتجدَ أنّهُ.. الثالث منْ مايو ،والموافق الرابع عشرَ منْ ربيعٍ الأولِ.

التفتتْ عالية إلى أمِّها قائلةً:

ـ أمِّي هلْ ساعدتني في انتزاعِ الأيامِ التي مرّت عليّ في الغيبوبةِ منْ فضلك؟

بالطبعِ استجابتْ فريدةُ لها ،وانتزعتِ الأوراقَ؛ لتقفَ عندَ الثاني منْ يونيو ، والموافق الرابع عشرَ منْ ربيعٍ الثاني..

لمعتْ عينُ عالية ،وانفرجتْ أساريرُها لرؤيةِ التاريخِ، فهوَ يمثلُ نقطةً في شباكِ خصمِها العتيدِ – عقلِها –.

استلقتْ عالية على فراشِها بمساعدةِ والديْها اللذيْنِ أخيرًا تعاونَا على شيءٍ سوى إثارةِ المشاجراتِ ،والنفخِ في النيرانِ المشتعلةِ ؛لتزدادَ لهيبًا ،ممَّا أسر عالية كثيرًا..

_ حمدًا لله على سلامتِكِ يا حبيبتِي.

كانتْ تلكَ العبارةُ اللطيفةُ بنتَ شفةِ أبيها الذي ما اعتادَ سوى الصياحِ والشجبِ، فقابلتْها عالية بنظرةٍ حنونٍ.

_ أمِّي ! كيفَ حالُ والدةِ حسناءَ؟

ألقتْ عالية بذلكَ السؤالِ ،ما أنِ استوتْ على مضجعِها كمطرقةٍ على مسامعِ فريدةَ.

للحظاتٍ تسمرتْ فريدةُ في محلِّها، فقدْ كانتْ تظنُّ أنّ عقلَ عالية قدْ رحِمَها ،وأنساها حادثةَ حسناءَ، ولكنْ بسؤالِها علمتْ أنَّها لا تزالُ محفورةً في ذاكرتِها ولشدةِ ما خشيتْ فريدةُ أنْ تعادَ إلى ابنتها ذِكرى قاسيةٌ ، ولكنَّها ما كانَ أمامَها بدٌّ من أنْ تصْدُقَها الحديثَ..

_ كما لكِ أنْ تتوقعي حبيبتي ، بالطبعِ إلى الآن هيَ غيرُ متقبلةٍ لَما حدثَ ، رحمَها اللهُ ،وألهمَها الصبرَ والسلوانَ..

أنهتْ فريدةُ جملتَها متأهبةً للهربِ خوفًا منَ المزيدِ منَ الأسئلةِ الموجعةِ قائلةً:

_ هيَّا يا محمودُ! فعالية في حاجةٍ إلى الراحةِ.

_ ولكنَّني انتظرتُ هذا اليومَ طويلًا يا فريدةُ، ولنْ أبرحَ مكاني حتَّى أفضيَ إلى عالية بما في صدري..

بالطبعِ كلماتُه تلك هوتْ على رأسِ فريدةَ ،وكأنَّها مطرقةٌ فصعقتْها.. تمالكتْ صوتَها الذي تحشرجَ يأبى الخروجَ ،وكأنَّهُ فأرٌ حُبسَ في مصيدةِ الخوفِ قائلةً بنبرةٍ مرتعشةٍ:

_ ليسَ.. ليسَ الآنَ وقتُ حديثٍ يا محمودُ ،فعالية ناعسةٌ..

رمقتْها عالية باسمةً بعد أنِ استنبطتْ خشيةَ أمِّها منْ أنْ يعادَ فتحُ حديثٍ قدْ يُؤلمُ ثلاثتَهمْ ، ويُدخلُ التوترَ إلى حياتهمْ مرةً أخرى، ثمَّ قالتْ مطمئنةً:

_ أنا لستُ ناعسةً يا أمِّي ،فلي شهرٌ كاملٌ وأنا نائمةٌ، وحقًّا أريدُ الاستماعَ إلى حديثِ أبي.

وهُنا حولتْ نظرَها إلى محمودَ ،وقالتْ بنبرةٍ واثقةٍ هادئةٍ:

_ تفضّلْ يا أبي.

رضختْ فريدةُ لرغبةِ عالية وأبيها ،والتي لأولِ مرةٍ تقفُ ضدَّ رغبتِها، جالسةً على الأريكةِ تترقبُ اللحظاتِ القادمةَ، وما قدْ تحملُهُ منْ مواجهاتٍ أليمةٍ..

جلسَ محمودُ بجوارِ عالية على طرفِ الفراشِ ،ثمّ قالَ بنبرةٍ هادئةٍ:

_ منذُ ما يقربُ منَ الشهرينِ قدْ مضيَا ،حدثتِ المشادةُ بيني وبينَ أمِّك ،ونبشَ فيها الماضي بآلامِهِ وأوجاعِهِ، وقدِ استمعتْ إليْها كاملةً ، في ذلكَ اليومِ أنتِ تقريبًا استمعتِ إلى وجهةِ نظرٍ واحدةٍ، وهيَ وجهةُ نظرِ فريدةَ التي تحملتْ خطأَها طوالَ ستة عشرَ عامًا ، أمَّا اليومُ فأتمنَّى أن تمنحيني فرصتي لقصِّ ما حدثَ من وجهةِ نظري أنا..

_ وهذا ما أنتظرُهُ منكَ يا أبي ، أنْ تبررَ كلَّ الاتهاماتِ التي رمتْكَ بها أُمّي.

_ نعمْ. لقدْ أحببتُ فريدةَ منذُ الصغرِ، فلمْ ترَ سواها عيناىَ، وعندمَا علمتُ برفضِها لي واختيارِها لاستكمالِ دراستِها على خطبتِنا آلمني قلبي كثيرًا، ولا أنكرُ أنَّ أُمي قدْ تكونُ بالغتْ في رفضِها لعلاقتِنا طوالَ السنواتِ التاليةِ، باثَّةً في نفسي الحقدَ والكراهيةَ لفريدةَ، ولكنَّني لا أستطيعُ إلقاءَ اللومِ عليها بالكاملِ، فهي كانتْ تخشى عليّ أنْ أحيى حياةً غيرَ متكافئةٍ ،تُشعرني بالنقيصةِ والدونيةِ، وكلّما كانتْ تراني أبكي فراقَها كانتْ تذكّرُني برفضِها لي، وبكونِها لوْ أحبَّتني كمَا أحببتُها ،لكانتْ تنازلتْ عن حياتِها ذاتِها من أجلي.

_ بالطبعِ تكرارُ ذلك الحديثِ كانَ له أكبرُ الأثرِ في نفسِ مراهقٍ لمْ يتخطَّ الثامنةَ عشرَ ربيعًا.

_ حمّلتْ قلبي حقدًا يعادلُ الحبَّ ،ورغبةُ في الانتقامِ تعادلُ رغبةَ الاحتواءِ ، وما خشيتْ أمي عليّ منهُ قدْ حدثَ، ولكنْ في أبشعِ صورةٍ له، فابْتعادي عنْ فريدةَ شعرتُ بالدونيةِ والنقيصةِ بالفعلِ، ولمْ تستطعْ أمي أن تعوضَني ما فقدتُّهُ، بلْ زادتْهُ ألمًا ،كلّما رأتْني أختلسُ النظرَ إلى شرفتِها ؛لتتلاقى عينانا صدفةً تنهرُني وتذكرُني برفضِها لي.. كانتْ فريدةُ تحققُ أحلامَها أمامي، تنلْ ما بغتْهُ نفسُها من دراسةٍ ألحقتْها بالكليةِ التي اختارتْها ،وتمنتْها منذُ صغرِنا، أمَّ أنا فأحلامي توقفتْ عندَها، لمْ أعدْ أسعى لتحقيقِ شيءٍ ،فتساوتْ عنديَ

الأحلامُ، وبهتتِ الألوانُ.. توفَّت أُمي الداعمُ الروحيُّ لي في معركتي معَ نفسي، وأيضًا محفزتي على القتالِ، ماتتْ من كانتْ تذكرُني دومًا بعجزِي..

_ وحينَها اضطررتُ للعملِ لكسبِ قوتِ يومي، تنقلتُ بين أعمالٍ كثيرةٍ، ولكنْ ظلَّ الفشلُ يلاحقُني كصديقٍ عزيزٍ يأبى الرحيلَ ، ولا أنكرُ أنَّني كنتُ داعيًا له، مرحبًا به، بخنوعِ نفسي للركونِ والتخاذلِ ، فماذا تنتظرينَ منْ إنسانٍ اغْتيلتْ أحلامُهُ ؟!

_ تزوجتْ أختي أنيسةُ في بيتِ العائلةِ، وبالطبعِ مثّلتْ لي تلكَ الزيجةُ صدمةً أخرى رمتني في مقتلٍ، فزوجُها كان قاسيًا مع تخاذلي، حادًّا معَ استسلامي ،كلَّما رآني بلا عملٍ رماني بأسهمِ عينيْهِ اللاذعةِ، وفي بعضِ الأوقاتِ كنَّا نصلُ إلى حدِّ المشاجراتِ، والتي كانتْ أنيسةُ تخشاها خشيةَ الموتِ، فهيَ تسعى إلى الحفاظِ على زواجِها كمَا أنَّني أثيرُ شفقتِها،فكانتْ تُعاني في تلك المواقفِ حيرةً لأيِّ طرفٍ تنتمي ، وكلٌّ منّا كانَ ينتظرُ دعمَها له في قضيتِهِ العادلةِ..

_ وذلك إلى أنْ عرض عليَّ أحدُ أصدقائي الانتقالَ منْ وإلى المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ،مصاحبًا لرحلاتِ الحجِّ والعمرةِ، بالطبعِ وافقتُ هربًا منْ واقعٍ ما عادتْ نفسي تحتملُهُ، تاركًا بيتَ عائلتي لزوجِ أُختي يلهُو فيهِ كيفمَا يشاءُ بعدَ أنْ تمكنَ منْ إبعادي عنهُ ؛بحجةِ خوفِهِ على مصلحتي ومستقبلي..

_ ولكنِّي لمْ أنسَ فريدةَ طوالَ تلك الفترةِ، فقدْ ظلتْ خلفيةً لأحداثِ حياتي، ومحركًا لها،فأسعى نحوَ النجاحِ لإدراكِهِ ،ملوحًا لها بخطَئِها في رفضي، ولكنَّني غيرُ جادٍّ في تحقيقِهِ، فيعتريني مزيدٌ منَ الفشلِ..

_ انتميتُ فكريًّا للوهابيةِ، وحينَها فقطْ شعرتُ أنّني مكرّمٌ على العالمينَ، فأنا مسلمٌ سنيٌّ يتبعُ هديَ السيرةِ النبويةِ عائدًا إلى مجتمعِهِ الذي يلهو في آثامِهِ ،كما يلهو الحيوانُ في فضلاتِهِ ، كنتُ ناقمًا على كلِّ شيءٍ، ناقدًا لكلِّ شيءٍ، وأولهِمْ:زوجِ أختي ناقصِ الدينِ، فاسدِ العقيدةِ ، دونَ أنْ أنتبهَ أنَّني بذلكَ كنتُ أسعى للانتقامِ منهُ متعاليًا بإيمانٍ قدْ لا يتقبلُهُ اللهُ منّي لغرورِ نفسي، وكانَ ذلكَ موعدَ الصدامِ الثاني..

_ أمّا بخصوصِ فريدةَ، فقدْ أذهلني حينَ عودتِي أنَّها لمْ تتزوجْ بعدُ، وتساءلتْ نفسي، تُرى هلْ ما زالتْ تنتظرُني بعدَ كلِّ تلكَ السنواتِ ؟!

_ بالطبعِ لمْ يكنْ هناكَ أحدٌ ليجيبَ، فتطوعتُ أنا بالإجابةِ بدلًا منها:بالتأكيدِ أنْ "نعم"..

_ تودَّدتُّ إليها عندما أتتْ إلى بيتِنا بعدَ طولِ غيابٍ للتدريسِ لابنةِ أنيسةَ، وحينَها علمتُ أنَّها حقًّا كانتْ في انتظاري..

_ تناسيتُ ما كانَ بيننا ، تناسيتُ ما حمّلتْهُ أمي لنفسي منْ كرهٍ وحقدٍ لها؛ لأكتشفَ أنّهُ كانَ مجردَ شرنقةٍ حُفظتْ بداخلِها دونَ أنْ تدركَ حبِي لها، فإنْ

كنتُ مضيتُ في حياتي بصورةٍ سويةٍ ،لكنتُ الآنَ جدًّا لأحفادٍ منِ امرأةٍ سواها.

_ فاحتوتِ الكراهيةُ المحبةَ ؛لتحافظَ على قلبي كملْكٍ لها لحينِ عودتنا إلى بعضِنا..

وفي ذلكَ الحينِ تحولَ محمودُ بنظرِه إلى فريدةَ قائلًا في محبةٍ حقيقيةٍ:

_ لمْ يضمرْ قلبي لكِ يا فريدةُ يومًا كراهيةً ، كنتِ دومًا أملي الذي أفنيتُ عمري عبثًا باحثًا عنهُ..

أثارَ حديثُهُ الذي شعرتْ فريدةُ بنبرتِهِ الصادقةِ النابعةِ منَ القلبِ حفيظتَها ؛لتتحركَ دفاعاتُها التي تأبى الخضوعَ والخنوعَ قائلةً:

_ ولكنَّكَ عمدتَّ إلى إذلالي والانتقامِ مني ، فكيفَ لي تصديقُك الآنَ؟!

هبَّ محمودُ واقفًا ؛ليكونَ في المقابلِ لها ناسيًا عالية وحديثَهُ الذي كانَ موجهًا لها قائلًا:

_ أقسمُ لكِ ،أنا لمْ أسعَ يومًا لإذلالِكِ. أنا حقًّا ضعفتُ لشدةِ عشقي لكِ، كما ضعفتِ أنتِ أيضًا ، لمْ أكنْ لأدبرَ لَما وقعَ بيننَا مطلقًا ، سَلي نفسَك يا فريدةُ بأيِّ نفسٍ مريضةٍ قد أسعى لإيذاءِ حبيبةِ عُمري ، وسَلي نفسَك لَما أنتِ أيضًا ضعُفتِ؟ لأنَّكِ تحبينَني ضعفتِ، ولأنِّني أعشقُكِ ضعفتُ.. نعمْ ،ارتكبْنا خطيئةً عشْنا عمرنَا بطولهِ نسعى للتكفيرِ عنْها، ولكنَّني أقسمُ لكِ لمْ أتعمدْها..

_ وإنْ كانَ حديثُكَ صحيحًا، فلماذَا عندمَا أعلمتُكَ بحملي ظلِلتَ تتهربُ منَ الزواجِ؟!

_ لأنَّني كنتُ أعاقبُ نفسي فيكِ دونَ أنْ أدريَ، وكانتْ هناكَ العديدُ منَ الأسئلةِ تحاصرُني، كنتُ مشوشًا، ونفسي مضطربةٌ، كنتُ أحتاجُ بعضَ الوقتِ لترتيبِ أفكاري ؛حتَّى لا نحيى حياةً قاسيةً كالتي عشْناها سويًّا بالفعلِ ،أنتِ لمْ تفهميني حينَها، وما كنتُ قادرًا على إيصالِ ما تكنُّهُ نفسي ،وما يعتملُ بينَ جوارحي منْ عذاباتٍ ومخاوفٍ.. ومنْ هُنا أتى سوءُ الفَهمِ..

_ عنْ أيِّ سوءِ فهمٍ تتحدثُ؟ لقدْ كنتُ حاملًا بطفلتِكَ،وأنتَ كنتَ هائمًا في أفكارِكَ ومخاوفِكَ ، ألمْ تحوِ مخاوفُك تلكَ الخوفَ منَ الفضيحةِ التي ستلحقُ بكليْنا.

_ لمْ أكنْ لأتركَكِ يا فريدةُ مهمَا حدثَ، ولكنّني كنتُ فقطْ أحاولُ ترتيبَ أوراقي حتَّى لا أكونَ عائلًا عليْكِ،ولكنَّكِ لمْ يكنْ في استطاعتِكِ الانتظارُ، كنتِ تطالبينَني بالزواجِ حتَّى أشعرتِني بكونكِ تردِينَني فقطْ خوفًا منَ الفضيحةِ ،لا لحبِّك لِي، وهذا ما كانَ يثيرُ حنقي.

_ أنا كنتُ أُعاني الخوفَ والرعبَ والألمَ ،وأنتَ كنتَ تخشى ألا أكونَ حقًّا أُريدكُ لحبِّي لكَ ، أأنتَ مجنونٌ ؟! ألمْ تسألْ نفسَك ، أيُّ حبٍّ قدْ تفكرُ فيه امرأةٌ وجدتْ نفسَها في حالٍ كحالي، وقتَها فلتذهبِ المشاعرُ والعواطفُ التي

أذلّتني إلى الجحيمِ في مقابلِ حياةِ جنيني، وما سيلحقُ به من عارٍ إنْ لمْ تتزوجْني..

_ سأعيدُها مرةً أخرى لمْ أفكرْ مُطلقًا يا فريدةُ في التخلِّي عنكِ، وإنَّما كنتُ فقط في حاجةٍ للشعورِ بحبِّك لي رغمَ فشلي الذي كانَ سببًا في ابتعادِكِ عنِّي مسبقًا..

_ أيُّ رجلٍ حالمٍ أنتَ ؟! تنتظرُ منْ ضحيتِكَ الأمانَ..

_ لستِ ضحيّتي يا فريدةُ ، لقدْ كُنّا سويًّا ضحيتيْنِ لضعفِنا، استدعتنَا عواطفُنا فخضعْنا في لحظةٍ لها، لماذَا تضعيني حتَّى الآنَ في خانةِ الذئبِ الذي سعى لنهشِ كرامتِكَ...

قالَها محمودُ ،ثمَّ قدمَ نحوَ فريدةَ محتضنًا راحتيْها بينَ يديْهِ قائلًا:

_ لقدْ أحببتُكِ يا فريدةُ، لمْ أحبَّ أحدًا سواكِ طوالَ حياتي، لمْ أرَ حتَّى سواكِ، ولمْ أسعَ لنيلِ رضا أحدٍ سِواكِ، ولكنَّ رضاكِ كانَ بيني وبينَهُ كالذي بينَ الأرضِ والسماءِ،كالذي بينَ الكفرِ والإيمانِ، كلّما حاولتُ فشلتُ، كلّما اقتربتُ ابتعدتُّ ، أشعرتِني أنَّ بابَ التوبةِ قدْ أُغلقَ، وأنَّ الصحائفَ قدْ جُمعتْ،وأنَّ ليس هناك سبيلٌ للعودةِ لإصلاحِ ما كانَ ، فيئستُ منكِ، ومنْ حياتي، ومنْ مستقبلٍ ما عدتُّ أنتظرُهُ ، كنتُ أهيمُ بك شوقًا و،أنتِ تعيشينَ معي تحتَ سقفِ بيتٍ واحدٍ، كنتُ أطالعُكِ خلسةً متحاشيًا عينيْك التي كانتْ تلهبُني بقذائفها متى قابلتْ عينيَّ.. لمْ تعطِ لي فرصةً واحدةً للحديثِ ،

فسياستُكِ كانتِ الهجومَ والانقضاضَ حتَّى أنسيتِني الكلمَ، عشتُ طوالَ السنواتِ الماضيةِ تشيرينَ إليّ ضعفي الذي أحالَني للاعتمادِ عليكِ،نفرتِني منَ البيتِ ، هلْ تعلمينَ أينَ أذهبُ يوميًّا حتَّى صلاةِ المغربِ ؟! بالطبعِ لا، ولمْ تكترثي يومًا، أنَا أهربُ منْ بيتي إلى بيوتِ اللهِ ، فهيَ أرحبُ وبحاجةٍ إليَّ كمَا أنّني بحاجةٍ إليْها، فأقومُ متطوعًا على تنظيفِها والاهتمامِ بصيانتِها ؛لأشعرَ بجدوى وجودي، لأشعرَ أنَّ هناكَ عملًا ينتظرُني بعدَ أنْ أشعرتِني بعدمِ جدوى أعمالي الصغيرةِ التي تعودُ عليكِ بالفتاتِ ،فتثيرُ استهانتَكِ واحتقارَك أكثرَ من كونِها ترضيكِ.

أفلتتْ فريدةُ يدَها منْ بينِ يديْ محمودَ ،وخرَّتْ جالسةً على الأريكةِ مرةً أُخرى باكيةً ،ثمَّ قالتْ:

_ ولماذا لمْ تحاولْ يومًا البوحَ بما في قلبِكَ ؟! لماذَا لمْ تقلْ هذا الكلامَ منْ قبلُ ؟!

_ لأنَّكِ لمْ تعطِني يومًا فرصةً ، فكنتِ تحيطينَ نفسَكِ بهالةٍ فولاذيةٍ لا يسعُني اختراقُها مهمَا حاولتُ ، صممْتِ أُذنيْكِ عنْ حديثي ، أعميْتِ قلبَكِ عنِ الشعورِ بي، كرّهتِني يا فريدةُ منْ قلبِكِ.

_ أنتَ مخطأٌ، فأنَا لمْ أكرهْكَ يومًا ، ألمْ تسألْ نفسَك لمَ لمْ أطلبْ منكَ يومًا الانفصالَ، وحتَّى بعدمَا حققتَ غايتي بحمايتِي منَ الفضيحةِ وإثباتِ نسبِ ابنتِي ؟!

_ لأَنَّني حقًّا أُحبكَ يا محمودُ، أحبُّكَ حبَّ أمٍّ غاضبةٍ على ابنِها، ولكنَّها لمْ تكرهْهُ يومًا، ولنْ تكرهَهُ مهمَا أذلَّها وآلَمَها.

_ وكنتُ أنتظرُ منكَ إذابةَ جبلِ الجليدِ الذي شُيِّدَ بينَنَا ؛ليصنعَ حائلًا الأيامُ ذاتُها عجزتْ عنْ هدمِهِ، ولكنَّكَ لمْ تبادرْ ، أوْ كنتُ حقًّا حريصةٌ على سدِّ الثغراتِ وغلقِ القنواتِ التي قدْ تُفتحُ بينَنا دونَ أنْ أعِيَ.

_ لا أعلمُ اليومَ منْ عليهِ الاعتذارُ منَ الآخرِ ، ولكنَّني متأكدةٌ أنَّنا سويًّا يجبُ أنْ نعتذرَ منْ عالية، فهيَ منْ قاستْ عنادَنا وقسوةَ قلوبِنا.

وهُنَا تدخلتْ عالية في الحديثِ بعدَ أنْ نسيَا والداها وجودَها تقريبًا قائلةً:

_ أنا لا أنتظرُ منكمَا اعتذارًا ، فتكفيني جلسةُ المكاشفةِ تلكَ ،ولكنَّني أيضًا لا أستطيعُ أنْ أخفيَ آلامي، فلوْ أنَّ تلكَ الجلسةَ كانتْ منذُ سبْعة عشرَ عامًا ما كنّا كابدْنا ما كابدْناهُ، ولكانَ سوءُ الفهمِ وُئدَ قبلَ أنْ ينموَ ويتشعبَ داخلَ نفسيْكُما ، فكنتُما إمَّا أنْ تعودَا إلى بعضِكُما ليجمعَكما ودٌّ ورحمةٌ حقيقيانِ، وإمَّا تنفصلانِ ليعيشَ كلٌّ منكمَا حياةً سويةً معَ احتفاظِكمَا باحترامِ كلٍّ منكُمَا للآخرِ.

_ جميعُنا - نحنُ معشرَ البشرِ- نخطأُ ، ولكنَّ أعظمَنا منْ تداركَ خطأَهُ ،وعمدَ إلى إصلاحِ توابعِهِ ، واللهُ يغفرُ لمنْ يشاءُ.

_ أنتِ لا تعلمينَ يا عالية كمْ أثلجَ حديثُكِ هذا صدري، وحملَ عنْ كاهلي همًّا كنتُ أُقاسيهِ منذُ عَلمتِ الحقيقةَ، ولكنَّ حكمتَكِ تلكَ وحسنَ تفهمكِ لنْ يعفيني منَ الاعتذارِ.

هكَذا تحدَّثَ محمودُ ،ثمّ استطردَ مطوقًا رأسَ عالية بيدِه في حنانٍ بعدَ أنْ لثمَ جبينَها معتذرًا:

_ سامحيني يا حبيبتي على قسوتِي طوالَ سنواتِ عمرِكِ، ولكنَّني كنتُ حقًّا عاجزًا على التعاملِ معكِ بالصورةِ الصحيحةِ، لمْ أشأْ يومًا أنْ أجرحَكِ أوْ أقسوَ عليْكِ، ولكنَّني حقًّا كنتُ أخشَى عليْكِ كثيرًا، إلى جانبِ افتقارِي القدرةِ على التعبيرِ عنْ مشاعري، وفريدةُ -جزَاها اللهُ- انتقمتْ منِّي فيكِ ، فعمدتْ إلى اتساعِ الهوةِ بيننَا، وكنتُ أرى ذلكَ، ولكنَّني عاجزٌ عنْ مراجعتِها، فكنتُ أظنُّ أنَّ الدنيا وما عليْها ما عادتْ تعنيني، وحبُّك لي لا يهمنِي، فيكفينِي حمايتُك، حتَّى وإنْ بدوتُ لكِ في صورةِ وحشٍ ظالمٍ ، أمَّا وإنْ شعرتُ باقترابِ فقدِكِ إلى الأبدِ حتَّى أيقظني ذلكَ، وعادَت إليَّ عواطفٌ تجاهلتُها، وعمدتُّ إلى دفنِها، لأجدَ نفسي أذوبُ خوفًا عليْكِ.

_ لذَا أرجُوك يا عالية سامحينَا، ولا تُعاقبينا بفقدِكِ مرةً أُخرى فهذَا أقسى ما مررْتُ بهِ.

_ عِديني يا عالية.

ابتسمتْ عالية قائلةً:

_ أعدُكَ يا أبي، أعدُكَ، والآنَ أتركاني أتستريحُ قليلًا، فأنَا حقًّا منهكةٌ.

همَّتْ فريدةُ ومحمودُ بالانسحابِ لاستكمالِ ما بدآهُ أخيرًا منْ عتابٍ قادرٍ على ترميمِ شقوقِ النفوسِ ،واندمالِ الجروحِ بعيدًا عنْ عالية، ولكنَّها استوقفتْ أمَّها قبلَ أنْ تغادرَ الغرفةَ متسائلةً:

_ أمي! أينَ وجدتِّني فاقدةَ الوعْي ؟

أشارتْ فريدةُ بسبابتِها نحوَ البقعةِ المجاورةِ للمكتبةِ قائلةً:

_ هُنَا يا عالية ، كنتِ ساقطةً أرضًا ها هُنا، ولكنْ لِمَا؟!

_ لا شيْءَ، أحاولُ فقطِ استرجاعَ ما حدثَ.

ثمَّ استدركتْ عالية حديثَها بإلقاءِ حجرٍ أصمٍّ في برْكةٍ نفْسِ أمِّها التي كادتْ أنْ تستكينَ أخيرًا بعدَ طولِ قلقٍ واضطرابٍ قائلةً:

_ هُناكَ قرارٌ يجبُ أنْ أعلمَكِ بهِ ، لقدْ قررتُ الالتحاقَ بالمعهدِ العالي للموسيقي بدلًا منْ كليةِ الطبِّ.

لفظتْ عالية كلماتِها ضاغطةً على كلِّ حرفٍ فيهَا ،وكأنَّها تشملُ ضمنًا" نعمْ، أنا أرفضُ تحقيقَ حلمكِ على حسابِ رغبتي ".

فما كانَ منْ فريدةَ إلَّا أنِ ابتسمتْ ابتسامةً صفراءَ مرحبةً بقرارِ عالية علَى الرغمِ عمَا يعتملُ بداخلِها منْ صدمةٍ،ولكنَّها آثرتِ الصمتَ رضوخًا لرغبةِ ابنتِها العائدةِ منَ الموتِ.

***

وفي صباحِ اليومِ التالي كانتْ عالية تقفُ أمامَ قبرِ حسناءَ ، مُتلحفةً السوادَ، دامعةَ العينينِ، بعدَ أنْ أبتْ نفسُها أنْ تبدأَ حياةً جديدةً بدونِ صديقتِها الوحيدةِ.

جلستْ عالية في المقابلِ من قبرِ حسناءَ، وقصَّتْ عليْها ما كانَ في عالمِ الضياءِ، وكأنَّها تَراها ،وتنصتُ إليْها باهتمامٍ ،كما اعتادتْ منْها، وما أنِ انتهتْ حتَّى قرأتْ على روحِها الفاتحةَ، داعيةً اللهَ أنْ يتغمدَها بواسعِ رحمتِهِ ، وبفيضِ سلامِهِ..

_ سنظلُّ أصدقاءً إلى أنْ يجمعَ أرواحَنا عالمٌ آخرٌ.

وبتلكَ العبارةِ التي انطوتْ على وعدٍ صادقٍ اختتمتْ عالية زيارتَها لحسناءَ عائدةً إلى واقعِها.

تمَّتْ

حروف من نور

١٠ برج الاشراف شارع الهداية المريوطية فيصل الجيزة

"جمهورية مصر العربية"

الايميل yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)